تشارلي ماي سيمون

كلنا إخوة

صورة قلمية لألبرت شفيتزر

ترجمة نوال السعداوي

كلنا إخوة

صورة قلمية لألبرت شفيتزر

تأليف

تشارلي ماي سيمون

ترجمة

نوال السعداوي

هنداوي

كلنا إخوة

تشارلي ماي سيمون

All Men are Brothers

Charlie May Simon

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٧٢٧ ٥

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٦.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٦١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيدة الدكتورة نوال السعداوي.

المحتويات

مقدمة	٧
الفصل الأول	١٥
الفصل الثاني	٢٥
الفصل الثالث	٣٣
الفصل الرابع	٤٣
الفصل الخامس	٥٧
الفصل السادس	٦٥
الفصل السابع	٧٣
الفصل الثامن	٨٣
الفصل التاسع	٩٧
الفصل العاشر	١١٣
الفصل الحادي عشر	١٢٧
الفصل الثاني عشر	١٣٩
الفصل الثالث عشر	١٤٧
الفصل الرابع عشر	١٥٥

مقدمة

حيثما تساءل سائل: «من هو أعظم شخص يعيش في العالم هذه الأيام؟» كان الجواب واحدًا لا يشذ عنه إلا القليل: إنه ألبرت شفيتزر. ولكنك إذا أردت أن تزوره اقتضاك ذلك أن ترحل إلى أدغال أفريقيا النائية بجوار خط الاستواء، إلا إذا اتفق أن كان شفيتزر في زيارةٍ من زياراته النادرة لداره في فرنسا. وإنك لتجد نفسك — حتى في عصرنا هذا، عصر الطائرات النفاثة — مضطرًّا إلى أن تقطع الميلين ونصف الميل الأخيرة من رحلتك في زورقٍ نُحت من الشجر، أو في قاربٍ من قوارب التجديف.

ووصلت في أول زياراتي للمستشفى القائم في لامبارينيه في وقتٍ متأخر بعد الظهيرة، وكنت قد قطعت بالطائرة أطول مسافة ممكنة. وكانت الطائرة المحلية الصغيرة التي تطير من برازافيل مجتازةً قلب أفريقيا الاستوائية الفرنسية قد هبطت في حقلٍ موحل وعرٍ ليس به إلا كوخ وسلم خشبي طويل، ممَّا دل على أنه شقة من الأرض تُستخدم مهبطًا للطائرات. وركبت من هناك عربةً من عربات النقل سارت في دربٍ من العسير أن يسمَّى طريقًا، ووصلت إلى المرسى النهري حيث كان في انتظاري زورق من زوارق التجذيف ليحملني إلى المستشفى. وجلس إلى المجاذيف خمسة رجال عرفت أنهم مرضى من الأربطة النظيفة التي تلتف حول أذرعهم وأرجلهم، وهداني شعورٌ يشبه الغريزة بأنهم كانوا مجذومين أوشكوا على البرء، وإن كانوا لا يزالون تحت الملاحظة.

وجدَّفنا ساعةً أو نحوها مصعدين في النهر ضد التيار، وكان الفصل الممطر قد حلَّ والمياه عالية، والنهر الحافل بالغرين يمتد متفرعًا إلى قنواتٍ تشبه الأذرع تلتف بجزيرة، والأشجار الطويلة، وشجرة قطن الحرير الضخمة بجذعها الأملس الرمادي وثنايا جذورها النامية من الداخل، وأشجار المانجو التي تُشبه المظلة المستديرة تنمو على أطراف الجسور

بفروعها الثقيلة التي تتدلَّى حتى تلمس الماء، والكروم المزدهرة تلتوي وتتشابك حولها حتى تبدو للأنظار وكأنها جزءٌ من الأشجار نفسها، وسميتها بما وعته ذاكرتي من أسماء أشد الأزهار شبهًا بها في بلدي، وكانت إحداها تشبه زهرة «حنك السبع» شبهًا قليلًا، وثانية تشبه زهرة الكاميليا الحمراء، وثالثة لها أوراق تشبه زهرة نور العشية، وبدت جزائر العشب وأوراق البردي الصغيرة تعلو وتهبط مع الأمواج كقطة صحماء تبسط عضلاتها، وانتثر هنا وهناك على القمم تلتف بها ثنايا كأهداب الثوب، عش من العشب يتمايل، ومهد تسكن إليه طيور الماء.

وجدَّفنا مصعدين نحو المرسى حيث رأيت وجوهًا مألوفة لديَّ بين الوجوه التي انتظرت لتحييني: كانت هناك الآنسة إمَّا والآنسة ماتيلدة، وهناك كان الدكتور شفيتزر نفسه، ولقد عرفتهم في الحال من صورهم الشمسية، وأشعرتني حرارة ترحيبهم بي بأنني بين أصدقاء قدامى عائدة إلى مكانٍ عرفته وأحببته.

وكان كل شيء كما رسمته في مخيلتي تمامًا بعد أن قرأت كتب الدكتور شفيتزر عن مستشفاه القائم في الأدغال، حتى إنني شعرت بالأُنس لأول وهلة في حجرة الضيافة الصغيرة التي خُصِّصت لي. كانت حجرةً صغيرة، ولكن صغرها لم يُفسد نظامها، ولها ناحيتان مفتوحتان ليس عليهما إلا ستائر وشبكة تكشف الخلاء جميعه بما فيه من منظر نهر «أوجو» ومن ورائه الضفاف الممتدة المنخفضة، وكان على النضد صينية شاي عليها قدحٌ من الشاي الساخن وسكر وطبق من الكعك، ووعاء فيه ثمار اليوسفي وموز. وأبدلت بملابسي ملابس نظيفة، ثم نهض إليَّ الطبيب ليُرحِّب بي، وبصحبته الآنسة إمَّا التي كانت تُترجم أحاديثنا.

كانت فيه بساطة لا يجدها المرء إلا في العظماء حقًّا، لا يسدل بينه وبين الآخرين حجابًا بالرغم من تلك المطالب الكثيرة التي كانت تستنفد وقته، وبدا لي كأنه شخصٌ عرفته طوال حياتي مع أننا كنا نتكلم بلغتين مختلفتين، وكانت الآنسة إمَّا تعيد وراءنا ما نقوله جملةً جملة بالألمانية أو بالإنجليزية.

وأصبحت برغمي مريضةً بالمستشفى وزائرة في الوقت نفسه، كنت قد أُصبت في الأيام القليلة السابقة في هولندة بحادث دراجة نتج عنه رض في عقبي حاولت أن أتجاهله، ولكن الدكتور شفيتزر بنظره الحاد الدقيق الملاحظ لم ينخدع، وجعل أحد مساعديه يربط مفصلي، ولزمت الفراش بضعة أيام. وكان من المحتمل أن أضيق ذرعًا بهذه البلادة التي دُفعت إليها دفعًا شأن أي إنسان سليم معافًى، لولا عيادة الدكتور شفيتزر لي كل يوم، كان

يأتي ومعه الآنسة إمَّا أو المرضة التي كانت تُغيِّر الأربطة، وعن طريقهما كان يتحدَّث إليَّ، وتكلَّم عن جوته وقارن بين ترجمته لفاوست وبين الترجمة الإنجليزية القديمة، وسألني بعض الأسئلة عن أمريكا، وحدثني عن زيارته الوحيدة لها حيث ألقى محاضرته عن جوته في أسبن من أعمال كلورادو، وكانت عيناه العسليتان تتألقان بومضاتٍ سريعة حينما كان يصف حيرته وعجبه للأزرار الكثيرة التي وجدها في مقصورته بالقطار.

وقال: «وضغطت على زر، وقد ظننت أنني أدق الجرس للخادم، ولكن الخادم لم يأتِ ورأيت شيئًا ينقلب إلى سرير، ثم ضغطت على زرٍّ آخر لأنني كنت في أشد الحاجة إلى الخادم، فإذا بحوض الغسيل يظهر أمام عيني!»

وتحدث عن جمال النهر الذي كنت أراه من مكاني، وأنا أجلس مستندةً إلى دعاماتٍ في السرير، وتحدث عن أهالي أفريقيا حديثًا يفيض بالرحمة والحب، وإنه لمن الغريب وأنا أتمثل هذه الزيارات في ذاكرتي أن كلمات المرضات الإنجليزية ليست هي التي تراودني وإنما يلازمني صوت الطبيب المنغوم، وحركاته، وابتساماته، وتعبير العطف والرحمة في عينيه، وكأنما فهمت كل ما كان يعنيه من غير حاجةٍ إلى الكلمات.

ولَمَّا غادرت الفراش واستطعت أن أسير على قدمي مرةً أخرى، سمعت الطبيب يطرق بابي ذات صباح ويُشير إليَّ بأن أضع قبعتي وآتي في صحبته، ولم يكن معنا مترجم فسرنا في صمتٍ ذلك الصباح، وكان طريقنا يمتد بين حرجة الموالح التي كانوا يسمونها بالمزرعة، وكانت ثمار العنب الناضجة واليوسفي والليمون تتدلَّى من الأشجار ككراتٍ ذهبية ضاربة إلى الخضرة، وكان الطبيب يتوقف من حينٍ إلى حين ليتفقد شجرةً أثقلت كاهلها الأيام، ولم تحمل من الثمر إلا قليلًا، ثم نستأنف مسيرنا في صمتٍ مرة أخرى. وقطف برتقالةً ناضجة وقشَّرها بسكينٍ ثم أعطاني نصفها وأخذ الباقي لنفسه. وانتهى مسيرنا عند حظيرة ظبي وليد نشأ يتيمًا أثكلته أمَّه بندقيةُ صياد. وجاء الظبي يدفع أنفه الندي في سلك الحظيرة، ويلعق أيدينا استطابةً للملح، وحينما أعود بذاكرتي إلى الوراء فإنني أجد هذه النزهة الصامتة في مخيلتي أنبضَ بالحياة من كثيرٍ من الأحاديث الطويلة التي دارت بيني وبين أصدقائي.

وكانت الأيام التي تلت ذلك زاخرةً حافلة، ومضيت أتجوَّل وحدي في رحلاتٍ صغيرة أستكشف بها أراضي المستشفى؛ لأن الأطباء والممرضين القائمين بالعمل كانوا مشغولين في كل ساعةٍ من ساعات اليوم.

وبينما كنت أسير مصعدةً في التل نحو قرية الجذام ومعي بيير، وهو صبي صغير مجذوم له عينان فاترتان تولَّى إرشادي، رحت أفكر في الأفاعي والمجذومين، ذانك الأمران المخوفان اللذان يرتدَّان في القدم إلى فجر تاريخ الإنسان. ورأينا فرعًا من شجرة نخيل يتثنَّى وإن كان الجو قد خلا من النسيم، فتوقف الصبي في إثره حِيطةً وحذرًا؛ فقد تكون حية المامبا أو أصلة من الأصلات مختبئةً هناك، ولكنه لم يكن سوى فأر نخيل أسرع منتقلًا إلى فرعٍ آخر.

ورأيت المرضى وهم يهبطون إلى حيث تُغيَّر لهم ضماداتهم، ويبتلعون الأقراص والمسحوق الأبيض بالماء، فعرفت أن كلًّا منهم سيعود في النهاية إلى بلده معافًى بفضل العقاقير الحديثة والمستشفى الذي أُقيم لهم هنا.

وجاء موعد مضي الأطفال المجذومين إلى المدرسة، وكان ناظر مدرسة باهوين يلبس سروالًا قصيرًا أبيض وسترةً بيضاء، ويسير في هدوءٍ في الممر الجبلي الضيق الذي يقود إلى حجرة الدرس، ولو أنه كان يرقب الطريق لوجد أن الأطفال يحاولون الهرب، بعضهم يجري في اتجاه، وبعضهم يجري في اتجاهٍ آخر، ولكنه لم يُبدِ أية إشارة تدل على أنه فَطِن لذلك. وكانت الأم هيلين — تلك المرأة الزنجية العجوز التي ترعاهم رعاية الأم — تتبعهم من الخلف وتلم شعثهم، وكانت تجري من جانبٍ إلى آخر تضمهم ككلب القطيع، محاوِلةً أن تجمعهم في صفٍّ واحد، وعجبت: ترى هل كانت المدرسة بهذا السوء حتى يحضروا إليها بمثل هذا التردد والإحجام؟ ... لكني لما رأيت كيف كانت المدرسة الباهوينية صبورًا معهم رحيمةً بهم، عرفت أن تردُّدهم لم يكن إلا لأنهم رغبوا عن أن يُحمَلوا على التزام حجرات الدرس، لا يغادرونها حين يكون اللعب أكثر ابتعاثًا للمرح.

وكنت قد أحضرت لهم معي لُعبًا من البالونات وهدايا، وعلَّمتهم كيف ينفخونها ويربطونها بخيطٍ يحبس الهواء فيها. وفي عصر الأحد التالي ردَّ لي الأطفال زيارتي ليُرحِّبوا بي منشدين أغانيهم، حينما كنت أتناول الشاي مع هيئة المستشفى في قاعة الطعام، وكانت المدرسة والسيدة هيلين تقودانهم وهم يرتِّلون الأناشيد باللغة الفرنسية وبلغتهم الخاصة في لحنٍ واحد، حتى شق عليَّ أن أُميِّز هذه من تلك، ثم قدَّموا لي هداياهم. كان منها وعاء مليء بالقرع والبيض والباباز، وعلبة من الصفيح مليئة بالفستق، وكانت هناك باقات كثيرة من الأزهار البرية جُمعت على طول الطريق، وأمسكت بها أيد رقيقة صغيرة وقدَّمتها إليَّ، وتحيَّرت: أي شيء يمكن أن أُهديه إليهم. إنني لن أكون عادلةً إذا أعطيت طفلًا دون الآخرين، واهتديت إلى حلٍّ لهذا المأزق بفضل عِقد كنت ألبسه، وكانت حباته كبيرةً بيضاء،

فقطعت الخيط وأعطيت كلًّا منهم حبة، وظن بعض الصغار منهم أنها أقراص وبدءوا يضعونها في أفواههم، ولكني أشرت إليهم بأن يسلكوها في خيطٍ حول أعناقهم كما كنت أفعل.

وكثيرًا ما كان يصل إلى سمعي في الليل صوت الموسيقى، التي كان يعزفها الطبيب وحده في حجرته على البيانو الذي زُيِّن بخطوطٍ من المعدن. ولقد دعاني مرتين لأن أجلس بجواره وهو يعزف، وكان يجلس معه على جانب مقعد البيانو الطويل صحفي نرويجي الأصل، كان يزور المستشفى مثلي في ذلك الوقت، على حين جلست أنا على الجانب الآخر. وخُيل إليَّ أن الطبيب سرعان ما نسي أن معه في الغرفة أحدًا، وهو ماضٍ يُردِّد ثم يُردِّد لحنًا واحدًا من ألحان باخ، حتى اهتدت أصابعه إلى ما ينشد من إحكام العزف والإيقاع. ودوَّن اللحنَ بالقلم الرصاص في صفحة العلامات الموسيقية، واستمر يعزف حتى بلغ جملةً موسيقية أخرى أراد أن يُتقنها، وبعد ساعةٍ التفت إلينا كأنما أدرك فجأةً أننا كُنا معه.

وقال: «أخشى أن أكون قد أثقلت عليكما.»

وأكَّد له كلانا أن من حسن التوفيق أننا كنا معه، قال ذلك النرويجي بالألمانية وقلته أنا بالإنجليزية التي فهمها الطبيب بالرغم من أن الكلمات لم تكن مألوفةً لديه.

ويسألني: «هل تعزفين؟»

ولقد كانوا في طفولتي يلاطفونني ويرشونني ويضربونني لأمضي نحو البيانو وأعزف القطع الصغيرة البسيطة، أما الآن فشعرت بالخجل حيال رجل بذل خير ما في وسعه من طاقة، أجل رجل لم يستسلم قط لفكرة أن ثمة شيئًا أشق من أن يجاهد المرء في سبيله.

وكان الدكتور شفيتزر يعزف آنئذٍ من أجل مُتعتنا ومتعته، حتى جاءه النذير مؤذنًا بأن الوقت قد حل؛ إذ دق الجرس داعيًا إلى التزام السكون في رحاب المستشفى؛ حتى يستطيع المرضى أن يخلدوا إلى النوم، وتناول مصباحًا لينير لنا طريقنا، ثم توقفنا لحظةً لنزور الظبي الصغير في مهده بحجرةٍ مجاورة لسكن الطبيب. ولمَّا خرجنا إلى الصُّفة المظللة انطلقت البجعة التي كانت قد ألفت أن تأوي إلى العوارض الخشبية فوق باب سكن الطبيب كل ليلة، طائرةً إلى شجرةٍ من أشجار المانجو منتظرةً حتى نمضي. وكانت ثيكلا، رابع خنزيرة برية تحمل هذا الاسم، قلقة داخل قفصها المصنوع من القش والقائم خارج الباب. وهبط الطبيب إليها وهو ممسك بالمصباح بيد، وربت باليد الأخرى عليها، وراح الطبيب — وقد تألَّقت عيناه بذلك الوميض الذي يطوف بهما سريعًا — يترنم بمقطوعة براهمز

التي يُهَدهَد بها الأطفال حتى يناموا، وشاركناه في الغناء بصوتٍ خفيض، ولم يكن من الخنزيرة ذات النظرة الشريرة إلا أن قبعت قبوعًا ينم عن الرضا، وأغلقت عينيها ثم تركناها، وانطلقت أنا والنرويجي في ذلك الليل الهادئ العذب الذي تتميَّز به مناطق خط الاستواء، وأوى كل منا إلى غرفته نحمل في قلبينا ذكريات ليلة هيهات أن تُنسى إلا بعد زمنٍ طويل.

وكان النضد في غرفة الطبيب قد تراكمت فوقه أوراق كثيرة، كنا نعرف أن الطبيب إذا خلا إلى نفسه أخذ يرد على الخطابات أو يمضي في تأليف كتاب، بل إن الأنوار إذا انطفأت جميعًا في غرفته آخر الأمر، فإن ذلك لم يكن يدل على أن عمل يومه قد انتهى؛ ذلك أن الأمر كان يقتضيه أن تظل أذنه مرهفةً لسماع وقع أية أقدام تدب في الممر، وتحمل إليه نبأً بأن هناك من يحتاج إلى إجراء جراحة سريعة، أو أن ثمة مريضًا انتكس بعد أن ظهرت عليه بوادر التحسن.

وكان الليل قد انتصف أو كاد حين شهدت جراحةً تجرى؛ ذلك أن رجلًا كان قد حُمل من قريةٍ نائية ضاربة في قلب المنطقة، ورأيت في عينيه نظرة رعب وهو يُساق على النقالة إلى غرفة الجراحة، وكانت هذه النقالة تختلف كل الاختلاف عمَّا ألفه من الأكواخ المبنية من العشب، لا يعدو أثاثها مقاعد منخفضة من خشبٍ وحُصر للنوم جُدلت من القش. وقد نم وجهه أيضًا عما كان يعانيه من ألم، وراحت قطرات العرق تتصبَّب من جبينه، وركعت بجواره ممرضة من الممرضات ومسحت جبينه متحدثةً إليه بكلامٍ رقيق يُرفِّه عنه، وكانت تتحدث بالفرنسية التي لم يكن يعيها، وتبيَّنت أن لصوتها نغمةً ارتاحت لها نفسه؛ لأنه بدا أكثر استرخاءً حين حل موعد إعطائه المخدر مما كان عليه عندما حملوه إلى المستشفى أول الأمر.

وقضيت أسبوعين في زيارتي للدكتور شفيتزر في مستشفاه، وشعرت بالتردُّد حين حل موعد رحيلي؛ إذ بدأت أُحس أنني جزءٌ من هؤلاء القوم، وأنني أُشاركهم في أعمالهم، وحينما كنت أجلس على المائدة الطويلة مع الطبيب ومساعديه أتناول معهم العشاء الأخير، شعرت بحنينٍ نحو المكان في اللحظة التي فكَّرت في الرحيل عنه، ونظرت إلى الوجوه من حولي وقد انعكس عليها ضوء خافت من المصابيح التي تُضاء بالزيت، وتأثَّرت أبلغ التأثُّر حين فكَّرت في أنهم جميعًا جاءوا إلى هنا، كما جاء الطبيب، رحمةً بهؤلاء الذين تنكَّر لهم الحظ. وكان البعض منهم قد جاء منذ سنين كثيرة، والبعض الآخر جاء منذ وقتٍ قريب، وربما يعود سريعًا إلى أوطانه لينتهج في الحياة نهجًا آخر، ولكن الدافع إلى مساعدة المحتاجين إليهم كان يعيش في أعماقهم جميعًا وكان سببًا في وجودهم هنا.

وكان الطعام بسيطًا وهو غذاء يُستنبت في هذا المكان، باستثناء قليل من الأطعمة مثل الجبن الذي يوضع في شرائح الفطير المصنوعة بالبيض أو السكر يُحلَّى به خشاف الفواكه. ومضى الطبيب إلى البيانو، بعد أن فرغنا من الطعام، وعزف لنا الألحان المصاحبة للأناشيد التي أنشدناها، ثم عاد إلى مكانه وقرأ فقرةً من الإنجيل، وعرفت من بعض كلماتٍ متفرقة استطعت أن أتبيَّنها أن هذه الفقرة من كلمات بولس الرسول: «أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة، ولكن أعظمهن المحبة.»

وخطوت في الصباح التالي إلى القارب الصغير ذي المجاديف، وبدأنا نهبط النهر مُيمِّمين شطر المرسى، واستدرت لأُلقي على المكان نظرةً أخيرة، فرأيت الطبيب ومعه عدد من أعوانه لا يزالون واقفين على الشاطئ يُلوِّحون لي حتى أغيب عن الأنظار، وتمنَّيت من كل قلبي لو أنني أستطيع أن أعود في يومٍ ما وأراهم جميعًا مرةً أخرى.

وتوقَّفت قبل عودتي إلى أمريكا عند قرية جونسباخ الصغيرة الهادئة، حيث نزلت ضيفةً بضعة أيام في بيت الدكتور شفيتزر، وألفيت البساطة نفسها هنا التي ألفيتها في مستقره في أفريقيا. وكانت الحجرات منظمةً والأثاث مريحًا، وإن خلا من أسباب الرفاهية والثراء. وكان في كل جزءٍ من أجزاء البيت أشياء تُذكِّرنا بأفريقيا ماثلة في صور شمسية أو رسومات أو آثار من آثار النحت الأفريقية على نحو ما كان هناك في غرفة الطبيب بمستشفاه من رسوماتٍ وصور شمسية لبيته في الألزاس، وتبيَّنت أن قلبه كان مُوزَّعًا بين مكانين يود دائمًا أن يسميهما وطنه.

وعُدت بعد عامين إلى الألزاس وإلى أفريقيا لأكتب هذا الكتاب عن رجلٍ عظيم وعن العمل الذي حقَّقه. ولم تكن جونسباخ القريةَ الصغيرة الهادئة التي رأيتها من قبل؛ ذلك أن الدكتور شفيتزر كان قد عاد من لامبارينيه إليها في إحدى زياراته. وكانت تنتظر خارج الباب السيارات والدراجات البخارية وعربات الأجرة وأفواج الناس تدخل وتخرج بلا انقطاع؛ لأن الطبيب لم يكن يعتذر عن لقاء أحد.

ورأيت الطبيب في يوم عيد ميلادي، واستأذنته في أن أكتب عنه هذا الكتاب ليقرأه الشباب في بلادي، ولم يعرف الطبيب أن موافقته كانت أعز هدية لي في عيد ميلادي، وبدأت الكتابة في كولمر، وكنت أعود من حينٍ إلى حين إلى جونسباخ، وكنت إذ أسير في الطريق إلى مونستر الذي سار الطبيب فيه وهو صبي، أو أشهد الأطفال بخدودهم المتورِّدة يلعبون في أفنية المدرسة أو في ساحة القرية الألعاب نفسها التي كانوا يلعبونها منذ وقتٍ طويل، كنت أتخيَّل في بعض الأوقات أنني أنا أيضًا كنت طفلةً ترعرعت في الألزاس، وأنني تسلَّقت

تلك التلال في يوم صيف ثم سايرت الساحل هابطةً منها على زحافةٍ قصيرة حينما كست الأرضَ الثلوج. وتراءى لي أنني قضيت ساعات طويلةً في حجرةٍ ازدحمت بأثاثٍ ثقيل قاتم اللون، أستذكر دروسي أو أعزف على البيانو.

وبعد أن فرغت من كتابة ذلك الجزء من الكتاب الذي يحكي طفولة الدكتور شفيتزر وشبابه، عدت إلى المستشفى القائم في لامبارينيه لأكتب عن أعماله في أفريقيا، واستقبلتني الآنسة فارينا في القارب ذي المجاذيف، وكان معها المجدفون المجذومون، ولم يكونوا — باستثناء اثنين منهم — هم أولئك الذين صعَّدوا بي في النهر منذ سنتين؛ ذلك أنهم كانوا قد برئوا كل البرء من مرضهم وعادوا إلى قراهم ليستأنفوا حياتهم الأولى. وكان أولئك الذين اتخذوا أمكنتهم في القارب قد قطعوا شوطًا بعيدًا في سبيل الشفاء أيضًا.

وأحسست كأنني أعود إلى وطني مرةً أخرى لأجد نفسي في حجرة الضيوف الصغيرة التي كانت قد خُصِّصت لي. وكنت أستطيع أن أرى من خلال الستار الحاجز نهر أوجو الجميل، وأطفال الزنوج أنصاف العرايا وهم يلعبون ضاحكين في ظل شجرة المانجو النامية بجوار البيت، وانطلق أحدهم يغني، وراح الآخرون يردِّدون وراءه منشدين في إيقاعٍ رتيب: آي بوي لانا، آي بوي لانا، وحاولت فريتزي البغامة المستأنسة، التي أثكلتها أمَّها بندقيةُ صياد وحُملت إلى المستشفى لتشب فيه، أن تردِّد ما ينشدون، وانبعث الأطفال يصرخون متظاهرين بالخوف ويصخبون ضاحكين في وقتٍ معًا.

ووجدت نفسي أُقارن هذا المنظر بالألزاس التي قدمت منها وشيكًا أكثر من مقارنته بالبيئة المألوفة في بلدي، وتخيَّلت السماء الصافية، وبساتين الكروم بهوائها النقي العليل، وبيوت الفلاحين النظيفة، والحدائق التي تنمو فيها الخضراوات والأزهار جنبًا إلى جنب، ولقد نشبت حربان على هذه الأرض في أيام حياتي، وحربٌ أخرى أشد ضراوةً وقعت في الجيل السابق.

وبدا لي أنه ممَّا تطيب له نفسي أن يخرج من هذا المكان، الذي كان ميدانًا لحروبٍ كثيرة جدًّا نشبت على غير إرادة من أهله، رجلٌ استطاع بفضل رحمته وتوقيره للحياة أن يُمِدنا بإيمانٍ جديد وهدف نسعى إلى بلوغه.

الفصل الأول

«ما من أحدٍ منا يعرف ما تُحدثه حياته من أثر، ولا ما يبذله للآخرين؛ فإن ذلك محجوب عن أعيننا ولا مناصَ من أن يبقى كذلك، وإن كان يُتاح لنا في كثيرٍ من الأحيان أن نرى جانبًا صغيرًا منه؛ حتى لا تفارقنا شجاعتنا.»

من كتابه: «ذكريات الطفولة والشباب»

إن أهل الألزاس يَعُدون بلدهم بقعةً هادئة مشرقة، بالرغم من الحروب التي شبَّت من أجل امتلاكه منذ ألفين من السنين حين أقبل يوليوس قيصر صاعدًا من الجنوب، يقود كتائبه المدرَّبة خير تدريب، ودخل في معركةٍ ضد الألمان غازيًا البلاد من الشمال، ثم جاء أحفاد شارلمان وشنوا الحرب بعضهم على بعض من أجل هذه الأرض نفسها. وكانت الجيوش في كل هذه السنين تغزوها بين الفينة والفينة من هذا الاتجاه وذاك، مقبلةً من السويد وإسبانيا وإيطاليا وهنغاريا وألمانيا، ومن فرنسا نفسها، كلٌّ منها تطالب بحقها في امتلاك المكان وأهله، وتحارب أولًا بالرماح والأقواس والسهام، ثم بالبنادق والمدافع والقنابل.

وفي صيف سنة ١٨٧٠م عاد ذلك الصوت المألوف، صوت وقع أقدام الجنود تسير موغلةً في الألزاس، ومضت البنادق تُصفر والمدافع تدوِّي، حتى رُفع آخر الأمر على التسليم الأبيض، على قمة الكنيسة الكتدرائية في ستراسبورغ. وكان البروسيون هم الغزاة هذه المرة، وانتُزعت الألزاس من فرنسا، وأصبحت جزءًا من الإمبراطورية الألمانية.

وأهل الألزاس شعبٌ عنيد له عزة وكرامة، يُخلِص لأرضه إخلاصًا يضطرم في جوانحه اضطرامًا بصرف النظر عن البلاد التي تدَّعي ملكيته. ولَمَّا انتهت الحرب نهض الألزاسيون وبدءوا في إزالة الأنقاض والخرائب، فأصلحوا ما تهدَّم من منازلهم وحرثوا حقولهم، وغرسوا كرومهم مرةً أخرى في صفوفٍ مستوية منظَّمة؛ فقد كانت أرضهم عظيمة الخصب

وافرة الغَلة، ومن ثم لم يكن ما يدعو إلى العجب الكثير حين نرى غيرهم من الأمم ترغب في أرضهم وتتقاتل فوق أديمها في كثيرٍ جدًّا من الأحيان، حتى لقد قيل فيها: إنها أهراء القمح وسلة الخبز وقبو النبيذ للعالم. وأَلِف الناس أن يقولوا: «ما من شيءٍ تجده في غيرها إلا وتجد ثلاثة أضعافه في الألزاس.»

وكانوا يُنشدون أغنيةً بعُد بها الزمن إلى حد أنه لم يكن يعرف أصلَها أحد:

ثلاث قلاع على جبلٍ واحد
وثلاث كنائس لمقبرةٍ واحدة
وثلاث مدن في وادٍ واحد
وثلاثة مواقد لغرفة واحدة،
تلك هي أرضنا الألزاس!

ويعاود البلدَ ثانيةً جوٌّ من الطمأنينة والسكينة، ويواصل الناس حياتهم الخاصة كشأنهم بعد كل حرب، فيلتقون عند مساقي القرية وفي المقاهي وفي الكنائس، ويتكلمون باللغة التي درجوا على أن يتكلموا بها دائمًا، وهي لهجةٌ عذبة لطيفة من اللغة الألمانية يخالِطها كثيرٌ من الكلمات الفرنسية تزيدها ثراءً؛ ذلك أنهم يُجيدون اللغتين جميعًا.

ومرَّت خمس سنوات واستطاع القوم مرةً أخرى أن يُسموا بلدهم بقعةً هادئة مشرقة، وكان عام ١٨٧٥م عام سلام يبشِّر بالخير، وقال صانعو النبيذ: «هذا هو عام طَيبٌ للكروم.»

وكانت الأعناب جيدة النمو سليمة؛ فالحقول كساها بالخضرة القمح النامي يتمايل ويتماوج مع الريح كأمواه نهر فيخت، وهي تنساب في وادي مونستر. ولم تعد الحرب آنئذٍ إلا ذكرى من الذكريات لا تعيش إلا في القصص تُروى بجوار النار في ليلة شتاء، أو في ضوء السَّحَر الذي يطول في ليالي الصيف.

وكان الكثير من الناس يذكرون القس الشاب ألبرت شيلينجر الإستراسبورغي، ويطيب لهم أن يتحدثوا عن ذهابه إلى باريس ليجلب الدواء للقوم الذين ضُرب حولهم الحصار، لكن الألمان الذين كانوا يحاصرون المدينة قبضوا عليه في عودته وألقَوا به في الأسر. على أنهم سمحوا بمرور الدواء الذي كان يحمله، فكان سببًا في إنقاذ أرواح كثيرة من الموت، وقد شُغفت امرأة عجوز بالقول: «ما كنت لأعيش حتى اليوم إلا بفضله؛ ذلك أنه حين فُك الحصار وأصبح اللبن شحيحًا، كان القس ألبرت شيلينجر هو الذي يوافيني كلَّ يوم بنصيبه من اللبن.»

وكانت أديل أخت ألبرت شيلينجر تُنصت فخورًا إلى هذه القصص، وكانت قد تزوَّجت لويس شفيتزر وهو قس أيضًا، وحينما وضعت طفلهما أسمته ألبرت تيمنًا بأخيها الحبيب الذي مات قبل ذلك بثلاثة أعوام.

وكان الطفل نحيلًا ضعيفًا، وكثيرًا ما كانت أديل شفيتزر لا تجد مناصًا من أن تتساءل في حيرة، وهي تحمله بين ذراعيها وتغنِّي له أغنيةً عذبة ممَّا يُهدهَد به الأطفال، عما يمكن أن يكون قد بقي في عمره بعدُ من أيامٍ يعيش فيها معها. ومن خلال نافذتها في البيت الصغير ذي البرج القائم في قيصربورغ عند الطرف الأعلى من شارع القرية، كانت تستطيع أن تسمع صيحات الأطفال وضحكاتهم وهم يلعبون، فتضم ابنها إليها أكثر وأكثر، مرتِّلةً بينها وبين نفسها صلاة، داعيةً له أن يشب قوي الجسم مورَّد الخد مثلهم، وأن يضحك ويلعب كما يضحكون ويلعبون الآن.

وفي أوائل صيف سنة ١٨٧٥م حين بلغ ألبرت الشهر السادس من عمره رسم أبوه قسًّا للكنيسة في جونسباخ، وهي قرية صغيرة بجوار نهر فيخت في وادي مونستر بالألزاس.

وأقبل الناس من كل القرى المجاورة ليُرحِّبوا بالقس الجديد وأسرته القليلة العدد، وخلع رجال القرية قباقيبهم الخشبية ولبسوا الأحذية الجلدية، وارتدَوا حلل يوم الأحد والقبعات السوداء ذوات الحافة العريضة. أما النساء فقد ارتدين الأوشحة القاتمة تزدهي بأشكالٍ مزهرة طُرزت في القماش، وربطن أجمل مآزرهن حول قمصانهن الطويلة الشاملة.

ووقفت أديل شفيتزر بجانب زوجها في ردهة البيت لتستقبل الأبراشيين الجدد وقسس القرى الدانية الذين جاءوا في صحبة زوجاتهم، وكانت تحمل بين ذراعيها طفلها ألبرت وقد ارتدى في هذه المناسبة رداءً أبيض اللون ازدانت أطرافه بالمخرمات والثنيات وأربطة من الشريط الملوَّن. ووقفت الابنة لويز ملتصقةً بثوب أمها وقد ارتدت هي أيضًا ثوبًا جميلًا جديدًا.

وأقبلت زوجات القسس المجاورين واحدةً بعد الأخرى يُحيين النزلاء الجدد، وربتن على رأس الطفلة الصغيرة التي لم تكد تتجاوز طَور الطفولة بعد، ثم نظروا إلى الطفل بين ذراعَي أمه متأهِّبين لأن يمتدحوه ببعض كلمات لطيفة، يُنوِّهون فيها بحُسنه وما ينعَم به من صحة وما تميَّز به بين الصبيان من جمال، ولكنهم حين رأوا شدة شحوبه ونحوله حتى بدا أنه يتنفَّس في مشقةٍ وعسر، أمسكوا عن الكلام متحرِّجين وراحوا يتلمَّسون عبارات مهذبة يستطيعون أن ينطقوا بها.

وتحمَّلت الأم الشابة ذلك ما وسعها، ثم مضت فجأةً مسرعة إلى حجرة نومها وقد ضمَّت الطفل إلى صدرها أكثر وأكثر، وانبعثت تبكي بينها وبين نفسها في صوتٍ خافت.

وربما كان هواء جونسباخ الجيد أو اللبن الطازج النقي المحلوب من بقرة جارهم ليوبولد، هو السبب في أن الطفل أخذ يشتد عوده وتعتدل صحته منذ ذلك الحين، على أن ثمة سببًا آخر لذلك أيضًا هو دعوات الأم وعزمها القوي؛ فقد تعلَّم الطفل أن يحبو ثم يمشي ثم يجري دابًّا على أديم الأرض في البيت العتيق، ربلًا متورد الخدين كأي طفل من الألزاس.

وكان هذا البيت عالَمه ودنياه وهو بعدُ بلباسه القصير، لم يبلغ من السن ما يُتيح له أن يُجاوز سياج البيت. وكان عمر البيت قرنًا ونيفًا، كما كان الفناء الذي يلوح ضَيِّقَ الرُّقعة في عين الكبار، فسيح الجنبات في عين ألبرت الصغير. وكان يتراءى له هناك دائمًا شيءٌ عجيب يُغريه بارتياده، كالثلج يفرش الأرض في الشتاء، أو الورود الحُمر تتدلى بغزارة في وقدة يوم من أيام الصيف، أو دقات رتيبة وَسْنانة تنبعث من ساعةٍ عتيقة، أو موكب من النمل يزحف في الممر في صفوفٍ متراصة. وكان أينما التفت وجد ما يسترعي نظر طفل صغير. وجلس ألبرت على مقعدٍ منخفض في الفناء يتطلَّع إلى أبيه وهو يجني العسل من الخلايا الخشبية، حتى إذا ما وقعت يده على إحدى هذه المخلوقات المجنَّحة اللطيفة وزحفت عليها، انطلق يضحك في مرحٍ وسرور، ولكن ضحكته لم تلبث أن انقلبت صرخةً من الألم، استدعت كل الأسرة إلى الالتفاف حوله.

وصعِدوا به إلى البيت يُلاطِفونه ويُهدِّئون ثائرته، وقبَّلوا يده التي لدغتها النحلة ليُذهبوا ما أصابها من الألم. وكان من اللطيف أن يتلقى كل هذا الحب والاهتمام. وكانت الدموع قد بدأت تسيل من أثر اللدغة، ومن خيبة أمله في المخلوقة الصغيرة التي أُعجِب بها كثيرًا فتنكَّرت له! لكنها راحت تسيل الآن لأنه كان يود لهذا الاهتمام أن يستمر، إلا أنه شعر في قلبه الصغير الحساس بتأنيب الضمير، وهو يبكي بلا دموع بعد أن جفَّت الدموع من عينيه، وقد علم حق العلم أنه كان يسيء السلوك عن عمد.

وبينما كانت الشهور تمر راح عالم الصبي يتسع حتى شَمِل القرية جميعها: بيوتها وأهلها وبساتينها الصغيرة، ومزارع الكروم وحقول الخضراوات في مشارف القرية التي يمتلكها القرويون ويتعهدونها. وكانت الكنيسة التي يقوم فيها أبوه بوعظ الناس هي مركز عالمه الخاص ببرجها الذي يُطل شامخًا من علٍ حتى ليتبدَّى للعيون يُشرف على الأسطح جميعًا. وكانت الجبال نفسها على مرمى البصر تبدو حياله كالأقزام.

وكانت أجراس الكنيسة تدق مبكرةً صباح أيام الأحد، مُطلقةً أول نداء تدعو به الكاثوليك إلى الصلاة، ثم يدق القندلفت جيجل الأجراس مرةً أخرى بعد أن تنتهي الصلاة، فيُقبل البروتستانت ليتعبَّدوا على مذهبهم هنا في الكنيسة نفسها.

وكان ألبرت منذ بلوغه الثالثة من عمره يؤخَذ إلى الكنيسة ويُسمَح له بأن يجلس في القاعة مع الكبار، وكان ذلك شيئًا يتطلَّع إليه طوال الأسبوع، فيرتدي ملابس يوم الأحد ويلبس حذاءه الجلدي. وكانت الفتاة الخادم تغسل بدنه وتمشِّط شعره في حبٍّ وحنان تارة، وتُعنِّفه في رحمةٍ على مألوف أهل الألزاس تارةً أخرى.

وكانت تصيح وهي تُسوِّي بالفرشاة في شدة شعره المتماوج الناعم في قمة رأسه، محاوِلةً أن تجعله يستقر في موضعه:

«يا لشعرك! جامحٌ في باطنه، وجامحٌ في ظاهره. إن اتجاه شعرك في نموه ليُفصح عن مبلغ ما تنطوي عليه نفسك من جموح.»

وتساءل: أحقٌّ ذلك القول، أو حق أن نفسه تنطوي على الجموح كشعر رأسه الذي لا يستقر في مكانه مهما سُوِّي بالفرشاة طويلًا أو في شدة، ومهما دلكته الفتاة الخادم بالدهان؟ ذلك أنه كان بلا ريب لا يلبث بعد خمس دقائق، أن يتطاير ويتهدَّل دائمًا في جميع الاتجاهات، بل إنه قبل أن يتسع له الوقت لِيَصل إلى الكنيسة يكون شَعره قد بلغ من الشعَث مبلغًا لا يبقى معه شيء مما بذلت العناية في تسويته.

وخلع ألبرت وشاحه (حرملته) حين دخل، وأخذ مكانه من المقعد بين أمه والفتاة الخادم، وشعَر الطفل بشيءٍ من الوقار والولاء الذي كان يشعر به الناس هناك وقد ارتدَوا حُلَلهم السوداء القاتمة التي أَلِف أهل هذه المنطقة أن يرتدوها، وأصبح هذا الشعور جزءًا من نفسه قبل أن يستطيع أن يُدرك معنى الصلوات بفترةٍ طويلة.

وبدا للطفل أنه ليس في العالم ما هو أجمل من هيكل الكاثوليك الذي يواجهه بمذبحه المطلي طلاءً يجعله يبدو كالذهب، وقد وُضعت عليه زهريات مليئة بالأزهار الصناعية تبدو صيفًا وشتاءً يانعة نضرة كالأزهار النامية في الحديقة. وكان هناك شمعدانات من المعدن تحمل شموعًا طويلة، تبدو رائعةً فخمة بالرغم من أنها قد أذبلت لتتمشى مع صلوات البروتستانت البسيطة. وظهر تمثالا يوسف والعذراء مريم الكبيران المُذهبان القائمان على الحائط فوق المذبح وقد انعكس عليهما ضوء النافذتين الهادئ، وكأنهما ينظران إلى أسفل ويباركان حشود المصلين. ووراء ذلك كان المرء يستطيع أن يرى خلال النوافذ هياكل الشجر وأسطح المنازل التي نالت منها القرون مكتسيةً باللون الأحمر في ظلاله الكثيرة كأنها معطف يوسف المتعدِّد الألوان، وكانت العين تستطيع فيما وراء ذلك أن تُحلِّق إلى السُّحب البيض وهي تسبح متباطئةً في زرقة السماء التي تمتد بعيدًا إلى ما لانهاية.

وكان الصبي الصغير يشترك في التراتيل وهي تُرتَّل، منشدًا بصوتٍ عالٍ ما يعرف من الكلمات، حتى إذا ما رفع صوته بالغناء أكثر مما يجب علم بلا ريب أن يد الفتاة الخادم

التي ترتدي القفاز ستغلق فمه، وكان هذا الشيء نفسه يحدث بلا شك لو فرض أنه تثاءب تثاؤبًا ضئيلًا. ولكنه جلس في هدوءٍ عندما رأى أباه ينهض ليأخذ مكانه على المنبر، حتى إن الفتاة الخادم استطاعت أن تُشبِّك يديها هادئةً في حِجرها بقفازها القطني طوال الموعظة.

وبدا الله لألبرت قريبًا حقًّا حين كان أبوه يعظ الناس بالطريقة الهادئة البسيطة نفسها التي يتحدث بها الرجل في بيته، وكان من الممكن أيضًا أن يبدو الشيطان حقيقيًّا في نظر طفل رصين. وكان يظهر أثناء الصلاة من حينٍ إلى حين وجه غامض أشعث كالوجه الذي يجب أن يبدو به الشيطان نفسه، وكان ينظر إلى أسفل من إطارٍ لامع بجوار الأرغن في كل وقتٍ كان يقف فيه الناس ليُنشدوا التراتيل، ولكنه كان يختفي حين يصلي القس ويلقي الموعظة. وفكَّر الصبي الصغير حينئذٍ فيمن يستطيع أن يفعل مثل هذا العمل إلا الشيطان نفسه. وأظهر كلُّ ذلك ما كان عليه الشيطان من حين؛ لأنه كان يختفي حين تُذكر كلمة الله.

واستطاع ألبرت بعد أن كبر أكثر وأكثر أن يفطن إلى أن هذا الوجه هو وجه الأب إلتيس عازف الأرغن ينظر في مرآة ليرى أحلَّ وقت البدء في عزف الألحان المصاحبة للتراتيل المألوفة أو الكف عنه.

وبدا لألبرت أيضًا أن أشخاص التوراة أصدقاء مُقرَّبون حميمون. وكان إبراهيم وموسى وسيمون بيتر وبولس الرسول يعيشون في أفكاره أحياءً، مثل زملائه في اللعب جورج وهنري وفريتز. وكان يجلس في وقارٍ يُنصت إلى أبيه وهو يحكي عنهم، فتطوف برأسه أفكارٌ غريبة بالنسبة لطفل. وثمة أشياء كثيرة كان يتحيَّر في أمرها، وحينئذٍ كان يجد دائمًا طريقةً ليسأل عن السبب، وكان يفكِّر في الرجال الحكماء الثلاثة المقبلين من الشرق، جالبين معهم الذهب والمر واللبان للطفل يسوع في مهده المصنوع من القش. تُرى كيف كان يمكن أن يعود يوسف ومريم إلى الفقر مرةً وفي جعبتهما مثل هذه الهدايا الثمينة؟ ترى ماذا حدث للحكماء بعد ذلك، هل عادوا مرةً واحدة من بعد؟ وإذا كانوا قد عادوا، فلمَ لم يُذكَر عنهم شيء بعد ذلك؟ وكان هناك المؤمنون الذين سمعوا الملائكة تغنِّي في تلك الليلة: «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة.» ترى لماذا لم يبقَوا ليتبعوا يسوع ويصبحوا في زمرة الحواريين الاثني عشر الذين وقع عليهم الاختيار في السنوات التالية؟

وكان في توراة الأسرة صورة لموسى وعلى رأسه قرون، مما جعل الصبي يتحيَّر في أمرها، ووضع ألبرت يده على جبينه، وخُيل إليه أنه يستطيع أن يُحس نتوءين؛ حيث يمكن

أن تنمو منهما القرون في أي يوم. ألَا ما أبشع أن يحدث هذا لإنسان! وإنه لشيءٍ يقلق منه في السر أي امرئ أيامًا كثيرة، وكان ألبرت في كل مرة يضع يده على جبينه آملًا أن يكون قد أخطأ، فيشعر بعذابٍ جديد حين يجد النتوءين لا يزالان في موضعهما، وكان العجوز جيجل بلا شك قد لاحظ شيئًا أيضًا لأنه بدأ يغيظه بهذا الأمر.

وكان القندلفت يحضر إلى البيت في صباح كل يوم من أيام الأحد بعد أن تدق الأجراس معلنةً عن صلاة البروتستانت، ليسأل عن عدد التراتيل التي ستُنشَد، ويأخذ الأشياء اللازمة للتعميد إذا كان هناك شيء منها. وكان يمسح حذاءه في وقارٍ ثم يدق الجرس في وقارٍ أيضًا، وألبرت قابعٌ هناك دائمًا بجوار الباب حين يُفتح يراوده شوق اليائس إلى أن يجري بعيدًا، ويختبئ، على أنه كان يلزم مكانه عاجزًا عن الحركة على الرغم منه، يُحملق على النحو الذي يحملق به الطائر في الثعبان. وكان الشيء نفسه يحدث كل يوم، ويضع الرجل العجوز يده على جبين الصبي، بما عُرف عن أهل الألزاس من فطنة، دون أن يبتسم أو يتغيَّر تعبير وجهه، ثم يقول في وقار: «أي نعم، إن القرون لتنمو على خير وجه.»

واستمرَّ ذلك حتى ذهب ألبرت إلى أبيه في يوم وقد فتح التوراة عند الصفحات التي تتكشَّف عن صورة موسى.

وسأله: «أمن الممكن أن يكون للناس الآخرين قرون أيضًا؟»

وكان في إجابة أبيه راحة لعقله؛ إذ أكَّد له أن موسى وحده هو الذي صُوِّر على هذا النحو، وأن القرون لن تنمو على جبين الناس. وهناك لم يأخذ ألبرت معاكسة القندلفت مأخذ الجد أبدًا، بل على العكس من ذلك أصبح يضحك منها حتى لم يجد الرجلُ العجوز بدًّا من أن يكدَّ ذهنه التماسًا لشيءٍ آخر يغيظ به الصبي الصغير.

ولم يكن أشخاص التوراة فحسب وثيقي الصلة بألبرت صلة جيرانه في كونسباخ به، بل إن الأمكنة المذكورة فيها أيضًا كانت مألوفةً لديه كأية قرية من قرى الألزاس.

وكان في الإمكان رؤية جبل هوهنك من القرية يشرف من علٍ فوق الجبال كلها التي تحف بوادي مونستر. ولا شك أن قمة جبل آرارات كانت شبيهةً تمامًا بمكانٍ كهذا، حيث أرسى نوح فُكله هناك وأنزل فيها الحيوانات، وكان قوس قزح الذي انتشر في السماء أمام نوح بشيرًا خليقًا بأن يكون واضحًا مشرقًا كأقواس قزح التي تعلو جبل هوهنك، وكذلك قطرات المطر المتألقة فوق الأغصان التي رآها، والطين الذي وجد في طريقه؛ كل ذلك كان يشبه القطرات والطين تتلبَّث في جونسباخ بعد كل مطر.

وحلَّ صيف مطير لزم فيه ألبرت البيت أيامًا متصلة اتقاء المطر المستمر، وأخذ يفكِّر في الطوفان الذي وقع في عهد نوح، وكان قد سمع أباه يقرأ القصة مرارًا وتكرارًا جهرة، حتى إنها عادت إلى ذاكرته وكأنها كلمات أغنية.

وظل الطوفان أربعين يومًا يغشى الأرض،
والمياه تتزايد حتى أوشكت أن تبلغ الفُلك،
ورفعته إلى ما فوق أديم الأرض،
وعمَّت المياهُ الأرض وأخذت تزيد باطراد
حتى أغرقت التلال العالية
تُظلها السماء جميعًا،
وارتفعت المياه خمس عشرة ذراعًا
وغمرت الجبال.

وما من ريبٍ في أن المطر ظل أربعين يومًا وأربعين ليلةً في جونسباخ، ولكن المياه لم ترتفع حتى تبلغ المنازل، فما بالك إذا غطَّت التلال العالية جميعًا أو الجبال التي كانت تُظلها السماء كلها!

وهنالك تساءل مرةً أخرى: «ولم؟» وأجاب أبوه سؤال الطفل الحائر: «وهكذا ترى أن السماء في ذلك الوقت والعالم في بدايته لم تكن تُمطر قطرات كما يحدث اليوم سواءً بسواء، ولكنها كانت أشبه بمياهٍ تسيل من الدلاء.»

وأخذ ألبرت كلمات أبيه مأخذ الجد، فلمَّا سمع من بعدُ قصة نوح وفُلكه أراد أن تُروى له القصة كاملة، بل أن تشمل كيف كان المطر ينهمر من السموات كالمياه تسيل من الدلاء.

فلمَّا أخذ الصبي يشب ويترعرع كان العالم الذي عرفه يكبر معه. واستطاع أن يسمِّي التلال التي ترتفع على جانبي الوادي، وقمة هوهنك السامقة وسلاسل جبال شلوخت التي بدت له عن بُعد وكأنها تقترب أو تبتعد بحسب كل تغيُّر يصيب الضوء، وعلم أن نهر فيخت الذي يتألَّق ويشدو شاقًّا طريقه في الوادي، يرتد منبعه إلى ذُرى الجبل الذي تكسوه الغابات، وأنه يفيض ليصب مياهه في نهر إيل، ثم يمضي حتى يصب في نهر الراين نفسه.

وعلم أن وراء فرنسا وألمانيا محيطًا واسعًا، وأن وراء القناة مكانًا اسمه إنجلترة، وفي شمالها تقوم اسكتلندة. وكانت أمه — وهي تقرأ روايات سير والترسكوت — تحلم أحيانًا وتتحدَّث عن الذهاب إلى هناك مع الأسرة في زيارةٍ حتى يمكن أن يروا البلاد عينها بأنفسهم؛ ذلك أنه كانت تقوم بعيدًا وراء المحيطات بلاد أخرى هي أمريكا، والصين وأستراليا.

وكانت طيور اللقلق تأتي كل ربيع إلى جونسباخ، وترى وهي تقيم أعشاشها على قمم المداخن وقد ازدهت بريشها الأسود والأبيض، أو تدب على أرجلها الطويلة الحمر بسَمتها الهادئ الوقور حين تبحث عن الضفادع بجوار ضفاف النهر، ثم تطير بعيدًا منطلقةً إلى أفريقيا القاصية في الأيام الأولى الباردة من أواخر الصيف.

وكانت طيور الوقواق الصغيرة الصاخبة تقضي فصول الشتاء في أفريقيا أيضًا باحثةً عن أعشاش عصفور الشوك لتسرقه وتضع فيه بيضها.

وسمع ألبرت أشياءَ أكثر عن تلك الأرض التي لا يعرف عنها إلا القليل من كتابٍ كان يقرؤه أبوه جهرةً أثناء الصلاة في الكنيسة عصر يوم الأحد. وجلس في القاعة ساكنًا يُنصت حين راح أبوه يقرأ الكلمات بهدوء ورقَّة على نحو ما أَلِف أن يتحدَّث في بيتهم. وكان الكتاب يقص ذكريات مبعوث ديني اسمه «كازاليس»، كان قد ذهب إلى أفريقيا وكتب عن الأدغال المظلمة الحافلة بالأسرار التي لم تطأها قدم إنسان أبيض من قبل. وكانت القصص التي يرويها خليقةً بأن تُؤثِّر في أي صبي، قصص الفيلة والنسانيس والفهود الرابضة في الأشجار متأهبةً للقفز على من يمر تحتها، بل قصص الناس المقيمين هناك وحاجتهم إلى العطف والرحمة، وكان ذلك أبلغ في النفوس أثرًا.

وقال القس لويس شفيتزر مترجمًا الكلمات من الفرنسية لحشد المصلين: «إنك ترى ما نحن فيه من شقاء، وأنت تستطيع أن تمد لنا يد العون، وقد وعدت أن تفعل، فابقَ هنا ولقنَّا من علمك، وإنا لنُعاهدك بأن نفعل كل ما تود؛ فإن أحزاننا تُشبه النهر المصطخب. اصبر، ولينحسرن الطوفان ولتبقين معنا!»

الفصل الثاني

«إن المسافر بالطائرة يرى على البعد سلسلة الجبال النائية، ثم تغيب عن بصره مرةً أخرى، ويلتف طريقه في بطءٍ مصعدًا خلال الوديان وهو يقترب أكثر وأكثر من قمم الجبال حتى يراها في النهاية منتصبةً أمامه في ثنيةٍ من ثنايا الطريق، لا بأشكالها التي بدت عليها من الطائرة البعيدة، ولكن بشكلها الحقيقي.»

من كتابه: «البحث عن يسوع في ضوء التاريخ»

كانت أول لمحة ألقاها ألبرت شفيتزر على العالم الخارجي حين أخذوه معهم في زيارةٍ لأمه العماد بارث، وكانت بارث تعيش في كولمر التي تبعد مسافة نصف يوم بالقطار والعربة. وكولمر بلد صغيرٌ جدًّا بالنسبة للمدن ولكنه كان مكانًا مثيرًا يُبهر صبيًّا لم يعرف إلا قرية جونسباخ الصغيرة الهادئة. ولم تستطع عيناه أن تستوعبا المناظر الجديدة القريبة جميعًا؛ فقد كان هناك حشدٌ من الناس يروحون ويجيئون في الطرق الفرعية الضيقة، أكثر مما رآه في أية مرةٍ من قبل، والشوارع مكتظة بعربات النقل والمركبات والرجال الذين يمتطون صهوات الجياد. وفي أيام السوق كانت الحركة شديدةً كما يحدث في سوق جونسباخ، وقد نُصبت الخيم والحظائر في الميدان المجاور للكنيسة الكتدرائية وفي الطرق الفرعية المحيطة بها. وكانت أطوالٌ من القماش الملوَّن والملاءات ومفارش الموائد معروضةً للبيع في كل مكانٍ يذهب إليه، تُرفرف مع النسيم كالأعلام الزاهية. وكانت في ميدان سوق الفاكهة سلات الكرز والزبيب أو التفاح الناضج الأحمر والكمثرى الذهبية اللون.

وكانت بعض الحوانيت في كولمر ومنازلها ترتدُّ في الزمن حتى إلى ما قبل كشف كولومبس للعالم الجديد وراء المحيط الأطلسي. وظهرت حزم الشجر الضخمة التي ذبلت

واسودَّ لونها بفعل السنين من خلال طلاء الأسقف الهرمية المُرهَفة الحد على هيئة أشكال غير مستوية جعلت المنازل تبدو وكأنها تتكئ بعضها على بعض. ونما الطحلب بمرور السنين على أسطح القرميد العالية الشديدة الانحدار. وكانت المنازل في المساء — حين تهدأ الشوارع قليلًا — تُضيء بوهج الشمس الغاربة، وقد امتزجت الألوان على الجدران العتيقة والأسطح والمصاريع ذات الطلاء الأخضر وأزهار الجرونية الزاهية الحمراء النامية في الأواني على شفاه النوافذ. وكان هذا الحين الذي تُجلجل فيه أجراسُ كنيسة القديس مارتن بأنغامها الكثيرة يختلط عاليها بخافِتها وتتردَّد في أرجاء الشوارع، هو الوقت الذي تبدو فيه المدينة وكأنها ارتدَّت إلى ماضٍ سحيق جرَّ عليه النسيانُ أذياله. وكان السير في تلك الشوارع الحصباء الملتفة بأركانها التي تنعطف فجأةً كأنما تدَّخر لك مفاجأةً تتكشَّف لعينيك دائمًا بعد قليل كالخوض في صفحات كتاب مصور، وكانت الطرقات الفرعية المرصوفة بمربعاتٍ صغيرة كالآجر على هيئة مراوح، تنوء بوقع الأقدام التي سارت عليها خمسمائة عام.

وكان أهل كولمر جد فخورين بتراث ماضيهم الحافل، يطوفون في عصر أيام الآحاد أو في أيام الإجازات بالتماثيل الكثيرة القائمة في المتنزهات والميادين، ويزدحم المتحف بأولئك الذين يأتون إليه مرارًا وتكرارًا لينظروا إلى رسومات الماضي البعيد ونحوته.

وكان يوم الخميس هو يوم الزيارة في طفولة ألبرت شفيتزر، حين يُقبل الزوار من القرى المجاورة ليزوروا أسرة بارث، ثم يتوجهوا دائمًا إلى المتحف بعد أن يتناولوا وجبة الغداء المشبعة. وكان يُسمح لألبرت بأن يذهب معهم حينما يكون هناك، حيث يجد في كل مكان يتجه إليه هناك شيئًا يجذب عينيه ويُغريه بالتخلف. وكانت آثار الحفر على الخشب قد صُنعت بدقةٍ عظيمة حتى أظهرت التفاصيل الصغيرة لورقة الشجر أو التجعيدة تخط وجه رجل عجوز. وأُقيم تمثال السيد المسيح الخشبي على حمارٍ لا يزيد حجمه عن حجم جواد من لُعب الأطفال، وقد أُقيم على منصةٍ ذات عَجَل؛ لأنه كان يُستخدم في مواكب الاستعراضات منذ سنين كثيرة، ولكن المكان الذي عُلِّقت فيه صور جرونفالد هو الذي نجد فيه ألبرت متلبِّثًا بعد أن يمضي الآخرون.

وكانت هناك صور للقديس الناسك بول، وللقديس أنطونيوس وما وقع فيه من غواية، ومناظر طبيعية من المحتمل أنها كانت في الألزاس، على أن الأشجار والصخور اتخذت أشكالًا غريبة، وصوَّرت الشياطين والحيوانات التي تُحيط بأنطونيوس تصويرًا فيه من الواقعية ما يسحر أي طفل ويفتنه. وكانت صورة الطفل يسوع بين ذراعي أمه

أيضًا إحدى الصور المفضَّلة لدى ألبرت، والتي رسمها أيضًا هذا الفنان الألزاسي المجيد نفسه، الذي كان يعيش منذ أربعمائة عام. وكانت الصور تحتل غرفةً تشبه الكثير من غرف الأطفال في الألزاس، وبها المهد وقد أُلقيت عليه ملابس الطفل بلا عناية، والمبولة والحنفية الخشبية وعليها المنشفة، وإلى يسار هذا طائفةٌ من الملائكة يعزفون على الآلات الموسيقية، ومن الخلف حيث كانت الغرفة تتكشف عن زرقة السماء بالليل، تجلَّى الرب يلتف به حشدٌ من الملائكة في هالةٍ من الألوان بدت وكأنها تتغنَّى بالنور. ولم يجد الطفل في هذا المزيج من الواقع والخيال شيئًا غير طبيعي، فإنه كان يعرف أن مثل هذه الأشياء كانت خليقةً أن تكون.

على أن الصورة التي كانت تتمثَّل في ذاكرته نابضةً بالحياة أكثر من غيرها هي صورة المسيح مشدودًا على الصليب، وقد وقفت العذراء مريم في جانبٍ مشتملةً بقناعٍ أبيض مسترسل، وقد بدت عليها سِمة من اليأس، وحنا عليها الرسول يوحنا ليواسيها مشتملًا بعباءةٍ بلون النار. وحملق الطفل إلى الصورة أمامه وقد بدا فيها شعر الرسول الأصفر القاتم، أشعث كشعر ألبرت نفسه، وتساءل: هل كان الرسول يُعنَّف أيضًا كما كان يُعنَّف هو في كثيرٍ جدًّا من الأحيان، وهل كان شعره يُصقَل ويُسوَّى بالفرشاة مرات ومرات حتى يشعر بوخز ضربات الفرشاة في فروة رأسه، ثم لا يلبث حتى يتهدَّل شعره في كل اتجاه. ولعل الفتاة الخادم لم تكن في معظم الأحيان تجد شيئًا تقوله عنه: «جامحٌ من الباطن وجامحٌ من الظاهر.» ألم يصبح يوحنا بشعره الجامح جميعًا رسولًا من الرسل؟

وبدأ ألبرت بعد حينٍ يعرف كولمر معرفته لقريته جونسباخ أو يكاد، وكانت أمه في العماد بارث تلحق به وتأخذه إلى بيتها ليبقى معها أيامًا متصلة، وكان يتعلم أسماء الشوارع التي يمر بها حين تخرج به خادم أو خادمتان، وكانت أسماؤها من نوع الأسماء التي يحبها الطفل مثل شارع الدببة، وشارع اللقلق، وشارع الضفدع، وشوارع سُميت بأسماء الصياد والخباز والتاجر وصانع الأقفال وصائد السمك.

وفي يومٍ مشهود من أيام الآحاد خرجت أم ألبرت في العماد في زيارة، وتركته للفتاتين الخادمتين، وقالت وهي تتركهم: «اخرجا بالطفل في نزهةٍ صغيرة ولكن لا تطيلا، واحرصا على مراقبته عن كثب.»

وما إن أصبحت الأم خارج الباب حتى ارتدت الفتاتان خير ما ترتديان في أيام الآحاد، ثم خرجتا ومعهما ألبرت الصغير يغذ السير بينهما، وساروا في الشارع الملتف الذي ينعطف في هذا الاتجاه وذاك، مارين بالمخابز والمقاهي، حيث جلس الرجال ذوو الشوارب أو اللحى

إلى موائدَ على قارعة الطريق يحتسون جِعَة الألزاس أو نبيذ الراين الجيد. وظهرت على البعد فرقة موسيقية تعزف، فآثرت الفتاتان الذهاب إلى هناك، ثم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم في سوق قرية هوربورج، حيث كان الشباب يرقصون الرقصة الريفية المألوفة في هذا الإقليم.

واشتركت الفتاتان في الرقص، ولكنهما حافظتا على عهدهما للأم بارث في الوقت نفسه وحرصتا على مراقبته. وأمسكت إحداهما بيده اليمنى، وأمسكت الأخرى باليد اليسرى، وكل منهما تمسك بيدها الأخرى شابًّا يشاركها الرقص في قوةٍ واندفاع. وراحتا ترقصان العصر بطوله، وقد انبعثت الأبواق النحاسية الكبيرة تعزف لحنًا جيَّاشًا بالحياة، والصبي الصغير بينهما بشعره الأشعث يُسرع الخطى ليلحق بهما. وكان الطفل — وهو يرتد إلى الخلف ثم إلى الأمام ثم يدور — يشعر بمتعةٍ كبيرة تماثل المتعة التي شعرت بها الفتاتان مع مُراقصَيهما، ولكن ما إن فرغوا من هذا كله ومضَوا في سيرهم الطويل عائدين إلى البيت حتى بدأ الصراع يعتمل ثانيةً في ضمير ذلك الطفل المرهَف الحس. وقال بينه وبين نفسه: هب أن الأم بارث سألتني أين كنت وماذا فعلت؟ فلا يكون أمامه إذ ذاك إلا الاختيار بين أن يكذب أو يخرج عن ولائه للخادمتين. وكدَّ عقله حتى تعب، محاوِلًا أن يختار بين الأمرين، ولكنه أُخرج من هذا المأزق لحسن الحظ.

وكان كلما سألته الأم: «هل قضيت وقتًا طيبًا؟» استطاع الصبي أن يجيب صادقًا: «نعم.»

ولكنه لم يسلم في المرة الثانية كما سلم في هذه المرة، وقد حدث هذا حين أخذه صبي أكبر منه في نزهة سيرًا على الأقدام، وحذَّرت السيدة بارث الصبي كما سبق أن حذَّرت الخادمتين، بأن تحرصا على مراقبة الطفل عن كثب، وألَّا تنطلقا في المسير إلى مدًى بعيد، وأضافت قائلة: «ولا تتجها صوب النهر.»

ووعدها الصبي الأكبر بذلك، ثم أمسك بيد ألبرت وقاد الطريق بخطواتٍ ثابتة كأنه يعرف حق المعرفة وجهته، وسارا في الشوارع الضيقة المتعرجة مارين بناحية الجبال السوداء الستة، حيث كان يقوم تمثال لفارسٍ في شكته يحمل سيفًا ودرعًا. لقد قال له جيجل القندلفت العجوز: إنه سوف يرتدي حين يشتد عوده مثل هذا الزرد من الحديد. وعرف الآن أن الرجل العجوز لم يقصد بذلك إلا إغاظته كما فعل من قبلُ حين غاظه بالقرنين، ولكنه لم يكن واثقًا من ذلك كل الثقة أول الأمر؛ لأن جيجل كانت له طريقة جادة في إلقاء نكاته؛ فقد قال له من قبلُ متخذًا سَمت الرزانة والوقار، مصطنعًا ذلك

الأسلوب الذي جرى عليه في التحدث بأمرٍ دون أن يتغيَّر تعبير وجهه، حتى لَيستطيع أن يحمل أي شخص على تصديق أي شيء يقوله: «إنك لتعلم أننا ننتمي الآن إلى بروسيا، وفي بروسيا لا مناص للصِّبيان من أن يصبحوا جنودًا، والجنود يلبسون زردًا من الحديد، وإنك لتستطيع أن ترى ذلك في الكتب المصوَّرة، ولسوف يتعيَّن عليك في القريب العاجل أن تُبادِر إلى حانوت الحداد وتطلب منه أن يقيس جسمك ليصنع لك أنت أيضًا زردًا من حديد.»

وجذب حانوت الحداد ألبرت إليه أول الأمر، ووقف ليرى هل كان ثمة جنود يُقبلون عليه ليقيس أجسامهم ويصنع لهم زردًا من الحديد؟ ولكنه الآن بعد أن كبر وفهم الأمور أكثر من ذي قبل، فقد عرف أن الجنود يلبسون حُللًا من القماش بدلًا من الحديد. وقال الصبي الأكبر وقد نفد صبره حين رأى ألبرت يتلبَّث خلفه: «تعال.»

وانعطف في شارع صيادي السمك وهو يجر ألبرت من يده، وتكشَّف لهما فجأةً حول ركن الشارع نهر لاوش، وكان نهر لاوش اكثر اتساعًا من نهر فيخت، ولكنه كان أكثر منه هدوءًا؛ إذ كانت مياه نهر فيخت تصطخب وتهدر دائمًا وهي تندفع مجتازةً مهده الصخري. ووقف ألبرت بجوار رفيقه يُطل على المياه الساكنة، وقد انعكست على صفحتها كالمرآة البيوت العتيقة، بلونها الوردي والأصفر الهادئ. وكان يمر في النهر من حينٍ إلى حين قارب وسق إلى حافته بخضر الحقول القريبة.

وقال الصبي الأكبر: «هيا بنا نبحث عن قاربٍ يسهل علينا فك رباطه.»

ولم ينتظر حتى يسمع ردَّ ألبرت وزحف هابطًا الجسور، وأخذ يبحث إلى أن عثر على قاربٍ لم يُحكم رباطه، وراقبه ألبرت وهو يفك رباط القارب ويخطو إليه، فتمنَّى من كل قلبه أن يشاركه لكنه تردَّد، وقال الصبي وهو يشير إليه بأن يخطو إلى القارب أيضًا: «تعال.»

وأجاب ألبرت: «ولكن تذكَّر ما قالته لك أمك، وما قالته لي أمي في العماد.»

ولم يكن من الصبي إلا أن حملق فيه كأنما عجز في كل ما مرَّ به عن أن يُدرك السبب الذي يحمل أي إنسان على أن يحفل بما يقوله من هم أكبر منه سنًّا. ولم يستطع ألبرت أن يصمد لهذا الإغراء أكثر من ذلك، وخطا إلى القارب مدفوعًا بنظرة الصبي المحملقة، وانطلقا في النهر ينسابان تحت غصون الأشجار المتدلية مارين بزوارق أخرى تروح وتجيء. وقاد الصبي القارب ببراعة دلَّت على أنه مارس ذلك من قبلُ مرات كثيرة. وما كان أروع الوقت الذي أمضياه في ذلك! وسهل على ألبرت أن يتصوَّر أن نهر لاوش الصغير الساكن كان محيطًا واسعًا، وأن القارب الصغير كان سفينةً شراعية تحملهما إلى بلاد بعيدة!

لكنهما أفاقا على أصوات غاضبة ترامت إلى سمعيهما على بعدٍ من فوق ضفاف النهر. وقال الصبي الأكبر في هدوء: «لعل من الخير لنا أن نعود الآن.» وجدفا راجعين فوجدا صاحب الزورق واقفًا على ضفة النهر وقد استشاط غضبًا.

وقال وهو يهز إصبعه في وجه الولدين: «لن أخلي سبيلكما هذه المرة. أجل إنني لمنبئ أمكما هذه المرة بما فعلتما.»

فلمَّا عادت الأم بارث بألبرت إلى بيته في جونسباخ، سألتها أمه هل كان سلوك الصبي محمودًا؟

فأجابت بارث: «لا، لم يكن كذلك تمامًا.»

ولم يُعفَ ألبرت من العقوبة مع أن بارث بيَّنت لأمه بأن الذنب في ذلك هو حقًّا ذنب الولد الأكبر. وانتهى الأمر جميعًا ونال ألبرت جزاءه، إلا أنه ظلَّت تطوف بمخيلته يجرى ذكريات عن نزهة بديعة قضاها في زورق هابطًا نهر لاوش.

وكان ألبرت شأنه شأن أي صبي يحلم في كثير من الأحيان بما سوف يكون حين يشتد عوده. وكان — وهو بعدُ صبي صغير السن جدًّا — يرى رعاة البقر يسوقون أبقار القرية مصعدين في الجبال حيث يزدهر الكلأ، ويرى أيضًا رعاة الخنازير يمضون في سبيلهم لرعي خنازير القرية. وكان يفكِّر بينه وبين نفسه في مبلغ ما تكون عليه الحياة من روعة حين يمضي المرء كل يومه على قمة جبل، يجري ويمرح طليقًا كالهواء، والماشية ترعى في هدوء وسكينة على طول سفوح الجبل. وكان الأمر يقتضيه بطبيعة الحال أن يكون جنديًّا أولًا وقبل كل شيء. لقد كان جيجل العجوز محقًّا في أمر واحد؛ إذ قال بأنه خليق حين يشتد عوده أن يكون شأنه كشأن أي صبي ألماني، فيلتحق بخدمة الجيش البروسي بعض الوقت ليتدرَّب التدريب العسكري؛ لأن الألزاس كانت آنئذٍ جزءًا من ألمانيا. فإذا انتهى ذلك فما أكثر ما يكون أمام صبي في سِنه من أمور يحلم بها، وما أكثر ما ينتظره من مغامرات يخوض غمارها.

وقد قال لأمه يومًا: «لأغدون بحارًا.»

وذكَّرته أمه بقولها: «إن البحارة ينامون في أرجوحة من الشبك المغزول بدلًا من الفراش المتخَذ من ريش الإوز الناعم الذي تنام عليه. ولكن الملاحين يعيشون حياةً يحسدهم عليها كل من يأوي إلى فراشٍ من الريش، يجوبون البحار إلى البلاد النائية، إلى أمريكا والشرق ويهبطون إلى أفريقيا.»

وكان يقوم في الحديقة في كولمار تمثال لا يمل ألبرت أبدًا المرور به، ويقف أمامه وينظر إليه مفتونًا مسحورًا. وكان هذا التمثال قد صنعه المثَّال الكولماري بارتولدي، الذي

كان حينئذٍ في باريس يعمل في صنع تمثال الحرية العظيم الذي قصد به أن يكون هديةً من فرنسا إلى أمريكا. وكان التمثال الذي صنعه بارتولدي لمسقط رأسه هو أيضًا عظيمًا ضخمًا، يمثِّل القوام الفارع لأمير البحر البطل بروات، وقد التفَّت بقاعدته أشكال ضخمة تُصوِّر أركان الأرض الأربعة؛ ألَا وهي أوروبا وأمريكا وأستراليا وأفريقيا. والشكل الذي يرمز إلى القارة الأخيرة بصفةٍ خاصة هو الذي استرعى نظر ألبرت شفيتزر مذ وقع عليه بصره. وكان هذا الشكل يصوِّر تمثالًا لزنجيٍّ عملاق، في وضعٍ منحنٍ نصف انحناءة، شابت ملامحه مسحةٌ من الحزن، وبدا بجسمه القوي المفتول العضلات كأنما هو على وشك النهوض، وإن كان رأسه قد انحنى أسًى وحزنًا. أجل إن هذا التمثال كان هو الذي تملَّك مشاعر الصبي حتى عجز عن أن يمحوه من ذاكرته.

الفصل الثالث

«إذا كنتُ مخلوقًا له عقلٌ يفكِّر، لَحَقٌّ عليَّ أن أنظر إلى حياة غيري من الناس نظرةً تعادل في الاحترام والتوقير نظرتي إلى حياتي أنا نفسي؛ ذلك أنني خليقٌ بأن أعلم أن هذه الحيوات تصبو من أعماقها مثلي إلى الاكتمال والنمو.»

من كتابه: «احترام الحياة»

ونمت الأسرة الصغيرة، وأصبح قوامها آنئذٍ ثلاث أخوات، أكبرهن لويز، ثم تأتي بعدها أديل، ثم مرجريت، ثم أعقبهن أخ هو بول. وتردَّدت جنبات البيت العتيق بأصداء ثرثرتهم وأغانيهم وضحكاتهم.

وكان أبوهم يرفع بصره أحيانًا في نظرةٍ قصيرة عن مكتبه في حجرة درسه التي كانت تفوح منها رائحة الأوراق والكتب القديمة، ثم يعود صرير قلمه فيبلغ الأسماع وهو ماضٍ في كتابة موعظته، أو في تأليف قصص سماها «حكايات القرية»، التي نشرها في «رسالة الكنيسة» وفي التقاويم. وإذا كانت أمه قد حاولت أن تُلزِم أطفالها السكينة، فإنما كانت تفعل ذلك لأنها ذكرت طفولتها هي حين كان أبوها يمضي إلى مكتبه ليُعِد عظاته، فيقتضي الأمر أن يسود البيتَ جميعًا في تلك الأيام سكونٌ تام؛ فلا يُسمح لزائرٍ بالدخول، ولا يُسمح للأطفال بالحديث إلا بهمس، بل إن أخاها الأكبر الذي كان غائبًا عن البيت في مدرسته لم يكن يُسمح له بالعودة إلى المنزل في العطلة، إذا وقعت هذه العطلة في يوم سبت.

ولم يكن ألبرت قد رأى قط جده شيلينجر، ولكنه ظل يسمع عنه قصصًا تُروى في الوادي الذي يُحيط به؛ فقد كان ثمة بعض من القوم يذكرون كيف كان يخرج من الكنيسة حين تنتهي صلوات الأحد ويتحدَّث إلى الناس الذين اجتمعوا هنالك عن آخر

الأنباء السياسية، أو عن كشفٍ جديد وصل إليه العقل البشري. وكان عنده مجهر يحبُّ أن يُشاركه فيه أصدقاؤه وجيرانه، حيثما بدت في السماء ظاهرة تستدعي التفاتًا خاصًّا كسقوط نجوم من الثوابت، أو اقتراب كواكب من الأرض، على أنه كان يلتزم الرصانة والجد ويستوجب الاحترام، فلم يكن يجسر أحد على أن يزوره في مسكنه إلا إذا ارتدى معطفًا أسود ووضع على رأسه القبعة المرتفعة المأثورة عن ذلك العهد. وكان له طبعٌ ناري يثور سريعًا، ولو أنه كان يستطيع أن يكبح جماح غضبه سريعًا كذلك.

وقد ورث ألبرت هذا الطبع الحاد عن جده لأمه، ذلك الطبع الذي كان يحاول أن يكبح جماحه فلا يستطيع إلا بمشقة. على أن هذه الحِدة كان يعقبها دائمًا ذلك التسامح السهل المأثور عن جده، وتلك الابتسامة نفسها التي تدل على طِيبة القلب. وقد ورث أيضًا عن جده لأبيه شيلينجر حبه للموسيقى، وكان يُروى له كيف كان جده يرتجل على البيانو أو على الأرغن ألحانًا من عنده تلائم حالته. وقد كان شغفه بآلات الأرغن عظيمًا، حتى إنه كان إذا اتفق أن مضى إلى بلدٍ غريب لم يرَه من قبلُ قط لا ينفك يطلب أن يرى أول ما يرى آلات الأرغن القائمة في كنائس هذا البلد. وقد عُرف عنه أنه قضى أيامًا متصلة في هيكل كنيسة يرقب إقامة الأرغن، متتبعًا كل مرحلة من مراحل تشييده.

وكان البيانو المربع العتيق الذي كان يعزف عليه يقوم آنئذٍ في سكن القس بجونسباخ، وظلَّت الموسيقى جزءًا من حياة شفيتزر بقدر ما كان يستطيع أن يتذكَّر؛ ذلك أن أباه بدأ يعطيه دروسًا فيها منذ بلغ الخامسة من عمره، وشب عوده حتى استطاع أن يبلغ مفاتيح البيانو أو يكاد. وكان حتى في ذلك الوقت يتذوَّق الهارموني، فلمَّا تعلَّم كيف يعزف بقراءة العلامات الموسيقية سمح له أن يضع من عنده أغاني وتراتيل. وكان أبوه إذا حلَّ الغسق يُقبل من حُجرة مكتبه ويعزف والأطفال يستمعون، وكثيرًا ما كان يرتجل الألحان وهو ماضٍ في عزفه.

لقد كان هذا البيت سكنًا سعيدًا لطفلٍ يشب فيه ويترعرع؛ إذ يخرج أفراد الأسرة جميعًا في نزهةٍ خلوية صيفًا، فيحزمون غذاءهم ويسيرون مصعدين على سفوح التلال، ويبلغون غابةً من أشجار البلوط والقسطل حيث تقف السناجيب آمنةً على قوائمها العالية، وتُطل عليهم منتهرةً وهم يمرون بها، وحيث تختفي الأرانب البرية وراء لمم من نبات العليق ساكنة كالحجر حتى يغيبوا عن الأنظار، ويمضون مصعدين أكثر وأكثر حيث تنمو أشجار الشربين والصنوبر والزان، وتزحف الأيائل والخنازير البرية الضاربة خلسةً بين الكلأ.

وكان أفراد الأسرة يمزحون ويمرحون في الشتاء أيضًا فيتنزَّهون في العربة الكبيرة التي تُستخدم في حمل الأخشاب المقتطعة من الغابة، تلك العربة الخاصة بصاحب الدار الملاصقة لدارهم، أو يتزحلقون حين يكسو الثلج والجليد الأرض، أو يسايرون الشاطئ على زلاقاتٍ هابطين الطريق الممتد خلف الكنيسة.

ولم تلبث هذه الحرية الرائعة أن ذهبت فجأة؛ ذلك أن الوقت كان قد حل لذهاب ألبرت إلى المدرسة. وخرج الصبي يحمل لوحه الأردوازي الجديد تحت إبطه، متردِّدًا في خطواتٍ متلبثة متخلِّفًا كثيرًا عن أبيه الذي كان يقود الطريق. وكان ذلك في شهر أكتوبر وقد ازدهت الأشجار على جوانب التلال بألوان الخريف، وراحت طيور الحن والدغناش تمرق هنا وهناك، كأنما هي ضاربة في الأرض لا تستقر على قرار قبل أن تمضي في هِجرتها التي تحل في فصل الخريف، وانبعثت اللقالق على قمم المداخن تضرب بأجنحتها الضخمة تتأهَّب لرحتها الطويلة إلى أفريقيا.

وكان ألبرت يود من صميم قلبه أن يُفلت من الذهاب إلى المدرسة ويعود أدراجه إلى بيته، ولكنه مضى يكد في السير خلف أبيه مارًّا بنبع القرية، حيث أخذت النسوة يُثرثرن وهن يملأن جِرارهن بالماء اللازم لمطابخهن. وكانت تقوم حول ركن الطريق غير بعيد من النهر المدرسة، غامضة كريهة في نظر طفل لم يدخلها من قبلُ قط، ولكنه ما إن دخلها مرةً واحدة حتى تبيَّن له أنها لم تكن من السوء بقدر ما تصوَّر.

وكان العم إلتيس عازف الأرغن من بين الأساتذة، وكان من بينهم أيضًا الآنسة جوجويل التي تُعلِّم أصغر الأطفال سنًّا، لا يجد المرء أي غبار في مسلكها متى عرفها، ولو أنها كانت إنما تستطيع أن تضبط اللحن بإصبع واحدة حين تعزف مسايرةً لدرس الغناء الذي كانوا يتلقَّونه، غير محافظة في بعض مواضعه على اتساق النغمات محافظةَ ألبرت حتى وهو في هذه السن. وكان زملاؤه في الدرس وهم أطفال القرية الذين كان يعرفهم حق المعرفة، يلعبون معًا في وقت العطلة، وقبل بدء الدروس وبعدها، ويجرون داخلين وخارجين بين أشجار الزيزفون، وأحذيتهم الخشبية تُقرقع على أديم الأرض الصلد العاري، كانوا يتقاتلون ويتعاركون كما يفعل الصِّبية، ولكن عِراكهم كان لا يلبث أن ينتهي سريعًا، وتعقبه عهود من الصداقة ويعود الضحك والمرح سيرته الأولى.

وكان ألبرت شفيتزر سريع الضحك، غاية ما يتمناه زملاؤه في الدرس أن يقولوا أو يفعلوا شيئًا يحمله على الضحك عاليًا في المدرسة، ولكن هذا المرح كان ينطوي على رقة إحساس وشعور عميق بالعطف على الآخرين ظل يلازمه طوال حياته.

وقد حدث يومًا وهو عائد إلى بيته من المدرسة أن بدأ يتصارع هو وصبي آخر يُدعى جورج نيتشيلم ليختبر قوته، وكان هذا الصبي أكبر منه سنًّا وأضخم جسمًا، إلا أن ألبرت لم يلبث أن طرحه أرضًا. وقال له الصبي وهو يتملَّص لينهض من سقطته: «لك الحق؛ فإنني لو كنت أستطيع أن أتناول مرق اللحم مثلك في العشاء مرتين في الأسبوع لكنت خليقًا بأن أغدو في قوتك سواءً بسواء.»

ووقعت هذه الكلمات على ألبرت وقع السياط، ولم يجد لذةً فيما أحرزه من انتصارٍ في هذه المباراة، وفقد المرقُ الذي حُمل إلى مائدة الطعام في تلك الليلة بتصاعد البخار من الطاس الذي وُضع فيه نكهتَه الطيبة، حين أخذ ألبرت يفكِّر في أمر جورج نيتشيلم الذي كان محرومًا منه.

وبدأ ألبرت ينظر إلى زملائه في الدرس نظرةً جديدة، أولئك الصبيان القرويين بملابسهم الخشنة البالية، وجواربهم المرفوة، وأحذيتهم الخشبية. وأدرك لأول مرة الفرق بين حياته هو وحياتهم، وسَخِط على هذا الفرق. وإذ رأى أنهم يلبسون القباقيب الخشبية كل يوم، ويدَّخرون أحذيتهم الجلدية ليوم الأحد، عوَّل على أن يحذو حذوهم، وأن يخلع عن يديه القفازات؛ لأن أيديهم كانت عاريةً عنها. ولم يحفل في ذلك بما لجأ إليه والداه من ملاطفة أو تعنيف بل وعقاب! ولم يجعل بالهم يهنأ حتى تم له ما أراد، ومضى في ذلك إلى حد أنه رفض أن يرتدي معطفًا قديمًا من معاطف أبيه سُوِّي بحيث يناسبه.

وقال له الخياط حينما كان يحاول أن يسوِّي المعطف عليه: «إنك لتبدو الآن سيدًا شابًّا حسن الهندام.»

وكان الخياط مخطئًا كل الخطأ إذ كان قد دار في خَلَده أن هذا القول خليق بأن يُرضي الصبي؛ ذلك أن ألبرت كان قد استقرَّ عزمُه من يومئذٍ على ألَّا يرتدي أبدًا ذلك المعطف، فليجلدوه بالسوط إن شاءوا، أو يحبسوه في مخزن الطعام، ولكنه سوف يُصِر على رأيه بكل ما ورثه عن جده شيلينجر من العناد الذي عرفه عن أهل الألزاس، وقد فعل.

وتكرَّر حدوث هذا المشهد العاصف، حين ذهب مع أمه في زيارةٍ قريبة عالية السن في ستراسبورج؛ فقد مضت به إلى حانوتٍ لبيع قلنسوات الصبيان وقبعاتهم، وجيء له بقلنسوة إثر أخرى ليُجرِّبها، وراحت البائعة تؤكد لأمه كلما أتت بواحدة أنها أحدث زي للصبيان الصغار، ولكن ألبرت لم ترقه أية واحدة منها. ثم أبرزت البائعة قلنسوة بحار تتدلَّى منها شرائط على غرار ما يلبسه البحارة حقًّا، وكانت هذه هي خير قلنسوة أعجبت أمه، بيد أن ألبرت أبى أن يبقيها فوق رأسه.

وسألت البائعة وقد ضاقت ذرعًا: «أي نوع من القلنسوات تريد أيها الطفل العنيد؟»

فأجاب ألبرت: «لا أريد أية واحدة من هذه، وإنما أريد قلنسوةً كالتي يلبسها الصبيان في البلدة.»

وأقبلت البائعات الأخريات ليرين ما وراء هذا الاضطراب ... ثم جاءت مديرة المحل، وأخيرًا أرسلت عاملةً من عاملات المحل ثانيةً إلى غرفة أخرى وعادت تحمل قلنسوةً نُحِّيت جانبًا إذ زهد فيها كل المشترين، وكانت قلنسوةً خشنة بنية اللون يمكن جذبها حتى تغطِّي الأذنين، تحاكي تمامًا أية قلنسوة ممَّا يلبسه صبيان القرية في جونسباخ. وتهلَّلت أسارير ألبرت من الفرح حين ارتداها؛ فقد كانت هي ما يريده؛ ذلك أنه كان يود بعد أن يلبس على غرار ما يلبس جورج وهنري وفريتز وسائر الصبيان في مدرسته.

وتوقَّع ألبرت أن تعنِّفه أمه حين غادرا المحل، وأحسَّ بالأسف كشأنه دائمًا بعد أن تتملَّكه ثورة من ثورات طبعه. وشعر بتأنيب الضمير لأنه أزعج أمه هذا الإزعاج أمام الغرباء، بيد أنه تولَّاه العجب لأن أمه أمسكت ولم تقل شيئًا، كأنما أدركت بينها وبين نفسها أن ثمة سببًا خاصًّا به حمله على سلوك هذا المسلك. ولم تكن أمه من ذلك الطراز من الناس الذين يبوحون بشيءٍ يُحسونه، فتظاهرت بأنها لم تلحظ ما فعل ألبرت.

وكانت أخته الكبرى لويز تنحاز إليه أحيانًا في بعض تلك المشاهد العاصفة، كأنما كانت هي الأخرى تُدرك ذلك الصراع الذي يعتمل في نفسه ساعيًا إلى أن يكون كغيره من الصبيان. ولكن زملاءه لم يفطنوا إلا قليلًا إلى الدموع التي كان يذرفها، والعقاب الذي كان يلقاه في سبيل أن يلبس كما يلبسون وأن يفعل كما يفعلون. ولم يعودوا يلاحظون أحذيته الخشبية ولا قفازاته الخالية من الأصابع بأكثر ممَّا يلاحظون ما يرتدونه هم أنفسهم، ولكنهم كانوا، إذا نشب أقل عراك من قبيل ما يحدث عندما يلعب الصبيان، لا يتورَّعون عن أن يقولوا له متهِمين: «لا جرم فإنك على كل حال من الأعيان.»

وكانت تطوف بعقله أفكار ممَّا يراود الصبيان، فلا يتحدث بها حتى لخير أصدقائه؛ لأنه لم يكن متأكدًا أنه يستطيع أن يفهمه. بل إن ألبرت — وهو بعدُ صبي حَدَث — كان حين يتلو صلواته ليلًا ويسأل الله البركة لمن يعرف ويحب، يسألها لوالديه وأخواته، وأمه في العماد بارث، وأبيه في العماد لويس، ويعجب لمَ لا يصلي المرء من أجل الحيوان، كما يصلِّي من أجل الناس، وفكَّر في كلبه فيلاكس وجواد جاره الأصهب، والنحل التي يُربِّيها أبوه، والطيور التي تصدح وتعشِّش في أشجار الزيزفون، وفكَّر أيضًا في جوادٍ عجوز أعرج كان قد شاهده مرةً في كولمار يساق إلى المجزر، يسحبه رجلٌ من أمامه ويضربه آخر بعصاه

من خلفه، وانبعث ألبرت حينذاك يصلِّي صلاةً من عنده، وراح يُخافت بها بينه وبين نفسه بعد أن رتَّل صلاته الجهيرة لأمه:

«أبانا الذي في السموات، اكلأ برعايتك كل من لهم أنفاس تتردَّد وامنحهم بركتك وقِهم الضر، وأفئ عليهم السكينة في نومهم هذه الليلة.»

وبدأت الأفكار التي كانت تطوف به غامضةً فحسب من قبلُ تتضح في عقله، وأدرك أن كل مخلوق حي على الأرض، أو في الماء، أو في السماء، يمكن أن يُحس الألم كما يُحسه هو، وأن هذه المخلوقات جميعًا تستمتع بالحياة وترغب فيها كما يستمتع وهو يرغب.

وكانت تمر به أوقات يكون هو فيها سبب هذا الألم فيعذبه تأنيب الضمير من بعد. وكان الكلب الأسمر فيلاكس يتلطَّف قدر الكفاية حينما يلعب معه الأطفال ويُخاشِنونه، ولكنه كان يستوحش بمجرد أن يرى زيًّا رسميًّا، ويقتضي الأمر أن يُحصَر في ركن كلما مرَّ ساعي البريد في ذلك الطريق. بل لقد حدث مرةً أن عض الكلبُ شرطيًّا وحاول ألبرت أن يرده عنه، ولكن ذلك لم يكن يسيرًا عليه في جميع الأحوال، والكلب ماضٍ في نباحه وزمجرته والتكشير عن أنيابه وهو يحاول أن يُفلت منه. وكانوا في بعض الأحيان لا يجدون مناصًا من عقابه بالضرب ليسكت. والكلاب إنما تعيش لساعتها، فكان فيلاكس يعود إلى طبيعته اللطيفة بمجرَّد أن يمضي ساعي البريد في سبيله، ولكن ألبرت كان إذ يجلس بعدُ بجوار كلبه يذكر كيف كان يلوِّح بعصاه فوق رأسه ويفكِّر فيما كان خليقًا بأن يفعله معه، فيقول بينه وبين نفسه إنه لم يكن ثمة داعٍ يدعوه إلى أن يتصرف على هذا النحو تصرف مروِّض الوحوش، وقد كان يستطيع بمثل هذا اليُسر أن يرد الكلب من طوقه ويربت عليه، فينتهي بذلك إلى مثل ما انتهى إليه تمامًا من تهدئة ثائرة الكلب.

وكان يساوره الأسف نفسه بعد كل مرة يركب فيها عربة جاره، ويضرب بالسوط الجواد العجوز اللاهث المكدود، ممَّا عاناه من عمل يومه. وذكر كيف كان جنبَا الجواد يضطربان باضطراب أنفاسه، وكيف بدت عيناه مرهقتَين حين نظر إليه.

لقد كانت هذه أفكارًا يُسِرُّها في نفسه ولا يجسر على الجهر بها، حتى جاء يوم من أيام الربيع راح يتبارى فيه هو وصديقه هنري براش بالمقلاعَين اللذين صنعاهما.

وقال هنري: «هيا بنا نصعد التل القائم خلف الكنيسة ونُصب بعض الطيور.»

وقاد هنري الطريق وتبعه ألبرت لا يجسر على الرفض خشية أن يضحك منه أو يناله بالتقريع.

وكان ذلك قرب نهاية عيد يوم الصوم الكبير، وقد اخضوضر الوادي بنصالٍ غضة من عشبٍ جديد، أخذت تبرز مندفعةً بين ثنايا العشب القديم، وكانت هذه الأرض الممتدة على جانب التل خلف الكنيسة هي الأرض التي أقام فيها القرويون بساتينهم وكرومهم ومهاد خضرهم، وتعرَّت سيقان الأشجار، بيد أن براعم ثمارها كانت متأهبةً إلى التفتح في أول يوم دافئ يغاديها، وانبعثت الطيور تمرق ناشطةً هنا وهناك، تصدح بأغانيها التي تُحيي بها مطلع الفجر. وانطلق الشُّحرور، بمنقاره الأصفر الزاهر والأطواق البرتقالية حول عينيه، يشرق بها ريشه الذي يحاكي الكهرمان الأسود، يغرِّد بأنغامه العذاب الحنون، تعلو وتخفت مسايِرةً لهذه الألحان. وشارك الدوغناش الصغير في الغناء شاديًا بندائه الصافي النبرات كالمزمار، ثم ردَّدت الطيور الأخرى النشيد، ولم يبدُ عليها أي خوف من الصبيين وهما يقتربان.

وانحنى هنري كصياد من الهنود الحمر، ووضع حجرًا في جلد مقلاعه وتأهَّب للتسديد، وأشار إلى ألبرت ليحذو حذوه.

وإذا بأجراس الكنيسة تدق في هذه اللحظة عينها ممتزجة بأناشيد الطيور، فألقى ألبرت بمقلاعه فجأة، وبادر إلى إبعاد الطيور حتى تكون في مأمنٍ من حجارة رفيقه. وماذا يعنيه إذا ضحك هنري منه؟! وهل يمكن أن يهمه أي شيء ما دام قد فعل ما أحسَّ في أعماقه بأنه هو الأمر الصواب. لقد رنَّت في أذنه أجراس الكنيسة حينئذٍ كأنها صوتٌ صادرٌ من السماء، واقترن رنينها بأفكار تراوده عن الوصية التي تقول: «لا تقتل.»

واقتضاه ذلك من الشجاعة أكثر ممَّا اقتضته أية مباراة من مباريات الصبيان التي تقتضي الجرأة والإقدام، على أنه أحسَّ عندئذٍ أنه لم يعد يخشى ما يظنه به غيره من الصبيان؛ فقد آنس من بعضهم أنهم يفهمونه، وبدأ يُحس بالإحساس نفسه الذي يساوره عند تعذيب الحيوانات المسكينة أو قتلها. وكان قد مضى من قبلُ مرتين يصيد السمك بسنارته في نهر فيخت لأنه طُلب منه أن يفعل، ولكنه أعرض عن هذا الفعل لأن هذه الرياضة فقدت متعتها بالنسبة إليه، حين كان يرى الديدان المعلَّقة في الشص وأفواه السمك تضطرب بعد أن وقعت في الصيد.

وحتى في ذلك الوقت كانت الأفكار قد بدأت تتضح في عقل ألبرت شفيتزر، وإن كان لم يجد الكلمات التي يعبِّر بها عنها إلا بعد ذلك بكثير. تُرى أي حق يُبيح له أو لغيره أن يقتل أو يعذِّب مخلوقًا حيًّا من أي نوع إذا كان ثمة سبيل واحد يصرفه عمَّا يريد أو يصرفهم عمَّا يريدون؟ لقد كان يعلم أن سببًا واحدًا هو الذي يدعوه إلى قتل صقر

ينقَضُّ على حظيرة ليختطف فرخًا لا حول له ولا قوة، أمَّا أن يرمي المرء طائرًا يشدو على شجرة لمجرد الاستمتاع بالقتل فشيءٌ آخر. وقد يُباح لزارع أن يقتطع ألف زهرة برية في مرج صيد حين يحصد العشب ليُطعم ماشيته، ولكنه إذا ما قطف بلا تفكير وهو عائدٌ إلى بيته زهرةً واحدة تنمو على جانب الطريق فإنه يكون بذلك قد أصاب حياةً بضررٍ بلا مبرر.

وترك ألبرت مدرسة القرية حين بلغ التاسعة من عمره، وذهب إلى المدرسة في مونستر على مسيرة ميلين، وكان يمضي في الطريق إليها وحده رَوحةً وجِيئة، وفي خلال هذه الرحلات زاد إحساسه قوةً بوجود صلة قربى تربط بينه وبين الطبيعة. وكان لا يكاد يعلم أي الفصول يُؤْثِر لأنه كان قد بدأ يشعر بأنه جزءٌ من الفصول جميعًا.

وكانت أشجار القسطل والكرز التي تنمو في الأخدود العميق تهتز أوراقها السُّمر والصُّفر في طريقه وهو يسير في فصل الخريف، والكروم تنوء بحملها من الأعناب الأرجوانية اللون، ثم سقط الثلج وغطَّى أولًا قُنة جبل هوهنك العالية كأنه قلنسوة بيضاء أنيقة حطَّت على رأس عملاق، ثم انتشر الثلج مسفًّا في الوادي حين أخذت الريح تهب قارصة، وكانت أشجار الكرز في الربيع مغطاةً بالأزاهير، فبدت في بياضها كأنما كان الثلج لا يزال يتلبَّث فوقها، وراحت الفراشات كرقائق الثلج تسبح مع النسيم رائحةً غادية بين هذه الأزاهير، ونشطت طيور الحن والدغناش وعصافير الشوك الصغيرة إلى بناء أعشاشٍ جديدة أو إصلاح أعشاشها القديمة التي هجرتها في فصل الخريف، وانبعثت اللقالق العديمة الصوت تُقعقع بمناقيرها الطويلة الحمر كأنما توقع ما يشبه اللحن.

وكانت الأرض ترتفع ارتفاعًا وعرًا على جانب، وتنحدر على الجانب الآخر منفرجةً عن مرجٍ ينمو فيه الخشخاش القرمزي والحنطة وافرة خلال العشب في فصل الصيف. وكان صفٌّ قاتم من الأشجار يخط الوادي كاشفًا عن مجرى نهر يشدو وينبعث منه صوت رشاش، ومياهه تجتاز الصخور بيضاء ناصعةً كأنها ملاءات من الكَتان انتشرت في حوض.

وكانت التلال على البعد تنهض كأنها أمواج كبار تعلو وتهبط تُطاول قممُها الشمس، وتُلقي ظلالها رقعًا على سفوحها، وتبدو أحيانًا سحابةً شعثاء كأنما أمسكتها قُنة من هذه القنن، ولكنها تنسل منها متخذةً صورةً أخرى وتنساب متلكئة. وكان المرء في فصل الصيف حين يسكن الهواء فلا تسمع له نأمةً ولا صوتًا يكاد يظن أنه يسمع في الفضاء ألحانًا كثيرة، تنبعث من الجلاجل المُعلَّقة في رقاب البقر.

وكانت القرى الصغيرة التي تستكن على طول السفوح تُرى بوضوحٍ من الطريق العالي، ولكل منها كنيسة ترتفع منارتُها فوق الأسطح المغطاة بالقرميد الأحمر.

وكانت تقوم على تلٍّ من التلال أطلال قلعة قديمة تستطيع أن تحمل صبيًّا على أن يحلم بفرسان الزمن الغابر والقصص التي تُقرَأ في كتب التاريخ عن شارلمان وأد الريخ أول دوق من دوقات الألزاس وابنته الصالحة القديسة أوديل. وكان ثمة أيضًا نوادر تُروى عن الكونت رودولف الشرير الذي كان يعيش في قلعة هوهلا نسبورغ منذ ثمانمائة عام، ونشر الرعب في التلال والوادي. وكان هذا الكونت حين يفرغ من الحرب يُنفق وقته في الصيد، ويطأ محصولات الفلاحين بجياده وكلابه فيُفرِّق شمل القطعان من أغنامهم وماشيتهم، ويقتل بلا شفقة ولا رحمة الأيائل والظباء الحمر.

وقد حاول ألبرت مرةً أن يرسم القلعة، ولكنه لم يرضَ عن هذا الرسم، ثم عاود الكرَّة محاوِلًا أن ينظم أبياتًا من الشعر يصف فيها ما رأى في رواحه كل يوم دائمًا إلى مدرسة مونستر وغُدُوِّه منها، ولم يرضَ ألبرت عن نظمه أيضًا، وأدرك أن موهبته لا تنصرف إلى التصوير أو إلى الشعر، وإنما الموسيقى هي خير ما يمكن أن يعبِّر به عن أحاسيسه. وحتى في ذلك الوقت الذي بلغت فيه سِنه التاسعة كان يُسمح له أحيانًا أن يعزف على الأرغن في الصلوات التي تُقام في الكنيسة نائبًا عن العم إلتيس.

وأغلقت المدرسة أبوابها في أواخر شهر يونيو، ذلك الوقت الذي ازدهرت فيه أشجار الزيزفون النامية في فناء المدرسة، وامتزجت روائح الصيف جميعًا في شذًا واحد: أزهار البرسيم والعشب الذي حُصد حديثًا، وأزهار الياسمين، وزهر العسل النامي على حاجزٍ من حواجز السور، وهنالك وجب الكف عن النزهة سيرًا على الأقدام التي كان يمارسها كل يوم.

وكان ألبرت طوال حياته يجد مشقةً في أن ينتزع نفسه من البيئة التي ألفها وشُغف بها حبًّا. وكانت تلك السنة سعيدةً بالنسبة له، ولم تكن الدروس نفسها سهلة؛ لأنه كان في البداية بطيئًا في التعلم، ولكن الأساتذة استطاعوا أن يجدوا وسيلةً لإثارة اهتمامه بالدرس. وكان ثمة مدرس للَّاتينية يعطيه دروسًا خاصة، وكان ثمة أيضًا القس العجوز شافر الذي كان يبث في قصص التوراة التي يحكيها من المشاعر، ما يجعل المرء يكاد يشعر أنه قد شهد بعينيه الأحداث التي ترويها.

وكانت الدموع تترقرق في عينَي الرجل العجوز وهو يقرأ:

«أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر.»

وكان النشيج يُسمع بين التلاميذ أيضًا وهم يستمعون. كيف انكفأ يوسف على رقبة أخيه بنيامين وبكى، وانكفأ بنيامين على رقبة يوسف أيضًا وبكى، ثم قبَّل يوسف إخوته جميعًا وبكى معهم:

«والآن لا تأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني إلى هنا؛ لأنه لاستبقاء حياة أرسلني الله قدامكم.»

وكان من شأن ألبرت أن ظلَّ يذكر بعد ذلك بأمدٍ طويل كيف كان صوت الرجل العجوز يفيض بالمشاعر وهو يقرأ.

وقرَّرت الأسرة ألَّا يعود ألبرت إلى مدرسة مونستر في السنة المقبلة، وأن يذهب إلى مدرسةٍ أكبر في مول هاوس في الجزء الجنوبي من الألزاس، حيث كانت تُدرَّس اللغتان اليونانية واللاتينية، وكانت تبعد عن جونسباخ ساعتين بالقطار؛ ولهذا لم يكن في استطاعة ألبرت أن يعود إلى بيته إلا في أيام الإجازات، وودَّ ألبرت من كل قلبه ألَّا تضطره الظروف إلى الذهاب إليها.

الفصل الرابع

«إن الأفكار التي تصوغ أخلاقنا وحياتنا قد غُرست فينا على نحوٍ غريب مستغلقٍ على الأفهام، فإذا ما ودَّعنا طفولتنا انبثق نبتُ هذه الأفكار، حتى إذا ما تملَّكتنا حماسة الشباب للخير والحق، تفتَّحت أزهارها وبدأت تُخرج ثمارها.»

من كتابه: «ذكريات الطفولة والشباب»

ولاحت السنوات الثماني المقبلة في عينَي ألبرت دهرًا بعيد الأمد في اليوم الذي ترك فيه جونسباخ ليتخذ من مول هاوس منزلًا ومستقرًّا، وقد أدرك أنه حقيق بأن يستشعر الفضل الذي أُسدي إليه؛ فإن أباه الذي كان يسعى إلى إعالة أسرته النامية براتب القس الصغير الذي كان يتقاضاه، لم يكن في ميسوره بحالٍ أن يبعث بابنه خارج بلده إلى مدرسةٍ ثانوية، لولا الكرم الذي أظهره نحوه عمه لويس؛ ذلك أن لويس وزوجته صوفي كانا قد حُرِما نعمة الولد، وأبديا رغبتهما في أن يعيش الصبي في كنفهما حتى يتم دراسته هناك.

وكان جده لويس، وهو أيضًا أبوه في العماد، مديرًا للمدارس الابتدائية في مول هاوس، وقد اتخذ هو وزوجته مسكنهما في البناء الكئيب للمدرسة المركزية، وكذلك كانت المدينة نفسها كئيبةً بما فيها من مصانع هي أول شيء يطالع المرءَ وهو يُطل من نافذة القطار، وما فيها من مساكنَ قذرة مكتظة يعيش فيها العمال.

وساور الصبيَّ الذي كان في التاسعة من عمره حنينٌ إلى بلده، وتملَّك قلبَه شوقٌ إلى المرح والضحك والحياة الخَلِية التي كان يحياها في بيته بجونسباخ، بل لقد قلَّ اهتمامه بدروسه عمَّا كان من قبل، وراح يُنفق وقته في أحلام اليقظة حين كان الأمر يقتضيه أن يُنصت إلى مُدرِّسيه.

وكان هذا هو شأنَه في قضاء الأمسيات حين يعود إلى بيت عمه وعمته، وكانا يأخذان الأمور مأخذ الجد والصرامة، لا بالنسبة له فحسب، بل بالنسبة لهما أيضًا، ويسيطر على نهج حياتهما جميعًا طائفةٌ من النظم، لكل لحظة عندهما حساب، من وقت أن يستيقظا في الصباح حتى يأويا إلى فراشهما في الليل، لا يتهاونان أبدًا في اتباع هذا النهج مهما كانت الظروف.

وكان ألبرت ما إن يفرغ من طعام الفطور حتى يمضي إلى البيانو، يمارس التمرن على العزف حتى يحين وقت ذهابه إلى المدرسة. وكانت هذه الحقيقة في ذاتها التي أوجبت عليه العزف قد جعلت من العزف في نظره عملًا أكثر منه متعةً كان يُحس بها من قبلُ دائمًا حين يعزف، فإذا عاد إلى البيت مساءً لا يلبث أن يجد أمامه واجبًا يؤديه. وكان هذا الوقت من اليوم هو الذي أَلِف في العام الماضي أن يقضيه في الطريق الهادئ عائدًا من مونستر، يتوقَّف ليرقب عصفور الجنة يمرق مروق السهم فوق المرج، أو فراشةً ترفرف حول زهرة من أزهار الأسطر تأخَّر أوانها واستكنَّ في قلبها اللقح. وكان يجد أخواته الثلاث وأخاه ووالديه أيضًا ينتظرون عودته دائمًا ليُحيُّوه، وكلبه يهز ذيله فرحًا، ويرقص رقصته الصغيرة المأثورة عن الكلاب مُرحِّبًا بقدومه. أما الآن فقد اقتضاه الأمر بدلًا من ذلك أن يجلس في البيت إلى نَضَدٍ تراكمت عليه كتب المدرسة والكراسات، يكد ذهنه في حل مسألة في الرياضة أو يحاول أن يعرب جملةً لاتينية. وكان عقله عندئذٍ يشرد بالرغم من كل شيء في أحلام اليقظة كما كان يفعل في أوقات الدرس بالمدرسة.

وكان يُحس بالأصوات التي تصدر عن الكبار وهم يتحدَّثون معًا في هدوء: جده لويس وعمته صوفي والمرأة الشابة التي تسكن معهم وهي مدرِّسة بمدرسة البنات، وكانت ابنة شافر قس مونستر، وهو ذلك الرجل الطيب العجوز الذي أطلق على ألبرت الاسم المستعار «إيزاك» ومعناه «الضحك»؛ لأنه كان سريع الضحك دائمًا، ولكنه هنا لا يُطلَق عليه أي اسم من هذا القبيل، وفي هذا البيت الذي لم يكن فيه من الأطفال سواه، ولم يشتمل إلا على أناسٍ كبار جادين صارمين، لا يمكن أن يكون فيه من المرح والضحك إلا القليل.

وكان يصل إلى سمع ألبرت في بعض الأحيان قول الكبار عندما يتحدَّثون عن أصدقاء يعرفونهم: «إنه لرجلٌ ناضج التجربة»، ويقصدون بذلك المدح، ولكن ألبرت كان يخالجه شيءٌ من الكآبة حين يسمع كلمة «ناضج» تُقال على هذا النحو؛ فالنضج معناه نهاية النمو، وهو في رأيه الوقت الذي تتبلَّد فيه المشاعر وتنقضي المُثُل وتذهب الحماسة. وكان يتساءل كيف يضحك الرجل الناضج ضحكةً لا تنطلق من كل قلبه حين يذكر أحلامه الأولى جميعًا أو يتحدَّث بها لو تحدَّث، كأنما هذه الأحلام شيءٌ يبعث على الخجل؟

وراح ألبرت يعاهد نفسه في كل حينٍ بأنه لن يتخلَّى أبدًا عن الإيمان بالعدل والسلام والرحمة. ولسوف يظل طوال حياته يحلم بهذه الأمور ويدبِّرها ويسعى إليها، وإذا كان بلوغ النضج في التجربة يعني نهايةً مثل الشباب والشعور بالخجل منها بعض الخجل، إذن فهو لا يريد شيئًا من هذا النضج.

وكانت تمر به خمس عشرة دقيقةً من الحرية المجيدة كل مساء حين يحل وقت إعداد المائدة للعشاء، ويستوجب ذلك إخلاء المائدة من الكتب. ولم يكن يُسمح لألبرت بالخروج من البيت واللعب، إلا أنه كان يُتاح له على الأقل أن ينسى إلى حينٍ الجمل اللاتينية ومسائل الرياضة، ويقرأ أي شيء يريد. وكانت الجريدة اليومية هي أول ما تصل إليه يده، فيقرؤها من أول صفحةٍ إلى آخر صفحة. وكان لا يقرأ القصص في الملحق الأدبي فحسب، وإنما كان يقرأ المقالات جميعًا التي تتناول شئون السياسة الحاضرة. وكان يتذكَّر كل شيء يقرؤه في الجرائد بعكس دروسه التي كان ينساها في يسرٍ كبير، ويستطيع أن يذكر أسماء الأمراء الذين يحكمون بلاد البلقان ورؤساء وزاراتهم أيضًا، ويعرف بالاسم جميع أعضاء هيئة الوزارات الثلاث الأخيرة في فرنسا، وماذا تضمَّن الخطاب الأخير الذي أُلقي في مقر البرلمان الألماني. وما لبثت الدقائق الخمس عشرة أن انقضت سريعًا، حين أصبح العشاء معدًّا، ونُحيت الجرائد جانبًا؛ لأن مصارعة الدروس لم يكن بدٌّ من أن تستأنف بمجرد أن ينتهي العشاء، وإذا ما توافرت بعدُ فسحةٌ من الوقت قبل موعد النوم، حُمل ألبرت على العزف على البيانو ثانية.

وكانت عمته صوفي تقول له إذا تجرَّأ وأبدى قليلًا من الاعتراض: «لن تعلم أي خير يعود عليك من الموسيقى حين يشتد عودك.»

وكان شيء في أعماقه يعترض على هذا النظام القاسي الذي كابده في هذه السنوات، بل إن الموسيقى التي كان يُحبها أصبحت عبئًا عليه. وكان ينصرف عن مزاولة الدرس الذي لقَّنه إياه يوجين مونخ — مدرس الموسيقى — إلى عزف ما يتبادر إلى خياله مؤلِّفًا ألحانًا من بنات أفكاره.

وقد قال يوجين مونخ عنه مرة: «إن ألبرت شفيتزر هو الشوكة التي تحز في جسدي.» وكان يعنِّف الصبي من أجل ما كان يسميه «العزف الجامد».

وكان يصيح به: «ليس لديك إحساس بالموسيقى.»

ليس لديه إحساسٌ بالموسيقى! أنَّى للمدرس أن يعلم؟ وكيف يستطيع أي شخص أن يفطن إلى الطريقة التي يُحِس بها في الصميم من أغوار نفسه. إن هذه الأشياء لا يستطيع

أن يحمل نفسَه على تبيانها لأحد. وعادت به الذكرى إلى السنة الأولى التي قضاها في مدرسة القرية حين سمع الصبيان الذين يكبرونه يُنشدون درس الغناء الذي كانوا يتلقَّونه، وقد تأثَّرت نفسه أبلغ التأثُّر وهو بعدُ في هذه السن الصغيرة بالجمال الخالص المنبعث من ذلك التناسق المزدوج في النغم، فلم يسَعه إلا أن يستند إلى الحائط ليحفظ توازنه والأصوات تمتزج منشدة: «لقد كنت جالسًا هنالك في المصنع المشرف على الجدول الجاري من تحتي، أيتها الغابة الجميلة تُرى من أنبتك هناك؟» وظل رنين هذه الكلمات يتجاوب في مخيلته، وكان هذا هو شأنَه حين سمع أول ما سمع الآلات الموسيقية النحاسية تُعزَف جماعة، وخُيل إليه أنه سوف يغيب بلا شك عن وعيه لمجرد المتعة التي يُحس بها من الاستماع إليها، ولكن هذه الأمور كانت أشياء لا يستطيع أن يتحدَّث بها إلى أي شخص خشية أن يُسيء فهمه.

وألفى ألبرت نفسه طوال الأسبوع يتطلَّع إلى حلول يوم الأحد على الرغم من أن الصلوات التي كانت تُقام بالكنيسة في مول هاوس، كانت تثير في نفسه حنينًا أكبر إلى جونسباخ. وقد افتقد صوت أبيه الحنون وهو يتحدَّث على المنبر، وافتقد أيضًا ما ألفه من المضي إلى كنيسة يستطيع فيها أصحاب المذاهب المختلفة أن يؤدوا صلاتهم في وئامٍ وسلام، ولكنه كان يستطيع في عصر أيام الأحد أن يخرج في نزهاتٍ يتمشَّى فيها هو وعمه وعمته. وكان يساير خطاهم هادئًا ساكنًا، ولكن أفكاره كانت تسبح بعيدًا إلى التلال النائية مجتازةً القناة الطويلة التي تنساب مخترقةً البلدة. وكان يفرغ من واجباته كل مساء من أيام الأحد حتى الساعة العاشرة ويُصبح حرًّا يقرأ ما يريد.

كان يفتح صفحات كتابه كطفلٍ جائع في حانوت خباز، ويقرأ بشراهة، وكثيرًا ما كانت العمة صوفي ترفع عينيها عن كتابها متطلعةً إليه، وتعبس مستنكرةً حين تراه يقلب الصفحات في سرعةٍ فائقة؛ ذلك أنها كانت موقنةً كل اليقين أنه ما من أحدٍ يستطيع أن يقرأ بهذه السرعة.

كانت تقول: «ليست هذه الطريقة التي يقرأ بها المرء كتابًا يُلم بصفحاته إلمامًا كهذا؛ فالكتاب يجب أن يُقرأ في تمهلٍ حتى يستمتع المرء بأسلوبه؛ لأن معرفة الطريقة التي كُتب بها الكتاب شيء مهم.»

ولم يكن ألبرت يجادلها لأنه كان يعلم بعدُ أن الفسحة المتاحة له للقراءة سواء زادت خمس عشرة دقيقةً أو نقصت، فإن ذلك يتوقَّف كل التوقف على مزاج عمته. على أنه قد تراءى له أنه إذا استطاع أن يستمتع بكتابٍ حتى الجملة الأخيرة فيه، فإن ذلك لَدليل كافٍ

بلا شك على أن أسلوب الكتاب جيد. فإذا ما وجد فيه فقرات طويلةً مملة تغريه بالتجاوز عنها، فإن معنى ذلك أن الكتاب لا يمكن أن يكون قد بلغ في الجودة مبلغًا كبيرًا.

وكانت العمة صوفي صارمةً مع نفسها صرامتها مع الصبي الذي ترعاه، فكانت تسمح لنفسها بثلاث ساعات في اليوم تقضيها في القراءة؛ ساعة قبل العشاء وساعتين من بعده، ولا تجاوز ذلك دقيقةً واحدة. وكانت أصابعها تشتغل حتى أثناء قراءتها ببعض الخياطة أو التطريز، على حين يبقى الكتاب مفتوحًا على النَّضَد أمامها.

وكانت من حينٍ إلى حين تهتف بصوتٍ مرتفع قائلة: «يا له من رجل هذا الكاتب دوديه!» أو «ما أعجب أسلوب هذا الكاتب!»

وكانت قعقعة إبرتيها تُبطئ حتى تكاد تقف حين تنهمك في شيء، فإذا ما اشتد إعجابها بكتابٍ اشتدادًا ضحكت حتى تطفر الدموع من عينيها، ولكنها كانت إذا أشارت عقارب الساعة إلى العاشرة والنصف بادرت إلى طي الكتاب مهما آنست فيه من متعةٍ ومهما كان الجزء الذي بلغته من الصفحة، وأشارت بعلامة إلى الموضع الذي توقفت عنده، ثم ذهبت إلى فراشها.

وكان ألبرت يشتاق إلى المُضي في القراءة حتى يُتم كتابه، ولو اقتضاه ذلك أن يظل جالسًا يقرأ الليل بطوله، ولكنه أيضًا كان يُضطر إلى التخلي عن الكتاب والانتظار أسبوعًا آخر قبل أن يعود إليه مرةً أخرى.

وكان ألبرت يعود إلى جونسباخ ليقضي فيها عطلة عيد ميلاد المسيح، موقنًا أنه ما من شيءٍ كان يستطيع أن يُفسد السعادة والحرية اللتين كان يستمتع بهما في هذه العطلة، على الرغم من أن عيد الميلاد هذا كان هو الوقت من السنة الذي يأخذ فيه أبوه الأمور مأخذ الجد والصرامة مثل عمه لويس وعمته صوفي، فيخلد إلى كتابة خطابات الشكر للأطفال على الهدايا التي تلقَّاها منهم. وكان في صبيحة يوم من الأيام التي تلي هذا العيد لا ينفك عن الجهر بقوله: «اليوم يجب علينا أن نفرغ من كتابة الخطابات؛ فإنكم أيها الأطفال تحبون أن تتقبلوا الهدايا، ولكنكم إذا جاء وقت كتابة خطابات الشكر استسلمتم إلى الكسل، فهبوا إلى الكتابة الآن، ولا أود أن أرى وجوهكم تشوبها أية أمارة من أمارات العبوس والاكتئاب.»

وكان الأطفال يدركون أنه لا مناص لهم من الطاعة، فيجلس ألبرت إلى المكتب في حجرة مكتب أبيه وقد ثارت في قلبه كشأنه دائمًا عوامل التمرد والعصيان؛ ذلك أن قضاء يوم بطوله في حجرةٍ عتيقة صُفَّت فيها الكتب صفوفًا، كفيل بأن يُذهب متعة عيد الميلاد، وكان الأطفال الآخرون حينذاك يتزحلقون على متن زلاقاتهم هابطين التل القائم وراء

الكنيسة، أما ألبرت فكان لا مناص له من أن يمضي في كتابة الخطابات لوالديه في العماد ولأعمامه وعماته وأصدقاء أبويه، حريصًا على ألَّا يشوبها خطأ أو بقعة من المداد. وكان خليقًا بأن يحسد أخته لويز التي كانت تسعى إلى الانتهاء من خطاباتها في حينها حتى تفرغ للَّعب، أمَّا هو فكان في كثيرٍ من الأحيان يجلس حتى يدركه الليل، محاوِلًا أن يفكِّر في طريقةٍ يستطيع بها أن يشكر كل واحد من هؤلاء بأسلوبٍ يختلف عن الآخر، ويتحدَّث عن الهدايا الأخرى التي تلقَّاها، ويتمنَّى لكل واحد عيد ميلاد سعيدًا.

وأحس ألبرت بأنه حري بألَّا يضيق بذلك هذه المرة؛ لأنه كان مستعدًّا أن يفعل أي شيء في سبيل ما يصيبه من متعةٍ حين يعود إلى بيته، ولكنه ما إن بلغه حتى وجد أنه قد وقع أمر أزعج والديه وأفسد أيام العطلة عليه أيضًا؛ ذلك أن درجاته في الشهادة التي أُرسلت من المدرسة كانت من الضعف بحيث أصبح من المشكوك فيه أن يُسمح له حتى بالعودة إلى المدرسة من بعد. وكان قد مُنح المجانية بوصفه ابن قس، ولكن هذه المجانية لم يكن من المستطاع أن يظل يحصل عليها، وقد بلغت درجاته هذا المبلغ. ولم يعمد والداه إلى تقريعه أو تعنيفه، ولكنه لاحظ أن عينَي أمه قد احمرَّتا من البكاء، وغشى وجهَ أبيه أماراتُ القلق، فأزعجه ذلك إزعاجًا أكبر ممَّا لو كانا قد لجآ إلى تعنيفه. كان يدرك أن الأمر يقتضيه أن يبذل جهدًا أكبر، وأن يصرف الوقت الذي أنفقه في أحلام اليقظة مكبًّا على دروسه، وظلَّت هذه حاله، وظلَّت درجاته على هذا المبلغ من الضعف، ممَّا جعل أساتذته يهمُّون بأن ينفضوا منه أيديهم يائسين، حتى جاء المدرسةَ مدرس جديد هو الدكتور ويهمان.

كان في الأسلوب الذي نهجه هذا المدرس في إقباله كل يوم على حجرة الدرس وقد أعد درسه بعناية بالغة شيء يؤثر حتى في نفس طفل في الحادية عشرة من سنه؛ فقد لاحظ ألبرت كيف بدا على الدكتور ويهمان أنه يعلم حق العلم مقدار ما يُريد أن يتناوله من الموضوع الذي يشرحه، ويبلغ من ذلك بالضبط ما دبَّر وقدَّر، فيعيد إلى التلاميذ في اليوم المناسب وفي ساعة الدرس المناسبة الكراريس التي أخذها منهم من قبل.

وأعجِب ألبرت بالطريقة التي كان يعمل بها هذا الأستاذ، وبدأ يتخذه مثالًا يحتذيه، وهنالك استقر عزمه على أن يشرع في تدبير عمل يومه بعناية، وأصبح ضربًا من ضروب الرياضة عنده أن يعرف كيف يستطيع أن يُعد كل درس إعدادًا كاملًا، وعدد ما يستطيع أن يكتبه من الرسائل في كُراسته دون أن يقع في خطأ أو يلوِّثها ببقعةٍ من المداد. وأدهش ألبرت بعد ثلاثة أشهر أساتذته ووالدَيه بالدرجات العالية التي حصل عليها والتي جعلته

قريبًا من أن يكون على رأس فصله، ثم مضى يطبِّق هذه النزعة الرياضية المتحدية على المواد التي لم يوهب الاستعداد لها مثل الرياضيات واللغات.

ولم يكن ذلك عليه يسيرًا، وكان كثيرًا ما يُضطر إلى الدرس على طريقته هو، لا على الطريقة التي يُريدها أساتذته؛ فكان حتى في العلوم والتاريخ، وهما المادتان المحببتان إلى نفسه، لا يجد مناصًا من أن يُعمِل فكره فيهما، معتمدًا على نفسه، وقد علم أن مسائل من قبيل الرياح المتغيِّرة والرعد وتيار الخليج الدافئ، لا يمكن أن تُفسَّر بالعبارات الواردة في كتب العلوم المدرسية المقرَّرة؛ فقد أحس بأن ثمة أسرارًا تحيط بالطبيعة، وأن كل قطرة من مطرٍ وكل رقيقة من ثلج، ضربٌ من المعجزة بشكلها الفريد، وكلما أسهبنا في شرح الطريقة التي تحدث بها الظواهر زادت في الحق غموضًا. وأصبح لألبرت شيئًا فشيئًا صداقات كان لها مغزًى كبير في نفسه، ولو أنه كان أقل ممَّا درج عليه من خجلٍ في إظهار مشاعره أو أنه وجد أحدًا يستطيع أن يثق فيه لكان خليقًا بأن تُتاح له هذه الصداقات بأسرع ممَّا أُتيحت له، وأن يُعفى من الشقاء الذي كابده في السنوات الأولى التي قضاها في مول هاوس.

ولَمَّا مُثِّلت أوبرا تانهاوزر لفاجنر في مول هاوس سُمح لألبرت بأن يشاهدها، وكان ذلك أول مرة في حياته يدخل مسرحًا، وقد أثَّرت فيه الموسيقى التي سمعها في تلك الليلة أثرًا عميقًا، وظل عدة أيام بعد ذلك مستغرقًا في ذكراها حتى غاب عنه أو كاد ما كان يدور حوله من أمور، ومع ذلك لم يستطع أن يحمل نفسه على التحدُّث عنها، وفطن أستاذه في الموسيقى يوجين مونش قليلًا إلى ما يدور في أفكار الصبي، فعنَّفه ثانيةً لعدم استذكاره لدرسه.

وقال له غاضبًا بعد أن فرغ ألبرت من عزف سوناتا لموتسارت عزفًا رديئًا: إنك لا تستحق حقًّا أن تُعطى مثل هذه القطعة الجميلة لتعزفها.

وفتح الأستاذ وهو يتكلَّم مجلدًا يضم «أغنية صامتة من مقام لا الصغير» لماندلسون، ومضى يقول وهو يتنهَّد تنهيدًا مكبوتًا: لسوف تُفسد هذه القطعة عليَّ أيضًا كما أفسدت كل شيء غيرها، ولو كنتَ صبيًّا لا إحساس له لما استطعتُ أن أعطيها لك حقًّا لتعزفها.

وتناول ألبرت القطعة دون أن يجيب، وكانت من القطع التي عزفها كثيرًا لنفسه، وما من أحدٍ كان يعلم مبلغ تأثيرها عليه كما يعلم هو، وقال بينه وبين نفسه وهو يخرج عائدًا إلى بيت عمه: لأُرينه، أجل لأرينه، أعندي إحساس أم لا!

وأمسك في ذلك الأسبوع عن أحلام اليقظة حين جلس إلى البيانو ليتمرَّن، وكان ذلك منه تحديًا يماثل تحديه لدروس فصله سواءً بسواء، منذ جاء الأستاذ الجديد إلى المدرسة،

ولم يكتفِ بإعادة قِطع الموسيقى التي قُرِّرت له مرارًا وتكرارًا فحسب، بل إنه أخذ يدرس أيضًا ويجرِّب خير وضع يمكن أن تتخذه أصابعه في العزف، ولمَّا اهتدى إلى الوضع الذي يُناسبه كتبه فوق العلامات الموسيقية.

وبدأ في الدرس التالي، بعد أن فرغ من تمارينه على أوضاع أصابعه وأوزان القطع الموسيقية، يعزف «أغنية صامتة» مكافحًا بكل ما في وسعه ذلك الخجل الذي كان يحول بينه وبين إظهار مشاعره الحقة. ونسي وهو يعزف أن أستاذه يقف فوق رأسه، وانصرف كل الانصراف إلى العزف، فلمَّا فرغ انتظر ليسمع ما يقوله يوجين مونش، ولكن يوجين لم ينطق بكلمةٍ واحدة، وشعر ألبرت بيدٍ تقبض على كتفه وتدفعه بلطف لينهض عن البيانو ثم جلس مونش يعزف كما يعزف الموسيقار للموسيقار، وكان ما عزف أغنية أخرى صامتة لم يكن ألبرت قد سمعها من قبلُ قط، وهنالك نشأت بين الأستاذ والتلميذ صداقة وثيقة العرى، صداقة بقيت حتى أدركت المنيةُ الأستاذ.

وأعطى ألبرت مقطوعةً لبتهوفن لعزفها في الدرس التالي، وظُن من بعدُ أن ألبرت قد تأهَّب للبدء في عزف موسيقى باخ. وإذ بدأ ألبرت يتمرن على تلك الألحان الموزونة التي تتردَّد دائمًا، نفذ إلى روح الموسيقى التي قُدِّر له أن يصفها بعد ذلك بكثيرٍ فيقول: إنما هي السكينة المباركة أو السرور المنعش، وهي أيضًا الألم المبرح أو الألم يحتمله المرء في تسامٍ وجلال.

ومن هنا بدأ ألبرت يُحس اهتمامًا بهذا الملحِّن العظيم وبآثاره إحساسًا استغرق حياته كلها.

ووُعد ألبرت بأن يتلقَّى دروسًا في العزف على الأرغن الرائع بكاتدرائية القديس ستيفان البروتستانتية حيث كان مونش يعزف في الصلوات التي تقام أيام الأحد، وكان هذا حلمًا راوده منذ وقتٍ طويل، ولكن الأمر كان يقتضيه أن ينتظر حتى يتم تثبيته في الدين قبل أن يتأهَّب للبدء في ذلك.

وأخذ يدرس في صبر استعدادًا لهذا التثبيت، كما كان شأنه في دراسته حتى الآن، ولكنه حين بدأ القس الذي كان يُعِد تلاميذ الفصل للتثبيت في سؤاله واجهته المشكلة نفسها التي كانت تقف بينه وبين إظهار مشاعره الحقة، واستبقاه القس ليتحدث إليه على انفراد، محاوِلًا أن يتبيَّن ما يخالجه من شعورٍ حيال هذه المناسبة المقدسة، ولكن ألبرت لم يستطع أن يُتيح لهذا الرجل الصالح بعد أن يتغلغل في أعماقه؛ فقد تردَّد في الإجابة عن أسئلته، وأهمل بعضها فلم يُجِب عنه أية إجابة.

وقد قال القس لعمته صوفي من بعد: إنه يمر بهذا التثبيت مرور أي تلميذ لا يعنيه الأمر.

ولا شك أن العمة صوفي قد فهمت السر في الْتزام ألبرت الكتمان. أولم تكن هي تقول دائمًا إن التحفُّظ هو جوهر التربة الصالحة، وإن أي لون من ألوان الإقدام يجب أن يعد خطأً كبيرًا؟

ورأى ألبرت أن للنفس عفةً يجب احترامها احترامًا لا يقل عن احترام عفة الجسد، وكان يستطيع بعد ذلك بسنواتٍ أن يعود بذاكرته إلى هذا اليوم ويشعر بعدُ بأنه يجب ألَّا يُحمل أحد على إظهار شيء من حياته الباطنة أكثر ممَّا يُحس أن طبيعة الأشياء تقتضيه، بل إن الأم نفسها لا يحق لها أن تكشف الستر عن نفس ولدها، أو تشق لها منفذًا إلى أفكاره وقلبه.

وسار ألبرت في عيد العنصرة هو وغيره من الصبيان في موكبٍ من الأبرشية إلى الكنيسة، وقد راح يوجين مونش يعزف على الأرغن الذي لا يلبث هو أن يبدأ تمرينه عليه. وأحسَّ وهو يستمع إلى الموسيقى الجميلة المأخوذة من مقطوعة هاندل «المسيح»: «ارفعي رءوسك أيتها الأبواب»، أحس بأن هذه الموسيقى تُوائِم أفكاره مواءمةً عجيبة، بل إنه كان قد تأثر أبلغ التأثر بجمال هذه المناسبة وجلالها، حتى أحسَّ بالإعياء أو كاد، على حين كان عمه وعمته قلقَين عليه أشد القلق، والقس ينظر إليه نظرته إلى مستهينٍ لا يحفل بالأمر.

ولم يلبث بعد أن ثبت في دينه أن سُمح له أن يجلس بنفسه إلى الأرض يُجري أصابعه على دساتينه الثلاثة وأنابيبه الاثنتين والستين جميعًا، واستطاع من بعدُ أن يحل محل أستاذه أحيانًا في العزف أثناء الصلوات، ثم حان أخيرًا الحين الذي راح فيه يعزف الموسيقى المصاحبة في كونشيرتو كان يؤديه مرتلو الكنيسة، وأدرك حينئذٍ السرور الذي كان يُحسه بلا ريب جده شيلينجر حين كان يجلس إلى الأرغن مرسلًا تلك الأنغام الزاخرة الرنانة بقداس براهمز، مختلطةً بالأصوات الجهيرة للمرتلين وفرقة الموسيقى.

وكانت السنوات الثماني التي بدت له من قبلُ دهرًا حين قدم أول ما قدم إلى مول هاوس صبيًّا في التاسعة وحيدًا مستوحشًا يحن إلى بيته قد أشرفت الآن على الانتهاء، ولا يلبث أن يودع الأصدقاء الذين كان قد عرفهم، والأساتذة الذين كان قد ألف أن يُعجَب بهم ويحترمهم، وامتلأ قلبه إذ فكَّر في أنه سيفارق عمه لويس وعمته صوفي بالحزن نفسه الذي أحسَّ به من ثماني سنوات مضت حين غادر جونسباخ قادمًا إلى مول هاوس. أمَا وقد كبر الآن، فقد استطاع أن يرى أنهما بكل ما الْتزماه من نظامٍ صارم قد أفاءا عليه حبًّا وحدبًا،

وأشعراه بشعورٍ من الأمن لا يجده الصِّبيان في كثيرٍ من الأحوال عندما يغتربون ملتحقين بمدرسة بعيدًا عن بيوتهم. وكان يستطيع أن يعود بذاكرته إلى تلك اللفتات الصغيرة جميعًا التي كانا يُظهران بها حدبهما عليه، ولو أنه كان في ذلك الوقت قلما يلاحظها.

وانصرف فكره إلى يومٍ في مطلع الربيع من ذلك العام الأول، حين كان بعدُ يحن إلى بيته، ويشتاق إلى تلك الحرية التي كان ينعم بها في حياته بجونسباخ. وكان وقتذاك جالسًا إلى المنضدة بعد الساعة الرابعة، ساعة تناول القهوة، وقد بسط كتبه أمامه متأهِّبًا للعودة إلى أداء الواجبات المدرسية التي كان يؤديها في البيت. وكان اليوم مشمسًا، دفيئًا دفئًا كفيلًا بإذابة آخر الرقع المهلهلة المتبقية من الثلج، وإذا بعمته صوفي ترفع بصرها إليه منصرفةً عمَّا انشغلت به من كي الملابس، ورأته يمد بصره في شوقٍ من خلال النافذة، فقالت له وهي تضع مكواتها على الموقد: هيا بنا نخرج في نزهةٍ قصيرة سيرًا على الأقدام.

وراحا يتمشَّيان في صمت، ومضيا يسيران ويسيران مجتازَين القناة، حيث كانت كتلٌ من الثلج تسبح، ثم تسلَّقا السفح الجنوبي للتل، حيث استطاع ألبرت أن يتطلَّع إلى القُنن البيضاء لجبال الفوج التي كانت تحف بالوادي الذي يقوم فيه بيته، وكان يتوقع أن يسمع عمته في أية لحظة تقول بأن الواجب يقتضيهما الآن أن يستديرا عائدَين إلى البيت، ولكنها مضت تسير معه حتى ادلهمَّ الليل بما لا يسمح لهما بأن يمضيا في السير أكثر مما سارا، ولم يدُر بينهما قط حديث عن هذه النزهة، ولكنه أحس من يومها بأنه قد نشأت بينهما رابطة من التفاهم المشترك.

أما وقد كبر الآن فقد أخذ يقوم بنزهاته على الأقدام وحده، وتقوده خُطاه في كثيرٍ من الأحيان على السفوح الممتدة على الجانب الجنوبي للمدينة، حيث كان يستطيع أن يرى الجبال التي يحبها، وكان في بعض الأحيان يلقى رجلًا عجوزًا يسير في الطريق الذي يسير هو فيه، وقد أمسك الرجل قبعته بيد وشعره الطويل سابحٌ في الهواء، وأمسك باليد الأخرى كشأنه في كثيرٍ من الأحيان باقةً من أزهارٍ برية جمعها، وقد ألفا أن يتعرَّف كل منهما إلى الآخر، ويسيرا مجتازَين الحقول والغابات. وكان الرجل هو أدولف شتروبر الشاعر الألزاسي الذي كان كل صبي من صبيان المدارس في الألزاس يعرف قصائده التي تغنَّى فيها بجمال البلاد ومباهج الصداقة وحياة الأسرة. أما وقد أوشك ألبرت أن يغادر مول هاوس، فإنه استطاع أن يحصي من الذكريات السعيدة للسنوات التي قضاها فيها أكثر ممَّا أحصى ذكريات الشقاء. وكان كلما تطلَّع إلى العودة إلى جونسباخ ساوره ذلك الشعور نفسه بالأسى الذي كان يُحس به كلما غادر مكانًا ألفه وأنس به. وكان اليوم الأخير من

أيام الامتحان مناسبةً جليلة كفيلة بأن تملأ قلب كل فتًى بالرهبة من ارتداء سترة رسمية سوداء وسراويل سود، والوقوف وحيدًا في رواقٍ ممدود ينتظر فيه زملاؤه في الدراسة دورهم للإجابة عن أسئلةٍ ألقاها عليه مبعوث إدارة المدرسة القادم من ستراسبورج في هذه المناسبة، وقد جلس أساتذتهم إلى منضدةٍ طويلة تواجه الفتيان، وراحوا ينظرون إليهم في جدٍّ أو قلق أو مبتسمين ابتسامات التشجيع.

وكان ألبرت قد حصل على سترةٍ رسمية سوداء كانت تخص من قبلُ قريبًا من أقرباء أمه، ولكن لم يتيسَّر له سراويل سود تناسبها.

وقال له عمه لويس: «لأعيرنك سراويلي.»

ولم يهتمَّ ألبرت ولا عمه كثيرًا بالاختلاف بينهما في المقاس؛ فقد كان عمه قصيرًا بدينًا وألبرت طويلًا رفيعًا، فلمَّا حاول أن يلبس السراويل في صبيحة يوم الامتحان لم تكد تبلغ طرفَي حذائه العالي، فربط شريطًا في حمَّالتَيه ليزيد من طول السراويل، ولكن ظلَّت هناك فرجة بين السترة والسراويل، ثم رأى أن الوقت أقصر من أن يُعير هذا الأمر الْتفاتًا، ولم يجد بُدًّا من لبسها على أية حال.

وألقى عليه زملاؤه الذين كانوا في أحسن هندام نظرةً حين وصل إلى المدرسة وبدءوا يضحكون، وأدرك ألبرت موضع الفكاهة في هذا الموقف وضحك معهم، وأخذ الفتيان يديرونه في كل اتجاه حتى يستطيعوا أن يروا منظره من جميع الجوانب، وأغرقوا في الضحك واستخفهم الطرب، فلم يستطيعوا أن يبادروا بالتزام الجد حين أُمروا بدخول قاعة الامتحان، بل إن الأساتذة الذين كانوا يجلسون إلى المنضدة قد ابتسموا عندما رأوا ألبرت يدخل، ولكن المبعوث حدجهم بنظرةٍ صارمة، وكانت ملامح وجهه تقول بجلاء: ما المقصود بمثل هذا التهريج؟ وانتقى من الفتيان ذلك الفتى الذي رأى أنه هو السبب في هذا التصرف النابي، وبدأ يمتحنه بنفسه وأخذ يُلقي عليه السؤال تلو السؤال، وانبعث ناظر المدرسة الذي كان في يومٍ من الأيام قلقًا أشد القلق من أجل الدرجات الضعيفة التي نالها ألبرت خلال السنة الدراسية الأولى ينظر إليه نظراتٍ تنم عن التشجيع، ولكن المبعوث كان يمعن في هز رأسه حين يخطئ الفتى في الإجابة عن سؤال، وسأله المبعوث: كيف كانوا يرسون السفن على ما وصف هوميروس؟

وكانت قصص هوميروس حافلةً بالمغامرات ممَّا يلفت انتباه أي فتًى، ولكن ألبرت حين كان يقرؤها لم يبدُ له قط ما يجعله يُعنَى بمعرفة كيف كانوا بالتحديد يُرسون السفن في ذلك الوقت، ولم يكن يُعنى قط بتذكُّر أسماء جميع هؤلاء الأسلاف، ولا بالعلاقات التي

كانت تربط بين الآلهة والأبطال، وكان سائر الفتيان في الفصل لا يعرفون أكثر مما كان يعرفه ألبرت إلا قليلًا، وراح المبعوث الساخط يُلقي عليهم محاضرةً في ذلك.

وانتظر ألبرت متلهِّفًا المادة التالية التي سيُسأل فيها، وتحيَّر أتكون الرياضيات وهي المادة التي هو أضعف ما يكون فيها، ولو حدث هذا فإنه لراسب بلا شك. ولكن المبعوث لم يكن أيضًا يُجيدها كل الإجادة؛ ولذلك بدأ المبعوث يسأل في المادة المحببة إلى نفس ألبرت وهي التاريخ. وكانت الأسئلة في ذلك هي خير ما يستطيع ألبرت الإجابة عنه، واستطاع أن يرى غضب المبعوث يخمد رويدًا رويدًا، وانتهى به الأمر أن عدل عن إلقاء الأسئلة إلى مناقشة أمورٍ معينة حدثت في الماضي كأنما كان يتباحث مع ندٍّ له، وتحدَّث عن الفرق بين آثار الاستعمار الإغريقي واستعمار الرومان، ونسي فيما يظهر كل النسيان أنه يعقد امتحانًا.

ولم تكن درجات ألبرت من أعلى الدرجات في الفصل، ولكن شهادته حملت كلمات بخط المبعوث نفسه، أثنى فيها على ما أظهره ألبرت في امتحان التاريخ.

ولَّما انتهت الامتحانات ودَّع ألبرت عمَّه وعمته، وأحس بإعزازٍ حيالهما في هذه اللحظة لم يُحسَّ به على هذا النحو من قبلُ قط، وأخذ يعجب كيف مرَّت السنوات الثماني الماضية بمثل هذه السرعة؛ لقد كان صبيًّا في التاسعة عندما جاء إلى مول هاوس أول مرة، متكرِّهًا متبرِّمًا أشد التبرم، وها هو ذا يعود الآن إلى داره فتًى في السابعة عشرة، أشد قوةً وأطول قامةً مما تقتضيه سِنه.

وكانت أسرة شفيتزر قد انتقلت من البيت العتيق بجدرانه القاتمة الرطبة إلى بيت آخر يقوم في حديقة مشرقة زرع أبوه فيها أشجارًا غضة أسند جذوعها بروافد لتنمو مستقيمة العود، وكانت شُجيرات الدفل تُزهر في أصصٍ خشبية بجوار سلم الدار.

ولم تكن السنون الماضية قد غيَّرت من أبويه إلا قليلًا، فكانت لحية أبيه سوداء ليس فيها أثر لشيب، وظلَّت أمه بعدُ هيفاء تبدو شابةً كما كانت يوم أن غادر الدار، أما أخوه بول الذي كان إذ ذاك طفلًا ربلًا مستدير الوجه فقد غدا الآن طويلًا في مثل قامته أو يكاد، وأصبحت أخواته غادات شابات، وقد رفعت الاثنتان الكبريان منهما شعرهما بالدبابيس كما تفعل الشابات الكبيرات، بل إن أديل أصغرهن ارتدت مئزرًا طويلًا وقميصًا لا يتجاوز الخصر، له أكمام مسحوبة مثل ما ارتدته أختاها الكبريان.

وأقبل مصور ليلتقط للأسرة جميعًا صورةً شمسية بُعيد عودة ألبرت، واجتمع أفرادها في الحديقة بجوار المنزل، بل إن الكلب قد قبع متكوِّرًا عند قدمَي سيده ليظهر في الصورة،

وأخرج ألبرت وبول درَّاجتيهما ووقفا بجانب أفراد الأسرة في اعتزاز، على حين جلس الآخرون على مقاعد وعلى درجات السلم بين الفتيين.

وكانت الدراجة أشبه شيء بالبدعة في جونسباخ وقتذاك، وكان قد مضى على هذه البلدة عشر سنين فحسب منذ رأت أول دراجة تُقبل مجتازةً القرية، وكان ألبرت في ذلك الوقت في السنة الأولى بالمدرسة، فخرج هو وغيره من الأطفال في الفسحة لينظروا مليًّا إلى ذلك الاختراع العجيب، وما أكثر ما ضحكوا جميعًا إذ رأوا راكبها يلبس سراويل قصيرةً مثلهم، بدلًا من أن يلبس سراويل طويلةً كما يفعل الكبار!

وكان ألبرت يُحس أحيانًا أن الأحوال تقتضيه بلا شك أن يكون أسعد شخص في العالم جميعًا؛ فقد تهيأ له بيت هنيء، فيه تعاطف وفيه أمن، وفيه الصحة السابغة؛ ذلك أن أباه الذي كان يلازمه المرضُ في كثيرٍ من الأحيان بالبيت القديم قد شُفي تمامًا منذ أن انتقل إلى البيت الجديد. وورثت أمه ميراثًا قليلًا رفع عنهم عبء المتاعب المالية المُلِحَّة. ونَعِم ألبرت نفسه الذي كان طفلًا شديد الضعف بادي السقم بقوة ونشاطٍ كفَلَا له تحقيق أي شيء يستقر عزمه عليه، وأخذ يدبِّر الالتحاق بجامعة ستراسبورج في ذلك الخريف، ومن ثم تفتحت أمامه أبواب العالم جميعًا.

على أنه كان لا يستطيع أن يفكِّر في هذه الأمور دون أن يُلقي بباله أيضًا إلى أولئك الذين لم يغدِق عليهم الحظ كما أغدق عليه، فتبلبل خاطرُه وتساءل: لمَ تكون حياته أسعد من حياة الآخرين؟ وبأي عدلٍ يتقبَّل هذه السعادة كأنها من حقه على حين يجد آخرين يُكابدون الأحزان أو الآلام؟ لا شك أنه يستطيع أن يفعل شيئًا لمساعدتهم، ولكن ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟

الفصل الخامس

«اعمل على أن تشب وتترعرع في رحاب مُثُلك، فلا تستطيع الحياة أبدًا أن تسلبها منك، وإذا استطاع كلٌّ منا أن يُصبح في غده مثلما كان في الرابعة عشرة من عمره، فما أحرى هذا العالم أن يتبدَّل ويغدو حاله غير هذا الحال.»

من كتابه: «ذكريات الطفولة والشباب»

لقد كانت تسري في جامعة ستراسبورج في أواخر القرن الماضي نفحةٌ من الحرية؛ فقد كان أغلب أساتذتها شبابًا ضاقوا بالمناهج البالية العتيقة للجامعات الأخرى التي دأبت على العناية بأن تتخذ امتحاناتها من الكتب المقرَّرة الجامدة. وكان في حماسة هؤلاء الأساتذة الشبان ما يُشبه العدوى سرت في المحاضرات التي كانوا يُلقونها في قاعات الدرس، وتعاون الأساتذة والطلاب جميعًا على أن يجعلوا من هذه الجامعة جامعةً مثالية.

وقضى ألبرت شفيتزر شهرًا في باريس يزور عمًّا من أعمامه كان يعيش فيها قبل أن يُسجِّل اسمَه في الفصول التي سيلتحق بها في جامعة ستراسبورج، واستطاع وهو في باريس أن يتلقَّى دروسًا على شارل فيدور الذي كان من أشهر مشاهير العازفين على الأرغن في أيامه، وكانت هذه المدة أقصر من أن يتعلَّم فيها شيئًا أكثر من القدر الذي كان يحتاج إليه للدراسة التي تُتيح له الارتفاع بأدائه الفني حتى يبلغ تلك المرونة الكاملة التي كان يصبو إليها في عزفه.

وكان وصوله إلى ستراسبورج في نهاية أكتوبر سنة ١٨٩٣م، ولم يجد في يومه من الساعات ما يكفي للقيام بكل ما كان يريد أن يقوم به؛ فقد اختار أن يتلقَّى منهجًا دراسيًّا في اللاهوت؛ لأنه أراد أن يعظ الناس كما يفعل أبوه، ودرس الفلسفة كما درس فن الأداء

الموسيقي، بل إن ذلك كله لم يكفه؛ فقد أراد أن يتعلَّم كيف يقرأ العهد القديم في لغته الأصلية، فانبرى لدراسة اللغة العبرية ووجد في فسحةٍ من الوقت لدراسة الأرغن والعزف عليه في كنيسة القديس وليم غير بعيد عن الجامعة، حيث كان إرنست مونش أخو أستاذه في مول هاوس هو عازف الأرغن هناك.

وكان إرنست مثل أخيه قد شُغف هو أيضًا بباخ خاصة، وشرع يعزف سلسلةً من كونشترات باخ هناك في صحبة المرتِّلين والفرقة الموسيقية والأرغن، وكان ألبرت يعزف الموسيقى المصاحبة للأقاصيص الشعرية والألحان العاطفية أثناء التمرينات. وكان يُسمح لألبرت بالعزف بعد ذلك في المحافل نفسها حين يعجز يوجين مونش عن القدوم إلى مول هاوس.

فلمَّا بلغ ألبرت التاسعة عشرة من عمره لم يكن بُدٌّ من أن يقضي السنة المقرَّرة عليه في التدريب العسكري كما سبق أن تنبَّأ القندلفت جيجل. ومضى في التدريب والزحف العسكريَّين هو وغيره من الفتيان الذين في مثل سنه، ولكنه كان قد أوتي قوة عملاق شاب، فلم يعرف قط كيف يُحس المرء بالتعب، وكان كلما استطاع أن يجد فسحةً من الوقت اتخذ مكانه من الدراسة المنتظمة في قاعات الدرس، فإذا خرجت سريته في المناورات ألفيت في حقيبته المحمولة على ظهره سِفرًا من الأسفار المقدسة باللغة اليونانية يدرسه بالليل أو في أوقات الراحة؛ وذلك أنه كان يؤمِّل في الحصول على منحةٍ علمية تُساعده على السير في دراسته الجامعية.

وكان يستطيع أن يعود إلى الماضي الآن في شيءٍ من الاستمتاع، فيذكر تلك السنوات الأولى المليئة بالأسى التي قضاها في مول هاوس؛ كان ينفق وقته في أحلام اليقظة البليدة، وما لقيه بلا شك من انزعاجٍ وكدر حين تخلَّص من هذه الأحلام. وبدأ يدرس بجدٍّ واجتهاد، أجل كان يستطيع الآن أن يستعيد هذه السنوات، سنوات الرعونة والطيش وقتما كان يزعج الكبار بإصراره على مناقشتهم في مسائل الساعة، ومجادلتهم جدالًا يفسِّر أفكاره هو ويوضِّحها. على أن هذه السنوات لم تكن أيامًا ضائعة؛ فإن تلك الرغبة في المعرفة التي أظهرها وهو بعدُ طفل حين كان يتساءل ما الذي فعله والدا المسيح بالهدايا التي قدَّمها الحكماء الثلاثة، وذلك التقصي الذي لا يكل ولا يمل لمعاني الأشياء، قد أوغلا به الآن في دراساته؛ ولذلك لم يقنع بما قرأه في الكتب، أو بما قاله الأساتذة في قاعات الدرس، ورأى أنه يجب عليه أن يلتمس بنفسه الحلول للمسائل، ويُناقش الأمور على طريقته، وكذلك لم تكن الأحلام قد تخلَّت عن ألبرت تمامًا، بل أصبح الآن لها معنًى، كما أنها أنارت له

الطريق في بحثه عن الحق، كان يستطيع أن يجلس ويفكِّر ويحلم في معجزات الحياة الكثيرة التي يراها ماثلةً في كل مكان حوله، ماثلةً في نصل من العشب، وفي أكمام زهرة تتفتَّح، وفي سُحب تنساب، وفي حقول من الحنطة الناضجة تتمايل وتتماوج. وفكَّر كيف أن أدنأ مخلوق وأصغره تتملكه الرغبة في الحياة، بل إن هذه الرغبة لا تقل عن رغبته هو في الحياة.

وحدث في صبيحة يوم من أيام أسبوع العنصرة — وقد آب إلى بيته في جونسباخ أيام العطلة — أن استيقظ من نومه معاودًا التفكير في مبلغِ ما حُقَّ عليه من شكرٍ على النعم التي ينعم بها، واستطاع أن يسمع من نافذته أغنيات الطيور، والأصوات الآمنة المطمئنة تنبعث من قريته هبَّت من نومها وشيكًا، وأحسَّ بمتعة العودة إلى البيت ثانيةً ينعم بصحبة أبويه الحانيين الواعيين وصحبة أخواته وأخيه، وكان من المتعة أيضًا أن يستطيع الذهاب إلى الجامعة. وكان يُحب الغرفة التي حصل عليها في كلية القديس توماس، تلك الغرفة التي تُطل على الحديقة الهادئة المسوَّرة وأشجارها الوارفة الظلال، وقد أصبحت دراساته فيها الآن أشبه بلعبة يدبِّر لكل منها ويستَعِد لها، كما كان يفعل. وفكَّر أيضًا في الأمسيات السعيدة التي قضاها مع إرنست مونش عازف الأرغن يتمرَّنان على عددٍ وافر من قصائد باخ الغنائية ويتحدَّثان عن الطريقة التي ارتأيا أن يؤديا بها هذه القصائد. وعادت المسألة المعهودة فتمثَّلت له حين مرَّت هذه الأفكار برأسه: تُرى هل كان من حقه أن ينعم بهذه السعادة؟ وأحسَّ الآن بالإحساس نفسه الذي أحسَّ به وهو بعدُ طفل حين تبيَّن له أن جورج نيتشيلم لم تكن لتُيسَّر له ما تيسَّر لألبرت في عشائه من حساءٍ دسم. وكانت هذه المسألة كسحابةٍ صغيرة تراود الأفق، وقد كان ألبرت خليقًا أن يشيح بوجهه عن هذه المسألة وينساها إلى حين، ولكنها ظلَّت ماثلةً هنالك هي هي بعينها، تنمو رويدًا رويدًا وتقترب شيئًا فشيئًا، وأدرك أخيرًا أنه لم يعد يستطيع أن يتجاهلها. وما دام في العالم أناس يعانون الألم والحاجة فإنه لا يكفيه أن يتقبَّل سعادته وكمال عافيته دون أن يفكِّر أي تفكير في الآخرين؛ فقد كان ينعم بقوةٍ تُمده بقدرةٍ على العمل والدرس ليلًا ونهارًا دون أن يعرف أبدًا كيف يُحس المرء بالتعب. وهنالك أدرك أنه يجب عليه أن يبذل هذه القوة في مساعدة الآخرين. كان قد أعفاه الله من الألم، ومن ثم يجب عليه الآن أن يلتمس وسيلةً يستطيع بها أن يخفِّف عن الآخرين آلامهم، ولا مناص له من أن يتحمَّل نصيبه من شقاء العالم إلى أن يولي ظهره لهذا الشقاء ويعيش لنفسه فحسب، واتضح له ما ظل خافيًا عنه حتى الآن من معاني الكلمات الواردة في التوراة: «ومن وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها.»

وفي ذلك الصباح من شهر يونيو والشمس تميل مخترقةً نوافذ غرفته في البيت استقرَّ ألبرت شفيتزر على أمرٍ أصبح فيصلًا في حياته، وكان آنئذٍ في الواحدة والعشرين من عمره، أجل استقرَّ عزمه على أن يُنفق السنوات التسع المقبلة من حياته حتى يبلغ الثلاثين من عمره في عمل ما يحب: كالمُضي في دراساته في العلوم وفي الموسيقى والعمل قسًّا كأبيه، ثم يتخلَّى عن هذه الأمور ويكرِّس بقية حياته في خدمة البشر على نحوٍ مباشر أكثر ممَّا فعل. ولكنه لم يكن على بينةٍ كيف يفعل هذا بالضبط، وكيف تسير الأمور معه. أما وقد استقرَّ رأيه على هذا القرار الآن فقد أحس في أعماقه بشعورٍ من الطمأنينة والسكينة.

ويندر أن تمر بالمرء في حياته سنوات مزدحمة بالعمل هذا الازدحام، وأن يبلغ في تحقيق رغباته ما بلغ في مثل تلك السنوات التي أعقبت ذلك؛ فقد حصل ألبرت شفيتزر في الامتحان الأول الذي دخله في اللاهوت على منحةٍ علمية أتاحت له أن يمضي في دراساته، فقضى شتاءً في باريس وصَيفًا في برلين، ثم عاد إلى ستراسبورج ليُعد رسالةً ينال بها إجازة الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت جميعًا.

ولم ترقَ الدرجات التي حصل عليها قط إلى مرتبة الدرجات العليا في أي فصلٍ من الفصول التي درس فيها، ولكنه كان قد أوتي ذلك الطراز من العقل المتطلِّع الذي يغوص به في أعماق أي موضوع مستخرجًا الحلول لنفسه بدلًا من أن يتقبَّل أي قول مقرَّر ورد في كتاب، فإذا وقع على أية إشارة إلى نظريةٍ قال بها فيلسوف بعينه عاش منذ أمدٍ بعيد، أو صادف أي شيء حول كتابات شخص غامض عدا عليه النسيان، لم يقنع حتى يعود إليه ويرجع إلى الأصل ليكوِّن فيه رأيه، وأحسَّ بأن الواجب يقتضيه أن يقرأ أمهات الكتب في الفلسفة القديمة والحديثة.

وكانت كل واردة من المعرفة تقود إلى أخرى فيقوده تطلُّعه إلى المُضي في البحث عن المزيد. وقد كُلِّف كل طالب من طلاب اللاهوت أن يكتب عن موضوع العشاء السري، فرجع ألبرت إلى النص اليوناني للتوراة وإلى كل كتاب استطاع أن يجده عن الأناجيل وإلى كل مؤلَّف يتحدث عن حياة المسيح، ولم يقنع بهذا بل درس أيضًا عادات وأساليب القوم الذين عاشوا في الزمن الذي عاش فيه المسيح، وبدأ يفسِّر بعض فقراتها على طريقته ولو كان تفسيره يختلف عن العقائد التي كان مُسلَّمًا بها في أيامه.

لقد كان يؤدِّي تلك السنين عملَ ثلاثة رجال بفضل الاتجاهات الثلاثة التي انتهجها في حياته العملية، فلمَّا حصل على إجازته عُين ناظرًا للكلية اللاهوتية التي الْتحق بها طالبًا، وخُصص له فيها سكن جديد، ولكنه ظل يحتفظ بالغرفة القديمة التي أحبَّها مكتبًا له،

وكان يستطيع من هذه الغرفة أن يُطل على نهر إيل الوادع، حيث كان الأطفال ذوو الخدود المورَّدة يلعبون وقد أمسك بعضهم بذيل بعض، بين أشجار الحور على ضفاف النهر، أو يمضون في الألعاب الخشنة على طول المنحدرات المعشبة. وكان يتراءى على بُعد قليل من الكلية فيما وراء الجانب الآخر من النهر السقفُ الشديد الانحدار لكنيسة القديس نيقولا الصغير، بطبقاتها الثلاث من القُمرات، وكانت هذه الكنيسة هي التي كان يتولى فيها عمه الذي سُمي باسمه ألبرت شيلينجر منصب القس، وكان ألبرت الآن قد أصبح هو أيضًا من قساوستها. وكان سيره من الكلية إلى الكنيسة نزهةً بهيجة على الأقدام، يمضي فيها مسايرًا ضفة النهر إلى الجامعة، حيث كان يُلقي محاضرات في الفلسفة، وكانت تقوم غير بعيد من الجامعة كنيسة القديس وليم، حيث كان يعزف على الأرغن كونشيرتات باخ.

وكانت الحياة في نظره تلك الأيام بهيجةً هادئة، وإن كانت زاخرةً حافلة بالأشياء التي كان يفضِّل أن يؤدِّيها دون سائر الأشياء، وكان لا يزال يحتفظ بعافيته وقوته ونشاطه التي عُهدت فيه أيام التحصيل، وما أكثر الليالي التي ظلَّت فيها المصابيح مشتعلةً في حجرة مذاكرته وهو طالب، تلك الحجرة التي اتخذها من بعدُ مكتبًا له. أجل كانت هذه المصابيح تظل مشتعلةً بعد أن تخلد بقية الغرف في بيوت المدينة إلى الظلام، وكان يُعِد في هذه الحجرة محاضراته وعِظاته، فضلًا عن الواجبات التي كانت موكولةً إليه بوصفه ناظر الكلية. وقد وجد بعد ذلك فسحةً من الوقت يُضيف بها عملًا آخر إلى حياته العملية ألَا وهو الكتابة.

وكان قد ورث عن جده حبَّه للأرغن وتطلُّعه إلى معرفة كيف يصنع، وكان أيضًا مثل جده يبعد في كثيرٍ من الأحيان عن سبيله، ويُسرف في ذلك ليرى أرغنًا جديدًا وهو يصنع، ويتبيَّن كيف تصدر عنه تلك النغمات المختلفة — وقد أدَّى به ذلك إلى كتابة مقال سماه «فن صناعة الأرغن والعزف عليه في ألمانيا وفرنسا».

وكان تشارلس فيدور عازف الأرغن الذي درس عليه في باريس هو الذي شجَّعه على ذلك، وكانا قد أصبحا صديقَين حميمين. وجرى ألبرت في زياراته في كثيرٍ من الأحيان لباريس أن يجلس معه ساعات طوالًا في مطعم صغير بالقرب من استوديو فيدور، ويتحدثان عن باخ، وعن الطريقة التي يجب أن تُعزف بها موسيقاه. وقد اتفق رأياهما على أن آلات الأرغن الحديثة كانت أعظم إحكامًا، وأنه قد روعي في صنعها كبر الحجم، ولكن باخ كان قد كتب موسيقاه لتُعزف بتلك المفاتيح التي كانت تتحرك ببطء، وتحتاج من العازف إلى أن يضغط عليها ضغطًا قويًّا ثابتًا، ثم إن هذه الآلات الجديدة لم تكن قد صُنعت كالآلات القديمة

صناعةً تنطوي على حب هذه الآلة والحدب عليها. وكانت موسيقى باخ تفقد الكثير حين تعزفها فرق الموسيقى الضخمة وجماهير المرتلين الحاشدة.

وألَّف ألبرت بعد هذا المقال عن آلات الأرغن كتابًا أسماه «باخ الشاعر الموسيقار»، وكان يُعِد أيضًا العدة لكتاب آخر يودع فيه نتيجة بحثه لحياة المسيح. وكانت تتناثر في الزوايا الملاصقة للجدران وبين قطع الأثاث في مكتب ألبرت شفيتزر أكوامٌ من جميع الكتب التي استطاع ألبرت أن يجدها في دُور الكتب العامة وفي المكتبات عن يسوع، وكان كل كوم من هذه الأكوام من الكتب مفرَدًا لفصلٍ قائم بذاته من فصول الكتاب الذي أعد العدة لكتابته، ولم يشأ أن يُزعجه أحدٌ حتى يُتم ذلك الفصل. وكان الأصدقاء الذين يُقبلون لزيارته لا يجدون مناصًا من أن يُحاذروا في خطوهم من فراغٍ في حجرة الكتب إلى فراغٍ آخر، سائرين بين الكتب التي تدور حول السِّيَر الأسطورية الأولى للمسيح، ثم السِّيَر المتحرِّرة، ثم السِّيَر التي تعتمد على الخيال، ثم السِّير المتشكِّكة حتى يبلغوا أحدث ما كُتب عن المسيح في القرن التاسع عشر.

وكانت تعاود ألبرت في غمرة هذه الحياة الزاخرة بالعمل ذكرى العهد الذي قطعه على نفسه وهو بعدُ في سن الواحدة والعشرين كأنها لحنٌ يتردَّد في سيمفونية، أجل فقد كان ألبرت قد نذر حين يبلغ الثلاثين أن يتخلَّى عن هذه الأمور، وأن يكرِّس حياته لخدمة إخوانه في الإنسانية. ولم يكن قد دار بخَلَده أنه سوف ينهض بهذا العمل في أي مكان آخر غير الألزاس بالقرب من داره؛ فقد كان في ستراسبورج أطفال مُشرَّدون منبوذون يحتاجون إلى العون والمساعدة، وكان ثمة أيضًا طوائف من عابري السبيل يهيمون على وجوههم بلا مأوًى من مكانٍ إلى مكان، وأناسٌ لفظتهم السجون يحتاجون إلى التشجيع لهدايتهم إلى سبيل لحياةٍ جديدة.

وكان ألبرت وهو بعدُ طالبٌ قد خطا خطوةً في هذا العمل؛ ذلك أنه كان قد الْتحق هو وغيره من الطلاب بمؤسسة تقوم بالخدمة الاجتماعية، وراحوا يطوفون هنا وهناك يطلبون الهبات من الأثرياء الذين يستطيعون أن يبذلوا ممَّا تيسَّر لهم. وكان هذا العمل في أوله باعثًا على العذاب بالنسبة لشابٍّ حييٍّ رقيق المشاعر، ولكنه كان يستأهل أي حرج كان يُحس به حين يزور أُسر الفقراء ويلمس ما هم فيه من حاجةٍ وعوز.

ولعل ألبرت كان يرى أنه يخدم الإنسانية قدر الكفاية بتوليه عمل القس؛ ذلك أن عظاته كانت تُلقَى بالبساطة والصدق اللذين أُعجِب بهما في أبيه. وكان إذ يهدي الشباب بغية تثبيت إيمانهم، يذكر أيام تحصيله في مول هاوس ويُدرك أن كلامه كان يتغلغل

في قلوب الفتيان والفتيات أكثر ممَّا يظهر على وجوههم؛ فقد كان هؤلاء يُحِسون بحدبه وحنانه وتفهُّمه للأمور، ويثقون فيه عالمين أنهم يستطيعون أن يلجئوا إليه في أي مشكلةٍ من المشاكل التي تعترضهم.

ولم يكن هذا كل ما كان يدور بخَلَد ألبرت حين قطع على نفسه العهد الذي قطع في ذلك الصباح من شهر يونيو، وهو في الواحدة والعشرين من عمره، وها هو ذا يقترب الآن من الثلاثين، ولم يستقر بعدُ على نوع العمل بالضبط الذي سوف ينهض به، وكان مثله في ذلك مثل رجل رأى نورًا يتألَّق على البعد خلال غبشة الظلام، فمضى يتحسَّس الطريق إليه موقنًا أنه سوف يجد هنالك الشيء الذي كان يبحث عنه.

ولم يجد هذا النور ويعلم ما سوف يفعله إلا عندما حلَّ الخريف من هذا العام قبل أن تبلغ سِنه الثلاثين بأشهرٍ قلائل؛ ذلك أن بعضهم كان قد وضع على المائدة التي يكتب عليها ألبرت نشرةً صغيرة غلافها أخضر، وقد وقع عليها ألبرت هناك بين كتبه وأدواته، وكانت هذه النشرة تُوزِّعها جمعية البعثة الدينية في باريس كل شهر، وهي من نوع النشرات التي كثيرًا ما رآها وقرأها. وتوقف ألبرت عن العمل في أخريات ذلك المساء ومضى يقلِّب أوراق النشرة، وإذا بعينه تقع صدفةً على عنوان مقال نصه: «حاجات بعثة الكونغو الدينية»، وارتدَّت به الذكريات إلى المقالات التي كتبها لهذه النشرة المبعوث الديني كازاليس، تلك المقالات التي كان قد قرأها أبوه منذ وقت طويل في الصلوات التي كان يُتمها في أوقات العصر من أيام الأحد بجونسباخ. وكان هذا المقال يتحدَّث عن تلك الحاجة المعهودة إلى عاملين يعملون في أفريقيا، مما كتب في التنويه كازاليس منذ قرن مضى. وقد وصف كاتب هذا المقال، وهو رجل ألزاسي، حالة إقليم جابون، وهو أقصى الأقاليم في المستعمرة الفرنسية القريبة من خط الاستواء في أفريقيا، وجَّه فيه الدعوة إلى أولئك القادرين على أن يتطوَّعوا لسد هذه الحاجة الملحة:

> «إن الرجال والنساء الذين يستطيعون أن يُلبوا عن طواعيةٍ واختيار نداء الرب قائلين: رباه! إني ملبٍّ نداءك. أولئك هم القوم الذين تحتاج إليهم الكنيسة.»

وقرأ ألبرت هذا المقال إلى آخر جملة فيه، ثم طرح النشرة جانبًا في هدوءٍ ومضى في العمل الذي بين يديه، وهنالك انتهى بحثه عمَّا سوف يقوم به من عمل، وعقد عزمه على أمر وكأنما كان هذا الأمر شيئًا قد عرفه في جميع ما مضى من حياته، شيئًا فوق الكلمات وفوق الأفكار، ولكنه يُحَس في شَغاف القلب.

وظلَّ ألبرت ماضيًا في عمله في الأشهر القليلة التالية كأنما لم يمرَّ به حادث، وأخذ يعظ في كنيسة القديس نيقولاس الصغيرة، ويهدي الناسَ إلى ما يثبِّت إيمانهم، وراح يحاضر في الجامعة ويعمل في بحثه متغلغلًا في حياة المسيح. وكان في كثير من الأحيان إذا وجد ساعةً من فراغ بالنهار أو بالليل شَخَص بهدوء إلى كنيسة القديس وليم، وانبعث يعزف على الأرغن مستغرقًا في موسيقى باخ وغيره من الملحِّنين الذين كان يُعجَب بهم.

وكانت قد صنعت له في تلك الأيام الفنانة الشابة أدا فون إيرلاخ صورة، وكانت هذه الفنانة وهنانةً ضعيفة من أثر جراحة كانت قد أُجريت لها وشيكًا، ورجا ألبرت أنَّ صُنْع هذه الصورة كفيلٌ بأن يشغلها فتبدأ في الإحساس بعافيتها تعود إليها. وتمَّت الصورة في اليوم الرابع عشر من يناير الذي كان يوافق يوم ميلاده الثلاثين، وكان الشبه بينه وبين الصورة ممَّا يسهل ملاحظته على صفحتها التي تمثَّل فيها شَعره الأسود وشاربه الخشن وكتفاه العريضتان وعيناه الحادتان النافذتان، وإن كان يشوبهما سمة الرجل الحالم، ولكن أدا فون إيرلاخ — تلك الفنانة التي فطنت لكل ثنية وكل ظل يكشف عن أقل لمحة من تعبيرات وجهه — لم يَطُف بمخيلتها إلا قليلًا ما كان يدور في عقل ألبرت شفيتزر آنئذٍ من أفكار؛ ذلك أنه لم يكن قد تحدَّث إلى أحد بخططه، ولكن حياته القديمة بعدُ ومنذ ذلك اليوم كانت قد انتهت، وبدأ صفحة حياة جديدة.

الفصل السادس

«ما من أحدٍ يجاهد دائمًا للسمو بخلقه يُخشى عليه أبدًا أن يسلبه سالب من مثله؛ لأنه يَخبُر في أعماقه قوة الأفكار التي تدعو إلى الخير والحق.»

من كتابه: «ذكريات الطفولة والشباب»

في يومٍ رطيب يغشاه الضباب من أواخر شهر أكتوبر من ذلك العام نفسه، رأى الطلبة الشبان في فصل التشريح رجلًا في الثلاثين من عمره يُقبل على قاعدة الدرس ويأخذ مكانه طالبًا مستجدًّا بينهم. وكان رجلًا طويل القامة، متين البنيان، أسود الشعر، أشعثه، وله شارب من ذلك الطراز الكثيف الخشن الذي كان سائدًا بين الرجال في ذلك العهد. وكانت عيناه العسليتان تتميزان بوميضٍ يأنس فيه المرء إقبالًا على السرور والمودة، وإن كان يشوب ما تنُمَّان عنه من تعبيرٍ شيء آخر، كان يجعله متفرِّدًا عن بقية الطلاب في الدرس.

وربما كان بعض الطلاب قد رأوا فيه أنه هو الأستاذ الذي يحاضر في الفلسفة بالجامعة، ولعل بعضهم الآخر كان قد سمع عِظاته في كنيسة القديس نيقولاس المجاورة لنهر إيل، أو لعلهم كانوا قد عرفوه ناظرًا للكلية وسمعه أولئك الذين كانوا يحبُّون الموسيقى يعزف الأرغن في كونشيرتات بكنيسة القديس وليم المجاورة.

ولكنهم عجبوا: ما الذي كان يفعله هنا؟ وما الذي حمله على البدء طالبًا مستجدًّا في هذا الفصل الذي يدرس التشريح؟ وكانوا يرَونه ثانيةً في الفصول الأخرى في دروس علم وظائف الأعضاء، والكيمياء، والطبيعة، وعلم الحيوان، وعلم النبات، يستمع إلى المحاضرات ويدوِّن المذكرات كما يفعلون. وتساءلوا: ما باله يفعل ذلك؟

ولم يكن الطلبة هم وحدهم الذين سألوا هذا السؤال، بل إن عميد مدرسة الطب نفسه وأساتذة قسم الفلسفة، وكل من عداهم من أصدقاء ألبرت شفيتزر كانوا يسألون

هذا السؤال نفسه: ما الذي يحمل رجلًا قد حصل بالفعل على درجة الدكتوراه في اللاهوت ودرجة الدكتوراه في الفلسفة، وأقبل الناس إقبالًا شديدًا على الكتاب الذي أصدره بالفرنسية وشيكًا بعنوان: «باخ الشاعر الموسيقار»، حتى ظهرت الحاجة آنئذٍ إلى إصدار نسخة منه بالألمانية أيضًا، وكذلك اشتدَّ إقبال القراء على قراءة مقاله عن آلات الأرغن، أجل ما الذي حمل هذا الرجل على أن يقدَم إلى هنا طالبًا مستجدًّا يشرع في تلقي منهج الطب الطويل الشاق؟

ولم يكن هذا الذي فعله ألبرت بالقرار الهين الذي يستقر عزم المرء عليه، وكان حَريًّا به أن ينظر نافد الصبر إلى تلك الفسحة من السنين التي تنتظره حين يقتضيه الأمر أن يُعِد نفسه للعمل الذي فرض على نفسه أن ينهض به، ولكنه كان قد آمن بأن الناس سوف يفهمون الأسباب التي حملته على ذلك. وكان قد كتب من باريس حيث شخص في ذلك الصيف رسائل إلى أقربائه، وإلى عددٍ قليل من أصدقائه الحميمين ينبئهم بعزمه على البدء في دراسة الطب حتى يستطيع أن يمد يد العون إلى أهل أفريقيا الذين هم في أشد الحاجة إليه.

فعجبوا لذلك قائلين: ولكن ما الذي يدفع رجلًا في مثل قدرتك ينتظره هذا المستقبل المأمول إلى أن يُلقي بكل ذلك، ويرحل بعيدًا إلى أدغال أفريقيا؟

فيردون على أنفسهم قائلين: أي نعم، ذلك أنهم أدركوا أن القوم هنالك كانوا يقاسون من المجاعة والمرض والألم، وربما كانت حاجة هذه الأصقاع إلى العون أشد من أي مكانٍ آخر في العالم.

ولكن ما الذي يقتضي أن تكون أنت الشخص الذي يذهب إلى هناك، ولمَ لا تترك هذا العمل إلى الآخرين الذين ليس لديهم ما يُضحُّون به مثل ما لديك؟

وسأل أحدهم: أليس في وسعك أن تؤدِّي من الخدمات ما يفوق ذلك بإقامتك هنا وإلقاء محاضرات تجمع بها المال من أجلهم؟

بل إن الموسيقي فيدور الذي أحبَّ ألبرت حب الأب لابنه كان يشبِّهه بقائد يود أن يمضي إلى خط النار بنفسه، ورجاه أن يفكِّر في الأمر مليًّا قبل أن يستقر على مثل هذا القرار. وراح آخرون لم تبلغ الرحمة عندهم مثلما بلغت عند فيدور يؤمنون بأن وراء ذلك دافعًا خفيًّا من قبيل الشعور بالخيبة؛ لأن ألبرت لم تُواتِه الشهرة بالسرعة التي كان يرجوها، وإن كانوا قد أدركوا بلا شك أن ما ذهبوا إليه لا يمكن أن يكون صحيحًا؛ فقد كان ألبرت قد نجح في أن يجعل له اسمًا معروفًا بين الناس بفضل كونشيرتاته التي كان

يعزفها والمحاضرات التي كان يلقيها، والكتابات التي كان يدبِّجها قلمه. بل إن من الناس من تحيَّر في الأمر وتساءل: أثمة حب فاشل هو الذي دفعه إلى هذا القرار؟ وتملَّك الشابَّ شفيتزر العجبُ كيف ذهب القوم في تعليل القرار الذي انتهى إليه كلَّ مذهب إلا المذهب الصحيح.

فلم يكن الأمر الذي اختار ألبرت أن يفعله شيئًا غير عادي في نظره؛ ذلك أنه لم يكن يفكِّر في التضحية أو البطولة، وإنما كان قد أدرك أنه واجب، قال بينه وبين نفسه إنه يجب أن يؤدى في حماسةٍ معقولة. وكان هذا بالذات هو شأن سمعان وأندراوس حين استجابا لنداء المسيح وهو يسير على شاطئ بحر الجليل: «فللوقت تركا الشباك وتبعاه.»

وقد أحس ألبرت بسعادةٍ عجيبة وهو ينظر إلى هذا الأمر نظرةً بعيدة عن فكرة التضحية؛ ذلك أنه كان قد توافرت له العافية والأعصاب السليمة والنشاط والحس الفطري العملي وشدة المراس والحرص، كما أن حاجاته كانت قليلةً جدًّا لا يطلب شيئًا إلا بمقدار ما يُعينه على أداء مثل هذا العمل الذي اختاره فحسب. وراح يفكِّر في ذلك العدد الكثير من الآخرين الذين كان لديهم بلا شك الحافز نفسه في اتباع ذلك اللون من الحياة الذي اختاره هو، وإن كانوا قد اضطُروا إلى القعود عنه لاضمحلال صحتهم أو لمسئوليةٍ يشعرون بها تجاه آخرين اعتمدوا عليهم في معاشهم.

وحاول ألبرت أن يشرح هذه الأسباب للناس، على الرغم مما فُطر عليه من تحفُّظٍ في إظهار ما يُحس به في أعماقه، وبدا له أن هؤلاء الناس يحاولون أن يقتحموا جميع المغاليق والحُجب التي تستر نفسه، ويكشفون عنها، وكأنما كانوا يدقون المعاول في قلبه، وكان أقل ما يكون استنكارًا لأولئك الذين كانوا يعاكسونه في رحمةٍ قائلين: إنه رجلٌ شاب لامع وإن كان قد مسَّت عقلَه لوثةٌ خفيفة.

وقال ألبرت بينه وبين نفسه: «لا عليَّ؛ فإن مثل هذه الأمور لا بد أن تحدث.»

ولم يكن ثمة جدوى من إظهار الغضب، وراح يعلِّل ذلك قائلًا: ما الذي يدعو رجلًا وقف نفسه على عدم فعل شيء ذي قيمة أن ينتظر من الآخرين أن يرفعوا الأحجار عن طريقه، ولو أنهم ألقَوا في طريقه بمزيد قليل من الحجارة لكان من الخير له أن يتقبل الأمر في هدوء؛ لأن هذه العقبات نفسها خليقة بأن تمنحه القوة اللازمة لاقتحام هذا الطريق.

ومضى ألبرت في سبيله بذلك العناد المأثور من الألزاسيين؛ ذلك أنه كان يعرف الطريق الذي يسير فيه، وما من شيءٍ كان يستطيع أن يحوله عنه. صحيح أنه كان في بعض الأحيان يمد بصره إلى سنوات العمل والإعداد الطوال التي كانت تنتظره فيشعر باليأس

ونفاد الصبر، إلا أنه كان يبادر فيفكر في هانيال وهاملكار اللذين كانا قد أعدا العدة للزحف على روما متوسلَين إلى ذلك بغزوهم البطيء الشاق لإسبانيا.

وأحس ألبرت أكثر مما أحس من قبلُ بأن الأمر يقتضيه أن يرسم خطةً لإنفاق أيامه ولياليه، حتى تتهيأ له فسحة من الوقت يستطيع أن يؤدي فيها كل ما كان عليه أن يؤديه، وبدأ أولًا يتبين في نفسه حالةَ من يحس بالتعب، فأخذ يحارب الإعياء حربًا لا هوادة فيها، وكان في أيام التحصيل يواتيه الدرس بالفطرة؛ لأنه خرج من أسرةٍ من الموسيقيين والقساوسة، فشب وترعرع في هذا الجو، ولكنه ألفى نفسه فيما يتعلق بدراسة الطب في عالمٍ آخر يقتضيه أن يتعلم ليُكيف نفسه بالظروف الجديدة؛ ذلك أنه كان في الفلسفة وفي التاريخ، وهما المادتان اللتان كانتا من أيسر العلوم عليه، لا يجد حدًّا للحجج التي تُساق في تأييد بعض الأقوال أو تفنيدها، وكثيرًا ما كان الجواب الصحيح لا يستطيع أن يعلمه أحد أبدًا. أما في علمَي الكيمياء والطبيعة فإن كل قول لا مناص من إثباته. وكان ألبرت — كشأنه دائمًا — إذا بدا له شيء عسير اتخذ حياله موقفًا يشبه التحدي، ويصبح البحث عن حلٍّ له رياضةً لديه، وكما أن سمعان وأندراوس ويعقوب ويوحنا قد غادروا السفينة حيث كانوا يُصلحون شباكهم حين ناداهم المسيح، كذلك ترك ألبرت شفيتزر حياته الأولى المألوفة إلى حياته الجديدة، فاستقال من منصب ناظر الكلية اللاهوتية وترك المكان الذي عاش فيه مذ كان طالبًا. وفي يوم ثلاثاء الغفران، وكان يومًا مطيرًا، ساعده الطلبة على الانتقال إلى غرفٍ في الطبقة العليا من بيت رأس الكنيسة اللوثرية في الألزاس، وكان نور المصباح يتألق من نوافذ هذه الغرف في بعض الأحيان الليل بطوله. وفي صبيحة اليوم التالي خرج ألبرت شفيتزر ليحضر دروسه في الطب، ويلقي محاضراته في الفلسفة بالجامعة، مع أن النوم لم يكن قد زار جفونه إلا لِمامًا في الليلة السابقة. وكان في هذه الأيام حين يفرغ من الدروس يجد نفسه وقد وقف في كنيسة القديس وليم ليتجاذب أطراف الحديث مع إرنست مونش عازف الأرغن وليعزف على الأرغن بنفسه، وما إن يقضي ساعةً في عزف موسيقى باخ حتى يحس بالسكينة والاطمئنان بفضل قدرة مقطوعات هذا الموسيقار العظيم على شفاء النفس.

وأخذ ألبرت في هذا الحي الذي يقوم فيه سكنه الجديد يروح ويغدو كأنما كان واحدًا من هذه الأسرة. وكان إذا وجد في بعض الأحيان ساعةً يستطيع أن يخلو فيها من عمله اليومي الزاخر بالنشاط، جلس إلى البيانو ليعزف للكونتيس فون إيرلاخ العجوز، التي كانت تعيش هناك هي وبناتها الثلاث وزوج ابنتها. وكانت هذه الكونتيس تعشق

الموسيقى عشقًا وأخذت تُحس بعدُ، وقد طعنت في السن ووهنت قواها وأصبحت عاجزةً عن الحركة في يسر، أنها تفتقد أكثر من أي شيء آخر الكونشيرتات التي كانت قد ذهبت للاستماع إليها مرة. وكانت تُحب التحدُّث عن الأيام الخالية وعن الأمور التي وقعت منذ وقتٍ طويل، وعن الناس الذين عرفتهم حين كانت تعيش في بيت أخت الإمبراطور فردريك الغرندوقة لويز أميرة بادن.

وقد حدث مرةً أن سار بها الشاب شفيتزر إلى نافذة غرفتها لأنها كانت عاجزةً عن أن تسير وحدها، سار بها إلى حيث يستطيعان أن يُطلا من هذه النافذة ويريا أول طائرة طارت محلِّقةً فوق ستراسبورج، وعَجِبا من الطريقة التي طارت بها مسفةً وهي تمر بالبيت، ثم مرقت صاعدةً في طبقات الجو حتى اختفت عن الأنظار.

وقالت الكونتيس العجوز: ما أعجب الحياة التي عشتها! فقد رحت في شبابي أتناقش في اسم الفاعل واسم المفعول مع ألكسندر فون هامبولت، وها أنا ذا الآن أشهد الإنسان وهو يغزو الفضاء.

وكانت تحب أن تتحدث عن عمها الذي كان ضابطًا في خدمة المستعمرات الهولندية، وتقول عنه إنه لم يُصَب بالحمى طوال السنين التي قضاها في المناطق الحارة.

ومضت تقول: ذلك أنه كان يلبس دائمًا خوذة، وأنك إذا ذهبت إلى أفريقيا فلا مناص لك من أن تتعهَّد بألَّا تخرج من بيتك أبدًا عاري الرأس بالنهار حتى بعد أن تغرب الشمس.

وقد اضطُر ألبرت إلى أن يصارع الظروف المالية التي ألَّمت به في أوائل عهده بالدروس الطبية؛ ذلك أن المصدر الأكبر لموارده المالية كان قد انقطع بعد استقالته من منصب ناظر الكلية اللاهوتية، ولكن شهرة ألبرت شفيتزر كانت قد نمت في الموسيقى وفي الكتابة، وكأنما كان حاله حال من مُدت له أسباب الإغراء لتفتنه عن ذلك الأسلوب من الحياة الذي كان قد اعتزمه لنفسه. وكان ألبرت وهو في باريس قد ألَّف هو وستة آخرون من الموسيقيين جمعية أنصار باخ، وها هو ذا الآن قد طُلب منه أن يعزف كونشيرتات، لا في باريس فحسب، بل في غيرها أيضًا من أرجاء فرنسا، وكذلك في ألمانيا، وفي إسبانيا حيث عزف أمام الملك والملكة في مدريد. وكان كتابه الأخير: «البحث عن المسيح في ضوء التاريخ» قد أقبل عليه القراء إقبالًا عظيمًا، وأثنى عليه الكاثوليك والبروتستانت على السواء، واستُقبلت النسخة الألمانية من هذا الكتاب استقبالًا حسنًا.

وكان ألبرت قد أوتي الموهبة على الصداقة، فكان أولئك الذين يلقَونه بل أولئك الذين لم يعرفوه إلا من كتاباته يُحِسون بالفطرة صدقه وعظمة روحه. وانضم أصدقاء جدد

إلى أصدقائه القدماء الذين ظلَّ ألبرت دائمًا مقيمًا على الولاء لهم، وكان من أولئك كوزيما فاجنر أرملة الموسيقار المعروف فاجنر وولداها رومان رولان الكاتب ولويس ميليه وغيرهما من كُتاب العصر وموسيقييه.

وقد كتبت كارمن سلفا ملكة رومانيا تثني على ألبرت لأنه زاد من معزتها لموسيقيها المحبب باخ، ودعته إلى قضاء أيام عطلته في قصرها حيث لا يكون أمامه من عملٍ إلا أن يعزف على الأرغن ساعةً أو نحوها كل يوم من أجلها، ولكن أيامه كانت مشحونةً بالعمل إلى حد أنه لم يكن ليجد فسحةً من الوقت للعطلات.

وكان من بين الأصدقاء الجدد أيضًا هيلين بريسلاو الابنة الشابة الجميلة لأحد أساتذة التاريخ في جامعة ستراسبورج. وكانت هذه الفتاة نفسها أيضًا طالبةً بهذه الجامعة، كما كانت تفهم وتقدِّر ما استقرَّ عليه ألبرت شفيتزر من قرار.

ودخل ألبرت امتحانه الأخير في الأسبوع السابق على ميلاد المسيح سنة ١٩١١م؛ أي بُعيد سبع سنين من بلوغه سن الثلاثين.

ولم يكن يدري وهو خارجٌ في الظلام الذي يغشى الجو في مستهل الشتاء هل كان هذا الأمر شيئًا واقعًا أم كان يحلم بأن ذلك الوقت الطويل الذي قضاه في الاستعداد قد انتهى وأصبح الهدف قريبًا يراه رأي العين. وسار الأستاذ الجراح الذي امتحنه بجواره وراح يقول له مرارًا وتكرارًا وكأنما صوته يترامى إلى الأسماع من بعيد: «إنك لن تستطيع أن تتغلب على كل هذا إلا بفضل ما تنعم به من صحةٍ سابغة.»

وكانت السنة التي تلت ذلك حافلةً بالمشاعر المختلطة؛ ذلك أن ألبرت كان قد تأهَّب أو كاد للبدء في حياته الجديدة، ولكن كان أمامه تلك الفسحة الأخيرة التي يودِّع فيها حياته الأولى، فتخلى عن المحاضرات التي كان يلقيها في الجامعة وترك منصبه، منصب القس في كنيسة القديس نيقولاس، وأحس بطائفٍ من الحزن لمجرد التفكير بأنه سوف يكف أبدًا عن التدريس، وسوف ينقطع دوامًا عن الوعظ. وشخص إلى باريس ليتولى العمل في المستشفى ويزداد درسًا لطب المناطق الحارة. وقد كان أيضًا من الخير له آنئذٍ أن يقطع صلته بستراسبورج؛ ذلك أنه كان يعلم أنه خليق بأن يستشعر الألم والأسى في كل مرة يمر فيها بالكنيسة الصغيرة الكائنة بجوار نهر إيل، أو يتطلع إلى نوافذ حجرة المحاضرات الأخرى القائمة إلى الشرق من مدخل بناء الجامعة الكبير.

وكانت هيلين بريسلاو في هذه الأثناء تُعِد نفسها أيضًا لهذه الحياة الجديدة، ذلك أنهما كانا قد اعتزما الزواج في يونيو المقبل حين يعود الدكتور ألبرت إلى ستراسبورج،

وكانت خير معين له في جميع مخطوطاته وتصحيح تجارب الطبع الخاصة بكتبه، وها هي ذي الآن بدأت تتدرَّب لتُصبح ممرضةً تعينه على عمله في أفريقيا.

وكان شهر العسل بالنسبة لهما حافلًا بالمشاغل؛ فقد كان أمامهما أعمال كثيرة لا مناص من أدائها، وكان الوقت الذي تحدَّد لرحيلهما يقترب، وقضيا الأشهر الباقية في جونسباخ في البيت مع والدي ألبرت.

وقام الزوجان بعدة رحلات من جونسباخ ليشتريا مئونتهما ويؤدي ألبرت كونشيرتاته الأخيرة، ولكن كان يطيب له دائمًا أن يعود إلى تلك القرية الهادئة الآمنة التي شهدت ملاعب صباه، وأن ينعم بالإقامة مع أسرته، ويعود إلى رؤية أصدقائه الذين شبَّ وترعرع معهم.

وفي أقل من عام جمع ألبرت ما يكفيه من مالٍ بفضل الكونشيرتات التي عزفها والمحاضرات التي ألقاها، وبفضل ما أبداه أصدقاؤه من جودٍ وسخاء، واستطاع بهذا المال أن يُقيم مستشفًى في أدغال أفريقيا ويُنفق عليه ويكفل بقاءه سنتين.

وساهم في ذلك أيضًا جمهور المصلين الذين كانوا يؤمِّنون كنيسته الصغيرة، كنيسة القديس نيقولاس، كما كان لزملاء الدكتور ألبرت من أساتذة الجامعة نصيب في ذلك أيضًا.

وانتهت أخيرًا المتاعب المنهِكة التي لقياها وهما ماضيان أيامًا بطولها يشتريان ما يحتاجان إليه ويطلبان ما يريدان بالاعتماد على القوائم التي تُصدرها محلات البيع. وامتلأ سبعون صندوقًا من صناديق الشحن وأُغلقت أغطيتها بإحكام، ووُضعت على كل صندوق قائمة مفصَّلة بما يحتويه من عقاقيرَ وضمادات وجميع المواد اللازمة لإقامة مستشفًى من العدم. واشتُريت تذكرتان للسفر على الباخرة حتى ثغر جنتيل في أفريقيا الفرنسية الاستوائية.

الفصل السابع

«ليس في الخلق من أحدٍ يستطيع أن يعيش غريبًا عن الناس كل الغربة، وأن يقيم على ذلك إلى ما شاء الله؛ فالناس للناس، ولكل إنسانٍ حقوق على أخيه الإنسان.»

من كتابه: «ذكريات الطفولة والشباب»

ودُقَّت أجراس الكنيسة في قرية جونسباخ داعيةً إلى صلوات العصر من يوم الجمعة الحزينة سنة ١٩١٣م، وكان قد مضى اثنان وثلاثون عامًا مذ حمل رنينُها صبيًّا صغيرًا على إلقاء مقلاعه وتفريق الطيور في البستان ليحميها من حجارة رفيقه، وها هو ذا ألبرت شفيتزر يسمعها مرةً أخرى وهو رجل في الأربعين حين راح ينتظر هو وزوجه القطار في المحطة ليمضي بهما في رحلتهما إلى العالم المجهول.

وكانت السنوات التي تخلَّلت ذلك حقبةً طويلة قضاها في استعدادٍ متصل للحياة الجديدة التي كان يواجهها، ولو أنه كان خليقًا بأن يعيها في أول الأمر. وبينما كان صوت الأجراس لا يزال يتردَّد في الوادي، كان القطار المحلي الصغير يبعث صفيره المتصل الحاد الذي يبلغ الأسماع وهو ينعطف في ثنية الطريق مجتازًا الغابات. وتوالت القبلات والتصافح بالأيدي، وكلمات الوداع تلقى في اللحظة الأخيرة من الأقارب والأصدقاء الذين جاءوا لوداعهما. ووقف الطبيب وزوجه على دهليز القطار الخلفي حين استأنف سيره، وألقيا النظرة الأخيرة على أصدقائهما، وعلى القرية التي كانت تغيب عن أنظارهما بسرعة. وكانت قمة برج الكنيسة تشمخ فوق الأشجار الباسقة على جانب، وتمتد على الجانب الآخر جبال الفوج تكتسي في ارتفاعها وانخفاضها باللونين الأسمر والأرجواني، ومن تحتها ينبسط الوادي الأخضر البهيج.

وكانت هذه هي البلاد التي عرفها ألبرت شفيتزر دائمًا وأحبها دائمًا؛ بلاد الحصون القديمة تقوم على جانبَي التل، وحقول الحنطة الخُضر، والكروم المُنَسقة زُرعت في خطوطٍ مستقيمة مستوية، أجل بلاد مشرقة، بلادٌ تتعاقب عليها الفصول في مواسمَ معلومة، بلاد البنفسج الغض العذب والعشب الأصفر في الربيع وزهر الخشخاش في لون اللهيب المتألق وزهر الحنطة الأزرق يتفتَّح في الصيف، بلاد الكروم وحقول الغِلال الذهبية في الخريف، ثم تجف قشور النبات في الشتاء وتنبعث البذور من خلال القرون، ثم يُقبل الربيع مرةً أخرى ويبرز نبت الزعفران من الأرض الرطيبة.

وطاف بألبرت ذلك الطائف المعهود من الحزن الذي كان يُحس به دائمًا حين يولِّي وجهه عن مشهدٍ مألوف عنده أثير لديه. وراح في ستراسبورج يودِّع أصدقاءه القدماء من جديد، وسمع في باريس تشارلس فيدور يعزف في صلوات عيد الفصح على الأرغن القديم الحبيب، أرغن كنيسة سان سوبليسن، وكان في هذا ذكرى مواتية أتاحت لألبرت شفيتزر أن ينفض يديه من فيدور؛ فقد كان يُحس من ذلك اليوم بأن الموسيقى لن يكون لها بعدُ شأن في حياته، أجل كان قد انتهى إلى رأي بأن من الخير له أن يطلِّق الموسيقى إلى غير رجعة، وأن يترك أصابعه تتصلَّب من انقطاعه عن العزف على مفاتيح الأرغن، وكان من شأن مسلكه هذا أنْ يسَّر الأمر عليه.

وكان يوم عيد الفصح بأسره أشبه بحلمٍ رائع خليق بأن يبقى في ذاكرته أمدًا طويلًا. كانت الشمس تشرق ساطعة الضياء، وبدأ الناس وقد مسَّتهم نفحة من البهجة مرتَدِين كشأنهم الحلل التي يرتدونها في الأعياد، وأقبل صوت أجراس الكنيسة على البعد ينساب مع نسيم الربيع الدافئ، وتمثَّل ذلك للزوجين الجالسَين في القطار عصر ذلك اليوم، يطويان الأرض قاصدَين الشاطئ كأنما هو رسالة مفرحة تودِّعهما في الطريق الذي مضيا فيه. ومع ذلك فقد كان يشيع في الجو نذير عجيب، ولاحت أمارات تنبئ بحربٍ مقبلة. وكان الطبيب قد داعبه الأمل في أن يستطيع أن يزيد من أسباب التفاهم بين فرنسا وألمانيا، تَيْنِكَ الدولتين اللتين كانتا تطالبان بالألزاس كما جاهد في سبيل ذلك؛ فقد أحسَّ أنه ما من دولةٍ منهما كانت تريد الحرب فعلًا، وأن المواطنين في الدولتين كانوا يبذلون كل ما في وسعهم للحيلولة دون قيام هذه الحرب، ولكن كان ثمة أشياء بعينها تشد أعصاب الناس شدًّا كإسراع روسيا بإنشاء خطوط حديدية عسكرية تخترق بولندة، وسحب العملة الذهبية من التداول في فرنسا وألمانيا جميعًا، وإصدار أوراق النقد لتحل محلها.

وكانت باخرة الشحن الصغيرة التي تُبحر بين أوروبا وغربي أفريقيا مفلطحة البنيان، حتى تستطيع أن تمضي مصعدةً في نهر الكونغو بعض المسافة، فكانت تتأرجح وتغطس

مع كل حركةٍ من حركات الأمواج مقبلةً مدبرة، تنحرف إلى هذا الجانب حينًا وإلى الجانب الآخر حينًا، كأنها جواد فحل متخطِّر فقد اتزانه.

وانبعث راكب من رُكَّابها يقول متنهِّدًا: وي، إن ذلك هو خليج بسكاي.

واستدرك آخر: لشد ما أتمنَّى أن نكون قد خلَّفنا وراءنا كل أولئك.

وراح ألبرت وهيلين شفيتزر يُنصتان في هدوء، وهما يُحسان من قلة خبرتهما بأنهما أشبه بطيور الوطن المسكينة التي لم تألف الرحلة، وقد وجدَت نفسها وسط سرب من الطيور المهاجرة، وكان الركاب الآخرون من ضباط الجيش والأطباء والموظفين والمدنيين وبعض نسوة عائدات من إجازة قضينها في وطنهن ليلحقن بأزواجهن المقيمين في أفريقيا، كانوا جميعًا من المسافرين ذوي الخبرة، يتحدَّثون حديث العليم بأمواج البحر العالية وعواصفه التي تتقاذف المركب كأنها لعبةٌ في يد طفل، وكان فيهم سمة أولي العزم المكين والنشاط الجم، ومضَوا يتحادثون لا يحفلون إلا قليلًا بالوافدَين الجديدين اللذين كانا يقومان برحلتهما الأولى، وطافت بمخيلة ألبرت شفيتزر ذكرى الدجاجات التي تعوَّدت أمه شراءها من بائعي الفراخ الإيطاليين المتجولين كل صيف لتضيفها إلى أسرابها، وراح يفكِّر كيف أخذت هذه الدجاجات تسير هنا وهناك عدة أيام خجلى مستكينة بين الدجاجات الأقدم منها والتي تفوقها خبرة، ولمَّا انقضى اليوم الثاني على ألبرت في البحر كابد عاصفةً بلغت في شدتها مبلغ أية عاصفة، قص خبرها أكثر المتمرسين خبرةً من الرحالة.

فقد هبَّت في الليل عاصفة شديدة عاتية حتى أخذت الحقائب في القمرة تندفع منزلقةً من جدارٍ إلى جدار مع كل وثبةٍ من وثبات السفينة، وانطلقت صناديق القبعات وراءها منتفضةً كأنها تفر من الأطفال ذوي الشراسة يلعبون، وحاول الطبيب أن يُمسك بها، وأوشك أن يحطِّم ساقه وهو يبذل هذا المجهود، فتخلَّى عن ذلك وعاد إلى سريره المعلَّق حيث رقد يَعُد الثواني التي تمضي بين وثبة السفينة وسقوط الحقائب، وترامى إلى سمعه من القمرات الأخرى أيضًا أصوات أشياء تتصادم في عنفٍ شديد، والأطباق في مطبخ السفينة تصلصل وتتحطم.

ومضت العاصفة تهب ثلاثة أيام وثلاث ليال، دون أن يبدو عليها أمارة من الأمارات التي تنبئ بأن حدتها قد خفَّت. فلما انقضت الليلة الأولى عمل خادم السفينة على ربط الحقائب والصناديق، فكفَّت عن الانزلاق هنا وهناك على أديم القمرة، على أن الطباخين في مطبخ السفينة لم يجسروا على إيقاد أية نار، وقدَّموا كل الطعام في الوجبات باردًا.

وبدأ الركاب يبرزون من قمراتهم بعد انقضاء اليوم الثالث على العاصفة، إذ كانت حدتها قد خفت. وأحسوا بأسباب التقارب بينهم تزداد وثوقًا بعد أن كابدوا هذه المحنة،

وانبعثوا يتجاذبون أطراف الحديث الودي وهم وقوف على سطح السفينة يتطلعون إلى الشاطئ البعيد حيث غاب جبل تُكلِّل هامَتَه الثلوجُ في ثنايا السحب، وكان البحر في زرقة السماء، وراحت الأمواج يعلوها الزبَد الأبيض تلعق في رفقٍ جوانب السفينة، وكانت سمكةٌ من السمك الطيار تقفز من الماء بين الفينة والفينة كأنها طائرٌ أزرق محلقٌ ثم تغوص فيه مرةً أخرى كوميض البرق.

وبلغ الركاب ثغر داكار، وهنالك وضع ألبرت وهيلين شفيتزر خوذتيهما على رأسيهما ووطئا ثرى أفريقيا للمرة الأولى. وكان المتسكعون أمام الفنادق أو في المقاهي القائمة في المنعطفات ينظرون إليهم في غير مبالاة، ولكن الزوجين وجدا أن هذه فرصة رائعة تتيح لهما أن يسيرا مصعدَين في الشوارع الممتدة فوق التلال؛ فقد سمعا تغاريد طيور لم يسمعاها من قبلُ قط، ورأيا أشجارًا باسقة وشجيرات مزهرة لها أسماء كان عليهما أن يعرفاها. أجل لقد رأيا بؤس أفريقيا وجمالها في ذلك اليوم، رأيا رجالًا في أسمالٍ قذرة لا تكاد تستر أجسامهم، وكلابًا أشرفت على الموت جوعًا تهيم بلا غاية ولا قصد، وجيادًا كالهياكل العظمية وقد نحلت جوانبها ونصلت وران على قروحها اللون الأزرق الغامق.

وصادفا عربة نقل وُسِقت وسقًا بالأخشاب، وقد انغرزت في حفرةٍ عميقة، وراح زنجيان جثما على مقعدها المرتفع يحاولان أن يحملا الجواد على المضي، يزجرانه ويلهبان ظهره بعصًا في ضرباتٍ شديدة، وفاضت جوانح الطبيب بتلك الشفقة العظيمة التي كان يُحس بها إذا رأى أي مخلوق يقاسي ويشقى. وكان وهو بعد طفل في كولمار، إذا رأى الجواد العجوز المترهل يضرب ويساق إلى المجزر لا يملك إلا أن يشيح بوجهه، ويظل هذا المشهد ماثلًا في خياله لا يريم، أما الآن فقد كان في استطاعته أن يفعل شيئًا فصاح بالرجلين: ليس هذا هو السبيل الذي تُخرجان به عربة نقل من الحفرة.

وحملهما على أن ينزلا من مقعديهما ويساعدا على تخليص العربة، وانبعث هو يدفعها بكل قواه من الخلف. وتحرَّرت العجلة آخر الأمر واستطاعت العربة أن تمضي في سيرها.

فلما عاد ألبرت وهيلين إلى المركب قال له ضابط من ضُباط الجيش، كان قد رأى هذا المشهد وهو على مسافةٍ منهما: إذا كنت لا تود أن ترى الحيوانات يُساء إليها فلا تأتِ إلى هذه البلاد.

وسارت السفينة هابطةً تساير ساحل أفريقيا حريصةً في جميع الأحوال تقريبًا على أن يظل الساحل على مرأًى منها. ومرت بساحل الفلفل، وساحل العاج، وساحل الذهب، وساحل العبيد. وتراءت للعين الغابات الخضراء الرائعة تهبط حتى تبلغ حافة الماء، حيث

كانت الأمواج تتكسَّر على الرمال مرسلةً سحبًا عظيمة من الرشاش. وبلغت السفينة ثغر بسام الكبير وثغر كوتونو، وراح المسافرون ينزلون من السفينة واحدًا في إثر واحد عند الثغر الذي يطلبه، فيودِّعه بقية الركاب وداعًا حارًّا، وكان منذ قليل قد حلَّ بينهم غريبًا: صحبتك السلامة! مع السلامة!

وكانت هذه الكلمات تنطلق من الشفاه في ابتسامة، ومع ذلك فقد كان لها معنًى جليل هنا في المناطق الحارة القائظة: «صحبتك السلامة!»

ووقف ألبرت شفيتزر على سطح السفينة يودِّع الطبيب العسكري الذي كان قد تعرَّف إليه، وكان ألبرت قد قضى مع هذا الطبيب عدة ساعات خلال الرحلة يسمع منه كل ما يمكن أن يسمعه عن أمراض المناطق الحارة وكيف يمكن علاجها، وها هو ذا يرى الآن الطبيب يخطو إلى الصندوق الخشبي لتُدليه رافعة متأرجحة إلى قاربٍ صغير كان يتراقص صاعدًا هابطًا على متن الأمواج أسفل السفينة.

وتساءل: تُرى أي لون من ألوان الحياة ينتظر أولئك القوم الذين ودَّعهم هناك فيما وراء الغابة الخضراء؟ وكيف يكون حالهم حين يعودون بعد قضاء السنوات التي لا مناص من أن يقضوها هنا؟ تُرى أيُقَدَّر لبعضهم أن يعود أبدًا؟

وبلغت السفينة ثغر ليبرفيل ورأس لوبير، وهنالك غادرها ألبرت وهيلين شفيتزر ومعهما الحقائب والأكياس وسبعون صندوقًا من المؤن.

وصاح بهما زملاؤهما الركاب الذين ظلوا على ظهر السفينة: «مع السلامة!»

وكان لا يزال أمامهما مائتا ميل يقطعانها قبل أن يبلغا مقصدهما، وحملتهما السفينة النهرية «ألمبه» ذات المجاذيف في مؤخرتها بين الراكبين في باكورة الصباح ليومٍ من أيام أبريل، وبدآ يسيران في سبيلهما مصعدَين في نهر أوجو.

وكانا قد شاهدا من قبلُ صورًا لأدغال المناطق الاستوائية بأشجارها الضخمة ونباتاتهما الزاحفة بأزهارها المشرقة تلتف وتتشابك حول جذوع هذه الأشجار وأغصانها. أما وقد تجلى هذا المشهد الآن أمام أعينهما فقد بدا لهما كأنه صورة عجيبة أبدعها خيال فنان، ثم تجلَّت فجأةً في عالم الواقع.

وألفى الطبيب أفكاره ترتد وترتد إلى المشاهد الطبيعية التي أَلِفها في الألزاس، ولم يكن نهر أوجو كنهر الراين وإنما كان مجموعةً كاملة من الأنهر تتفرع وتنثني مرةً أخرى مرتدةً مجتمعة طاوية بين ثناياها جزائر وبحيرات. وكان كل فرع منها كبيرًا يبلغ مبلغ الراين نفسه، وتحيَّر في أمره ترى كيف يستطيع هذا الملاح الزنجي أن يعرف على الإطلاق

أي سبيل يسلك، ولكن الملاح راح يدير السفينة بلا خريطة ويوجِّه دفتها في ثبات العارف من مجرًى أصيل إلى قناةٍ ضيقة مجتازة بحيرة، ثم يعود أدراجه إلى المجرى الأصيل.

وكانت الأشجار الرمادية ذات الروافد النامية على حافة الماء تنثني في طيات كأنها قميص امرأة من الحرير الرمادي، حتى لَيُخَيل للناظرين أنها تتحرك. وكانت تلوح بين الحين والحين شجرة ميتة، تسمو على الشجر الآخر وأغصانها مثل الأذرع الرشيقة تتخذ أوضاعًا ثابتة، وكانت الجزائر مغطاةً بنبات النيلوفر يبلغ في نموه مبلغ قامة الإنسان، وراحت أوراقه المريشة تتماوج مع الريح، فبدت الجزائر الصغرى كأنما تسبح برفقٍ هابطةً المجرى، وطار طائرٌ من طيور البلشون البِيض ناصعًا كالثلج في تثاقل وهدوء ثم حطَّ على شجرةٍ باسقة، وانطلقت طيور أبو نَقَّار صائدةً السمك تمرق فوق الماء، وراح عُقابان من عِقبان البحر يحومان عاليًا فوق الرءوس، ثم ظهر من غصن نخلة ذيلَا نسناسَين يتنوَّسان رائحَين غاديَين، وأطلَّت على الزورق في فضولٍ عيون مشرقة لنسناسَين، أجل لقد كانت هذه هي أفريقيا بحق!

وكانا يمران من حينٍ إلى حين بقريةٍ من قُرى الوطنيين، حيث انبعث أطفال أنصاف عراة ضاحكين، يخرجون من أكواخٍ أقيمت من القش والطين ليُحملقوا في ركاب الزورق، وكانت أنظارهم تقع أحيانًا على قريةٍ هجرها أهلها تمامًا، وأخذت أكواخها تتداعى أطلالًا فلا ترى فيها أية علامة من علامات الحياة.

وأبدى تاجر كان واقفًا بجوار الدكتور شفيتزر هذه الملاحظة قائلًا: لقد كانت هذه القرية حين وصلت إلى هنا أول مرة زاهرةً عامرة بالحياة.

فسأل الطبيب: وما بالها قد توقَّف ازدهارها بعد؟

فهز التاجر كتفيه واكتفى بكلمةٍ واحدة أجاب بها الطبيب: الكحول!

وكانت هذه أيضًا هي أفريقيا. وتساءل ألبرت شفيتزر أيمكن أن يبذل لهؤلاء القوم من العون ما يتغلَّب على الشرور التي جلبها عليهم أيضًا الرجل الأبيض؟

ووقف الزورق عند قرية ليتزود بالخشب، وأقبل صفٌّ من الحمالين يسيرون على السقالة وقد حمل كلٌّ منهم حِملًا من كتل الخشب فوق رأسه موازنًا إياها حتى لا تسقط.

وانبعث رجلٌ يهتف هتافًا أشبه بأغنيةٍ عند إحصاء كل عشر من الكتل، في حين أخذ رجل آخر يسجِّل علامة: سجِّل واحدًا! سجل واحدًا، سَجِّل واحدًا!

فلما تم عد الكتلة المائة غيَّر هتافه قائلًا: سجِّل صليبًا.

وخيَّم الظلام فجأةً مع غروب الشمس، وكأنما حمل معه ظلًّا لجميع أنواع الشتاء الذي تعانيه هذه البلاد. وكان الطبيب يتبيَّن له بجلاء عند مروره بكل قرية مبلغ حاجة القوم إلى العون، وأن هذا العون يجب أن يبذله أُناسٌ لا يَدَعون اليأس يتسرَّب إلى قلوبهم بحال.

وبرزت الغابة كأنها سور أسود ضخم على طول ضفة النهر، والزورق يدنو منها في بعض الأحيان دنوًّا كبيرًا حتى بدا كأنه يحف بجوانبها. ولاحت النجوم صغيرةً بعيدة في أفق الليل الاستوائي المُغَشَّى بالضباب كأنما مالت عن بروجها المعلومة، وظهرت نجومٌ جديدة في الجنوب لم يكن يراها أحدٌ قط في سماء الألزاس.

وتألَّقت على البعد البعيد ومضة من البرق الملتهب وأرسى الزورق في جوٍّ هادئ؛ لأن الليل كان قد جنَّ فلم يكن ثمة من الضوء ما يمكِّنهم من تسييره. فلمَّا بدا أول خيط من خيوط الفجر الباهتة مضى الزورق في طريقه ثانية، فلما تنفَّس الصبح ظهرت منحدرات لامبارينيه.

ودوَّى في الجو صوت الصفارة المتصل فأتى على ندائه إلى المرسى تجار لامبارينيه مبتغين الشحنة التي كانوا ينتظرونها. ولم يكد المركب يرسو حتى أقبل زورقٌ طويل رفيع منطلقًا كالسهم يدور حول جانبيه، حتى إن الرجل الأبيض الذي كان يمسك بدفته لم يستطع إلا بمشقةٍ أن يرتد إلى الخلف ليتحاشى الاصطدام بسلسلة المركب. على أن الصبيان السود الذين كانوا يجدِّفون في الزورق ظلوا يُنشدون أغنيتهم المرحة على إيقاع ضربات المجاديف، وكان هؤلاء الصبية هم تلاميذ مدرسة البعثة الدينية أقبلوا مع أستاذهم يبارون طائفةً من صبيان البعثة الذين يفوقونهم في السن جدوا وراءهم لبلوغ المرسى، وفاز الصبية الصغار في المباراة فكوفئوا على ذلك بحمل الطبيب وزوجته في زورقهم إلى مقر البعثة على مرحلة ساعة من المرسى صعدًا في النهر، وتبعهم الصبيان الكبار يحملون متاع الطبيب.

وظلَّت حمية السباق تتملك المتبارين، وحاول الصبيان الواقفون إلى المجاديف أن يسبقوا جميع الزوارق بل مركب النهر نفسه بعد أن استأنف مسيره للمرة الأخرى، وانطلقوا ينشدون أغنيتهم على ضربات المجاديف.

وأخذ الزورق الضيق الذي نُحت من جذع شجرة يتمايل من جنبٍ إلى جنب، إلا أن الصبيان ظلوا واقفين محتفظين بتوازنهم احتفاظًا كاملًا، واستطاعوا بشق الأنفس أن يتفادَوا زورقًا آخر كان يحمل ثلاث نساء زنجيات، ومع ذلك فقد ظلوا يُنشدون أغنيتهم لا يعكِّر صفوهم شيء.

وتركوا مجرى النهر الرئيسي والتفوا بالجزيرة حيث كان يقوم مقر البعثة الكاثوليكية شامخًا فوق تل، ثم ولجوا رافدًا من روافد النهر. وكان النهار قد بدأ ينصرم؛ ذلك أنهم كانوا قد قضَوا وقتًا طويلًا في حمل المتاع من المركب وإنزاله إلى زورق الصبيان الكبار. ومالت الشمس ملقيةً أشعتها على بعض البيوت القائمة على جانبٍ مرتفعٍ فوق الأرض، وأخذ غناء الصبيان يزداد ارتفاعًا ومرحًا وهم يبتغون جوًّا هادئًا يرسون الزورق فيه، وتبعهم الصبيان الكبار عن كثبٍ يغنون أيضًا، ولكن غناءهم لم يكن يعلوه ما علا غناء زملائهم من رنات الظفر.

وكان أعضاء البعثة الدينية بكامل هيئتهم ينتظرونهما عند المرسى، وانبسطت أيادٍ سود وبيض لتحيتهما، ثم حفُّوا بهما سائرين إلى بيتهما الجديد، وهو بيت خلوي صغير من طبقةٍ واحدة، يحتوي على أربع غرف صغيرة وشرفة تحيط بها من كل الجوانب. وكانوا يستطيعون أن يُطلوا من جانبٍ من جوانب البيت على النهر المتلألئ ينفرج هنا وهناك عن بحيرة توشيها جزائر خضر، وأن يلمحوا مجرى النهر الأصيل تحف به سلسلة من التلال المنخفضة تلوح قاتمة الزرقة في الضوء الخابي. وكانت تقوم على الجانب الآخر من الشرفة على مسافة تقل عن عشرين ياردةً حافة الغابة العذراء يغشاها القتام وتكتنفها الأسرار.

وألم الغسق بالمكان إلمامًا عابرًا إذ ألقت الشمس على السماء وهجًا من الضوء الأحمر والبرتقالي، ثم أقبل الظلام فجأة، ورنَّ جرس ينادي الأطفال إلى أداء صلوات المساء وإلقاء الأناشيد في فصل الدراسة، وارتفعت أصواتهم الغضة عاليةً صافية النبرات في ليل تلك المنطقة الاستوائية يشاركهم صراصير الليل وتغاريد طيور المساء. وجلس الدكتور شفيتزر على صندوق شحن في بيته الجديد، وراح يستمع في هدوء وقد تأثر أبلغ التأثر. وقبل أن ينتهي الغناء رأى شبحًا كئيبًا يزحف هابطًا في بطء على الحائط. وكان هذا الشبح لعنكبوت ضخم سام، ثم ظهرت عناكب أخرى وخنافس طيارة، كانت قد اتخذت من هذا البيت الذي هُجر أمدًا طويلًا مأوًى لها. وهنالك لم يكن بُد من أن تُطرد هذه الحشرات بالاستعانة بضوء مصباح يُنار بالزيت قبل أن يستطيع الطبيب وزوجته أن يخلدا إلى الراحة والنوم بعد طول عناء.

وظلت صراصير الليل والضفادع ماضيةً بانتظام في ترتيلها الجماعي تخالطه أصوات غريبة تنطلق من الغابة. وانبعث في الجو صوت وصياح لبعض القردة الكبيرة، وصراخ فيل يترامى إلى الأسماع عن بُعد، أو هدير فرس من أفراس النهر، فأقلق منامَ الطبيب وزوجته في ليلتهما الأولى التي قضياها في بيتهما الأفريقي.

وران الهدوء والسكون في باكورة الفجر، فلمَّا طلع الصباح بدأت أصوات النهار تنطلق، وراحت الببغاوات البرية تطير مصفرةً صارخة من مجاثمها، وطيور الخياط تُثرثر وتُنادي على أشجار النخيل، وانبعثت ملايين البعوض والحشرات الطائرة تطن طنينها الوسنان مع شروق الشمس.

وانطلق جرس يدق في السادسة صباحًا فترامى إلى الأسماع سريعًا صوت الأطفال في الفصل يقودهم مدرس من أهل البلاد يسمى أويمبو، ومعنى هذا الاسم «الأغنية»، وحل بذلك الوقت الذي يبدأ فيه الطبيب عمله، وكان المرضى منتظرين بالفعل في خارج البيت حتى قبل أن يُخرج المعدات الطبية من الصناديق التي شُحنت فيها.

الفصل الثامن

«إن مستقبل البشرية ليقوم على ما يبذله كل إنسان في الحياة التي قُسمت له من مراعاة الإنسانية الحقة في علاقته بإخوانه البشر.»

من كتابه: «خلاصة حياتي وأفكاري»

وانتشرت الأنباء من قرية أفريقية إلى أخرى حتى عمَّت جميع القرى الكائنة في أعلى النهر وأسفله، أن رجلًا أبيض أوتي القدرة على شفاء الأسقام قدم ليعيش بين القوم، وقد سمَّوه «أوجانجا» وهي كلمة تدل عندهم على «الرجل الساحر»، وأقبلوا في زوارقهم أو مجتازين دروب الغابة حاملين معهم مرضاهم للعلاج. وكان صوت ثرثرتهم وهم يتحدَّثون بلغات قبائلهم المتعدِّدة يُسمع كل صباح، ومنها قبائل «الجالوا» و«الباهوين»، وغيرها من القبائل الصغرى، على أن كلماتهم جميعًا كانت غريبةً على أذن الأوروبيين، فبدت بمقاطعها السريعة القصيرة كأنها أغنية من نغمتين فحسب.

وكانوا يرتدون ملابس من مختلِف الأنواع والأشكال والألوان، يلبس بعضهم أرديةً مسترسلة من قماش منشستر المحلى بالأزهار الزاهية وقد التفَّ بأجسامهم في طياتٍ رشيقة أنيقة، ويلبس آخرون قمصانًا أوروبية مرسلةً أو سراويل قصيرةً مهلهلة قاتمة لا تناسب أجسامهم، ولم يرتدِ بعضهم شيئًا إلا سترًا حول حِقويه من لحاء الشجر المجدول أو من جلد حيوان. وعلت وجوهَ أو أجسام كثيرين منهم شاراتُ قبائلهم وُشِمت على أشكال، وشُحذت أسنانهم حتى أُرهِفت حدودها على نحو ما كان يفعل آكلو البشر في الأزمان الغابرة.

وكان هناك رجالٌ ونساء عجائز يبس عودهم كأنهم أوراق الخريف توشك على السقوط من فوق الشجر، ولا شك أن بعضهم كانوا قد أُقصوا من قراهم ليموتوا لأنهم

أصبحوا بلا فائدة لقبائلهم. وكان هناك أيضًا نسوة يحملن على ظهورهن أطفالًا مرضى يُثيرون القلق والانزعاج، أو يمسكن بأيديهن طفلًا تغشى جسمَه قروحٌ مؤلمة. وأقبل الرجال الأصحاء يسندون زميلًا لهم ضعيفًا أو محمومًا أو جريحًا عدا عليه وحشٌ من الدغل.

وأدرك ألبرت شفيتزر حقيقة الرسالة التي كان قد كتبها المبعوث الديني، ولا شك أن القوم هنا في قلب أفريقيا كانوا في أشد الحاجة إلى العون.

وقال له رجلٌ شاب: إننا جميعًا هنا مرضى.

وقال زعيمٌ شيخ من القوم: إن بلادنا تفترس أهلها.

وكان مركز البعثة الدينية خِلوًا من بناءٍ للعلاج، ولكن المرضى كانوا هنالك في حاجةٍ إلى إسعافٍ في الحال، وكان من غير المستطاع أن يُهمَل أمرهم حتى قيام هذا البناء. وكان الطبيب يعالج مرضاه في العراء، وراح يباشر عمله أمام مسكنه في الأسابيع القليلة الأولى من مقامه في البلاد. وكان الفصل المطير قد حلَّ جالبًا معه في كل عصر العاصفة المعهودة التي كانت تقتضي الإسراع بجمع كل العقاقير والأجهزة، والتماس المأوى في الشرفة حتى يستطيع الطبيب أن يمضي في عمله.

وكانت تقوم بجوار مسكن الطبيب حظيرة دجاج، كان قد أقامها مبعوثٌ ديني سابق ثم هُجرت. وكانت هذه الحظيرة صغيرةً مظلمة ليس فيها نافذة تسمح بدخول الضوء أو الهواء. وبدت كأنما تستطيع أن تطيح بها أقل هَبَّة من هَبَّات الريح، ومع ذلك فقد كان لها على الأقل سقف مصنوع من مواد مختلطة، يحمي المرءَ بعض الحماية من المطر والشمس، حتى يستطاع إقامة بناء لإيواء المرضى.

وكانت جدران الحظيرة مغطاةً بالملاط مطلية بالجير الأبيض، وأُقيمت عليها بعض الرفوف لحمل المؤن الطبية، وجُلب إليها سرير من أَسِرة الجنود. وكانت هذه هي أول مستشفًى اتُّخذ في لامبارينيه، وكان يُعَد شيئًا فاخرًا بالنسبة للمكان الذي اتُّخذ لعلاج المرضى في العراء؛ ذلك أن المطر كان من بعدُ ينساب فوق الحظيرة فيستطيع أن يمضي الطبيب في عمله مطمئنًّا يضمِّد الجراح ويعطي الدواء أو يُجري بعض الجراحات الصغيرة. أمَّا إذا ألجأته الظروف إلى إجراء جراحة من الجراحات الكبرى التي لا يمكن إجراؤها، فإنه كان يستعين بمنضدةٍ يضعها في المكان الذي ينام فيه الصبيان، وكانت زوجة الطبيب التي كانت قد تدرَّبت على التمريض ذات نفع عظيم في إعداد آلات الجراحة والضمادات.

وقد أثبت أحد المرضى الذي بقي بعد شفائه ليعمل مترجمًا أنه مساعدٌ مقتدر في الأعمال الطبية، وكان يُدعى يوسف، وينتمي إلى قبيلة «الجالوا»، وكان أهل هذه القبيلة

نشطين أذكياء، يفوقون في مقدرتهم أي قوم آخرين من أهل هذه البلاد. ويقال إن زنوج «الجلا» في ولاية كارولينا الجنوبية أصلهم من هذه القبيلة.

وكان يوسف يستطيع أن يتحدَّث بلهجاتٍ ثمانٍ من لهجات الزنوج، ويُلم بعض الإلمام بالفرنسية، ويعرف شيئًا من الرطانة الإنجليزية أيضًا. وبالرغم من أنه كان لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فقد كان له أسلوب في تذكُّر شكل الكلمات على البطاقات الملصَقة على الزجاجات، ممَّا جعله لا يخطئ ولو مرةً واحدة حين يُطلَب منه أن يأتي بدواءٍ معين من فوق الرف.

وكان يوسف يعمل طباخًا في رأس لوبيز، وهنالك التقط ما يعرفه من الإنجليزية والفرنسية، وكان إذا استُدعي ليترجم ما يقوله مريض في وصف أعراض مرضه، وجد من اليسير عليه كل اليسر أن يستعمل تلك التعبيرات التي كان قد تعلَّمها في المطابخ.

فيقول مثلًا: أيها الطبيب، إن هذا المريض يقول إن أكارعه تؤلمه.

أو: إن المرأة تحس ألمًا في بيت كُلاها.

وكان الطبيب حين يستيقظ كل صباح يجد مرضاه ينتظرونه محتشدين بجوار حظيرة الدجاج، أو واقفين في ظل كوخه هو. وكان يفد إليه في كثيرٍ من الأحيان ثلاثون أو أربعون شخصًا كل يوم للعلاج، بعضهم مصابٌ بالملاريا، وبعضهم بمرض النوم، وبعضهم بأمراضٍ جلدية كالجذام والقروح أصابتهم بها لدغات الحشرات، وكان من بينهم دائمًا أناسٌ أُصيبوا بكسورٍ في عظامهم من جراء هجوم فرس النهر عليهم أو بجروحٍ أحدثتها فيها مخالب فهد، أو عضات وضربات تلقَّوها من زملائهم من البشر.

وكان المرضى الذين يعودون إلى قُراهم بعد شفائهم يروون قصصًا عجيبة، والحق أن الساحر الأبيض كان قد أوتي من القوى ما يفوق قوى سَحَرتهم أنفسهم.

وقالت امرأة بعد أن فحصها الطبيب بالسماعة ليتبيَّن علة قلبها وأعطاها عقار إصبع العذراء (الدغتليس) ليخفِّف من علتها: لقد عرف الطبيب دون أن أُنبِئه أنني أُحس بأنفاسي تكاد تنقطع بالليل، وأجد قدميَّ في بعض الأحيان متورمتين.

وكانت عقاقير التخدير التي تُعطى للمرضى أثناء الجراحات تُثير في القوم كثيرًا من العجب والرهبة.

وقالوا عنه: إنه يستطيع أن يقتل شخصًا ثم يشفيه ثم يرده إلى الحياة مرةً أخرى.

وكان الأطباء من سحرة القرية يَدَّعون أن لديهم القدرة على إحداث المرض والألم وشفائهما. وكان القوم يعتقدون أن «أوجانجا» الطبيب الأبيض عنده هذه القدرة أيضًا.

وتملَّك العجبُ الطبيبَ حينما سمع بذلك وأدرك أن القوم ينظرون إليه نظرتهم إلى رجلٍ عنده مثل هذه القدرة على الخير، ومع ذلك يظنون فيه أنه يبلغ هذا المبلغ من الخطورة أيضًا.

وكان ألبرت وهيلين شفيتزر حين يفرغان من العمل في المساء أو في عصر أيام الآحاد يمضيان في نزهةٍ هادئة على الأقدام، يجوسان فيها خلال الأراضي التابعة للبعثة الدينية، حتى لقد عرفا كل شبر فيها، وقاسا طولها وعرضها بالخطوات. وكان في هذه الأراضي ممرات ضيقة تؤدي إلى قلب الغابة، حيث انتصبت الأشجار كأنها سورٌ مكين يرتفع قرابة مائة قدم فوق رءوسهم، وقد تشابكت هذه الأشجار تشابكًا مُحكمًا حتى منعت أي هبة من النسيم من أن تنساب خلالها، وكانت تنبعث من الأرض ومن أوراق الشجر المتحلِّلة ومن الغابة رائحة رطبة عفنة ممتزجة برائحةٍ حيوانية صادرة من قطط الزباد والنسانيس وغيرها من المخلوقات المختبئة بين الشجيرات.

وكان للمكان سحرٌ خاص به، وإن كان يختلف عن الألزاس الاختلاف الذي يمكن أن يقوم بينه وبين أي مكان آخر. وكانت أشعة الشمس تُوشِّي الظلال التي تضيئها أوراق الشجر وتتراقص كأنها الفراشات الذهبية، وتمرق الطيور الزاهية اللون فوق الرءوس، فيبدو منها ومضات سريعة من الأخضر والبرتقالي والأزرق المشرق، ولكن الحرارة كانت قائظةً لا يحتملها أولئك الذين عرفوا هواء الألزاس الرطيب النقي الخالص. ووجد الطبيب وزوجته أن من الخير لهما أن يطوفا مسايرَين ضفاف النهر الرملية بمجرد أن بدأ فصل الجفاف يحل والمياه تنحسر.

وقد استقرَّ رأي الطبيب خلال النزهات المسائية على الموقع الذي أراد أن يُقيم المستشفى عليه. وكانت قد وُضعت من قبلُ خطة لبناء المستشفى على الربوة العالية القائمة بجوار البناء الذي ينام فيه الصبيان، ولكنه وجد أن فسحة الأرض المتاحة هناك أضيق من أن تتسع للمستشفى الذي كان يفكِّر في بنائه. وكان المكان الذي اختاره من بعدُ يقوم على جانب النهر بالقرب من جون هادئًا. كانت الزوارق التي تجلب المرضى تستطيع أن ترسو فيه، ويقع أسفل منحدر بالقرب من كوخه ممَّا ييسِّر عليه الوصول إليه إذا ما استدعى الأمر وجوده تلبيةً لنداء أي مريض تقتضي حالته الإسعاف السريع.

وكانت حظيرة الدجاج بطبيعة الحال مأوًى خيرًا من لا مأوى على الإطلاق، ولكنها كانت في خير حالاتها وسيلةً موقوتة لم يكن من الممكن بعدُ أن تصلح للغرض الذي استُعملت فيه. وأصبحت الحاجة ملحةً لإقامة المبنى الطبي الجديد — على أن مؤتمر

المبعوثين الدينيين لم يُعقَد لإقرار الموقع وتدبير المال اللازم لهذا البناء إلا في شهر يونيو؛ أي بعد وصول الطبيب بثلاثة أشهر.

فقد خرج الدكتور شفيتزر والمبعوثان الاثنان الآخران التابعان لمركز البعثة ومضوا في صبيحة يوم قبل شروق الشمس في الرحلة الطويلة المعهودة، راكبين الزورق وصعِدوا في النهر خمسةً وثلاثين ميلًا، حيث كان يقوم المكان الذي سيُعقد فيه الاجتماع، وجلسوا على الكراسي التي تُطوى الواحد وراء الآخر بالقرب من عقدة الحبل الذي رُبط به الزورق المنحوت من الشجرة، وقد تكوَّمت في وسط الزورق مراتبهم وأَسِرتهم التي تُستعمل في المعسكرات ويمكن طيها، وزادهم من الطعام هم وملَّاحوهم. ووقف تجاه الدفة اثنا عشر رجلًا — اثنين اثنين — ليُجدِّفوا بمجاديفهم الطويلة الساق، ووقف رجلٌ آخر وحيدًا عند العقدة ليُرشدهم ويستطلع بعين ساهرة أماكن المياه الضحلة والصخور وكتل الخشب الساقطة. وراح الرجال يغنون وهم يجدِّفون مراعين أن تكون أغنيتهم وهم ماضون متفقةً مع إيقاع ضربات مجاديفهم، أجل راحوا يغنُّون عن القوم الذين كانوا يركبون في الزورق، وعن المكان البعيد في أعلى النهر الذي كانوا يقصدون إليه، وغنوا أيضًا عن الواجب الذي كان يقتضيهم أن يستيقظوا مبكرين غاية التبكير قبل أن تعلو الشمس السماء، وعن عدد الساعات التي لم يكن بدٌّ من أن يُنفقوها في التجديف حتى يبلغوا وجهتهم.

وانفلتوا خارجين من المجرى الفرعي إلى المجرى الأصلي في نفس الوقت الذي بزغ فيه النهار، وكشفت ضبابة في لون الفضة عن نفسها، وانطلقت تعلو في عمدٍ فتغشى السماء والأشجار البادية في الأفق، ولعل صباحًا من هذا القبيل سواءً بسواء هو الذي غشي العالم في بدء الخليقة. ولم يبدُ للأنظار إلا الماء والغابة والسماء، ولم تبلغ الأسماعَ أصواتٌ إلا صوت الطيور وصوت رشاش المجاديف، ولم يكن هناك أجراس ترن، ولا محركات تئز، ولا سكة حديد من السكك الضيقة تُقعقع.

وبرز من غمرة الضباب فجأةً صف من أشياءَ قاتمة تتحرَّك في الماء، ولم تلبث أن توقَّفت أغنية المجاديف لتوها، كأنما أصدر شخصٌ لها أمرًا أن تكف؛ فقد كان هذا الصف قطيعًا من أفراس النهر انطلقت تتمايل بعد أن رعت رعية الصباح الباكر، وأخذت تمرح في خشونةٍ وتستحم في النهر. وكانت هذه الأفراس ضخمة الجثة بلغ بعضها في الطول اثنتي عشرة قدمًا على الأقل من شفتها العليا إلى ذيلها، وأوشكت أن تبلغ في الارتفاع مبلغ قامة الإنسان.

وعمد الرجال في هدوءٍ وريث إلى دفع الزورق إلى جوار الشاطئ؛ ذلك أن هذه الحيوانات وإن كانت قد مضت تغوص في الماء وتخوض فيه محدِثةً رشاشًا كأنها أطفال ضخام

يلعبون في حُمق ورعونة، إلا أن الزنوج الأفريقيين كانوا يعلمون جيدًا حدة طبعها حين يُزعجها مزعج، وكانت النوادر تُروى عن قدرتها على أن تقذف بزورق في الهواء كأنه كرة من المطاط، وأن فكيها يستطيعان أن ينتزعا ساق رَجُل أو ذراعه بعضةٍ واحدة.

ولم يكن شاطئ النهر بأكثر من ذلك أمنًا؛ ذلك أن التيار لم يكن قويًّا في هذا المكان، وكان من الأيسر أن يجدِّف المرء ضد التيار، ولكن رُكاب الزورق كانوا مضطرين إلى النظر بعينٍ ساهرة حيثما كانت الأشجار تتدلَّى غصونها في الماء إلى عمقٍ بعيد، بحيث تنشر مظلةً من أوراقها فوق الرءوس، ويُحتمل أن تكون حيات الأصلة ملتفةً حول غصنٍ منها، متأهبةً للانقضاض على الزورق، وربما كانت التماسيح أيضًا تتربص في المياه الضحلة.

ومن ثم فليس ممَّا يثير العجب الكثير أن يساور حياة الأفريقي دائمًا فزع، بل خوف يبلغ مبلغ الأوهام؛ فأينما اتجه يكمن خطر، في النهر أو في الدغل، بل في السماء نفسها، ويطن الناموس حامل الملاريا ويحوم فوق رءوس القوم في مطلع الفجر، فإذا اختفى بشروق الشمس أقبل ذباب تسي تسي ليحل محله، وإن لسعته لتستطيع أن تنفذ في أسمك قماش وتسبِّب مرضَ النوم والوفاة.

وأصبحت الشمس نفسها عدوًّا لا يرحم؛ فقد أشرقت من سماءٍ خالية من السحب وانعكست حرارتها وضوءُها على صفحة الماء، ثم ارتدَّا مرةً أخرى كأنهما سهامٌ محرقة تخترق الزورق. وراح الرجال يُطفئون ظمأهم بثمار الأناناس الطازجة الغضة، ويتوقَّفون عند الظهيرة للراحة في قريةٍ من قرى الوطنيين، حيث أخذ الملَّاحون يُقيمون نارًا لشيِّ الموز لغدائهم.

واستمر المؤتمر أسبوعًا، فلما انتهى عاد الطبيب ورفيقاه إلى لامبارينيه وقد أتمَّا مهمتهما. وقد وافق المؤتمر على الموقع المقترح لإقامة المستشفى وخصَّص أربعمائة دولار لتكاليف بنائه.

وكانت رحلة الإياب مع التيار، وكان ينبغي أن تكون أسرع من رحلة الذهاب، ولكن القوم لم يصلوا إلى المجرى الفرعي الذي بلغ بهم إلى مقر البعثة إلا بعد أن أرخى الليل سدوله، واضطرهم الأمر مرتين إلى عبور النهر تجنُّبًا لقطعان أفراس النهر التي كانت تتهدَّدهم، فلمَّا مضَوا يجدِّفون مسايرين حافة الماء لم يجدوا بُدًّا من السير ببطء ملتفِّين بالجسور الرملية. وكان الملاحون من حينٍ إلى حين لا يجدون سبيلًا إلا الخلاص منها ودفع الزورق عائدين إلى المياه العميقة. وازدادت أغنية المجدِّفين ارتفاعًا وهم يقتربون من البر، ثم غلظت أصواتهم صائحةً صيحة النصر. وبدت لهم الأنوار تتحرك في خطٍّ متعرج

على التل المنحدر، وكانت هذه الأنوار هي مصابيح أفراد البعثة الدينية أقبلوا مرحِّبين بعودتهم.

وأحس الطبيب بالحاجة إلى المستشفى فأراد — نافد الصبر — أن يبدأ في بنائه توًّا، وراح يخط بعصًا مرهفة الحد في الطين محدِّدًا موقع كل غرفة من عنبر النوم والمكان الذي تُقام فيه الأَسِرة، وبدا له أن العمال يشتغلون ببطء لا يطاق، فتناول مجرفًا وراح يعمل بجوارهم، ثم ساعدهم على نشر الكتل الخشبية الثقيلة حسب الحجم المناسب وحملها إلى مكان البناء.

ولقَّب يوسف من قبيلة «الجالوا» نفسه بلقب «المساعد الأول للطبيب في لامبارينيه»، والحق أن الطبيب أصبح يعتمد عليه عالِمًا أنه يبذل أقصى ما في وسعه؛ فقد كان يوسف قد تعلَّم كيف ينظِّف الآلات الطبية ويناولها للطبيب ويُعِد مريضًا لإجراء جراحة، فكان يقف بجوار الطبيب أثناء الجراحة لابسًا قفازًا طويلًا من المطاط، وكان يوسف في الحالات النادرة التي يخرج فيها الطبيب وزوجته في رحلة تلبيةً لنداء مريض على مبعدةٍ من مركز البعثة، يقوم عنهما أحيانًا بالعمل ويؤدي واجباته على خير وجه. وقد حدث مرةً أن حُمل إلى الدار رجلٌ مصاب بجرحٍ فاغر، وكان يوسف هو الذي أعدَّ محلول الأوكسجين ومحلول البوريك، متعرِّفًا على الزجاجات من البطاقات الملصقة عليها وضمَّد الجرح بنفسه.

وكان لا يكل دائمًا من أن يقول — حتى في الحالات التي يعلم فيها أن الطبيب سوف يتغيَّب دقائق قليلةً فحسب ليرى مريضًا بعنبر النوم: أغلق غرفة العلاج ولا تنس.

– أغلقها دونك أنت يا يوسف؟

– أجل، أغلقها دوني أنا أيضًا؛ فالباب المغلق يرد القضاء المستعجل.

وكان يوسف على خبرةٍ وعلم بأساليب الرجل الأبيض، إلا أن بعض العادات القبَلية التي نشأ عليها كانت قد تغلغلت في صميم حياته تغلغلًا، فلم يكن من اليسير عليه أن يتخلص منها، ومن هنا دأب في كثيرٍ من الأحيان على التحدث عن شراء زوجة يتخذها لنفسه، ولو أن هذا الأمر كان يقتضيه أن يحصل على ما يُربي على مائة دولار بالفرنكات الفرنسية ثمنًا لها. وكان في ميسوره أن يتبع في ذلك طريقة الأقساط، ولكنه لم يكن يحب أن يلجأ إلى هذه الطريقة.

ويقول: لا يمكن أن تمضي حياتي في سلامٍ ووئام إذا اشتريت زوجةً بهذه الطريقة؛ ذلك أنها خليقة بألَّا تطيع لي أمرًا بحال، ولا تنفك عن السخرية بي وتقول إنني ليس لي حق عليها لأنني لم أدفع ثمنها كله.

وكانت عنده حصالة للنقود يودع فيها فائض ربحه من مالٍ يؤدَّى له نظير نوبته بالليل، أو نظير خدمات خاصة يبذلها، أو ما قد يجود به عليه من نفحات مريض أبيض عابر يعالَج في المستشفى، ولكن يوسف كان مبذِّرًا، ولم يكن من اليسير أن يقتصد وهو يجد الكثير جدًّا من الأشياء المغرية معروضةً في أسواق لامبارينيه ومخازنها التجارية؛ كالأحذية والسكر وأربطة العنق والقمصان الزاهية اللون.

ورأى يوسف يومًا زوجًا من الأحذية اللامعة الجلد حين دخل السوق مع الطبيب ليشتري بعض المؤن، وكان الحذاء جافًّا أصابه العطب من طول عرضه في واجهة حانوت بباريس، وكانت هذه البضاعة كمثيلاتها من الفضلات والنفايات الأخرى التي عزَّ بيعها في أوروبا، فشُحنت إلى أفريقيا حيث يدفع فيها الأفريقيون أكثر مما تستحق.

وراح الطبيب يفحص بعض المسامير واللوالب التي كان يريد شراءها، وإذا به يشاهد يوسف واقفًا حيث عُرض الحذاء وفي عينيه نظرة المتلهِّف، وأومأ إليه الطبيب بعينه إيماءة تحذير، ولكن يوسف لم يحفل بها، بل إن نخسةً من الطبيب في ضلوعه لم تستطع أن ترده عن لهفته، وأخيرًا قرصه الطبيب في فخذه قرصةً شديدة فهم منها يوسف ما يقصده الطبيب، وترك الحذاء الذي كان يتفحَّصه وألقى به جانبًا في إحجامٍ وتردد. وأخذ الطبيب في طريق عودتهما إلى مقر البعثة يلقي عليه محاضرةً في الاقتصاد، وبيَّن له أن الحذاء لم يكن يساوي الثمن الذي كان سيدفعه فيه. واستمع يوسف إليه عن طيب خاطر وأومأ برأسه مؤمِّنًا على كلامه، ولكنه مضى إلى لامبارينيه وحيدًا في اليوم التالي، وعاد إلى مقر البعثة يحمل حذاءً لامعًا من الجلد وحصالةً خالية من النقود. وأدرك الدكتور شفيتزر أن ثمة فروقًا طفيفة تُميِّز عادات وشعائر كل جنس من الآخر، ويجب على المرء ألَّا يأخذها مأخذ الجد الشديد. ولاحظ الطبيب أن أمهات الأطفال الذين وُلدوا حديثًا قد طلين أجسامهن وأجسام أولئك الأطفال جميعًا باللون الأبيض حتى تبدو مخيفةً في عين الأرواح الشريرة. وكان الطبيب يبلغ به الأمر إلى حد معاكستهن ويومئ لهن بومضةٍ من عينه بمجرد أن يُرزقن بمولودٍ مذكرًا إياهن بألَّا يُغفلن الطلاء.

وكان المرضى يُعطَون تذكرةً من قطعة مستديرة من الورق المقوَّى معلقةً في خيطٍ من الليف المجدول وعلى كل تذكرة رقم، فإذا احتاج أحدٌ إلى العودة إلى المستشفى استطاع الطبيب أن يراجع سِجله الذي دوَّن فيه اسم المريض وطبيعة مرضه والعقاقير التي أُعطيت له.

وأخذ القوم ينظرون إلى هذه القطع الصغيرة من الورق المُقوَّى التي كانوا يعلِّقونها حول رقبتهم ويُعنَون بالمحافظة عليها نظرتهم إلى نوعٍ من التمائم من قبيل تلك التي كان

يصنعها لهم أطباء القرية السحرة لتقيهم من الأرواح الشريرة. وكانت تتدلَّى من أعناق القوم في كثيرٍ من الأحيان، مسلكة في نفس الخيط الذي يحمل التذكرة، أكياس صغيرة مُلئت بالريش الأحمر والصلصال ومخالب الفهد، بل تحتوي في بعض الأحيان على قطعٍ من جمجمةٍ بشرية لإنسان قتلوه لهذا الغرض.

وأدرك الدكتور شفيتزر كيف كان هؤلاء القوم فرائس لمخاوفهم وخرافاتهم وللمرض أيضًا، ممَّا يستدر الشفقة عليهم، وكانت آلهتهم التي يعبدونها آلهةً شريرة، وكانت صلواتهم خِلوًا من الثناء أو الحب أو الشكران، لا تتعدَّى النذور والاسترحام، وكانوا يعيشون في فزعٍ دائمٍ من ضرب من الودون،[1] أو من روحٍ شريرة تلبس أجسامهم أو من محرمٍ من المحرمات إذا انتهكوا حرمته أدركهم الموت لا محالة، وكانوا يعتقدون أن المرض نفسه لا ينزل بهم نتيجةً لأي سببٍ طبيعي، بل بفعل روح شريرة أو رقية من فعل عدو لهم من البشر، وأن دودةً قد دخلت في أجسامهم على نحوٍ ما لتأكل الجزء المصاب.

وكان المصاب منهم بآلام في معدته حريًّا بأن يقول في وصف أعراض مرضه: إن الدودة ترعى في معدتي.

وكان الدواء الذي يشفيهم رقيةً سحرية تحمل الدودة، على أن تزحف مغادِرةً أجسامهم، وبدا للطبيب أن الحاجة الماسة التي تقتضي تحرير عقول هؤلاء القوم من مخاوفهم ومحرَّماتهم لا تقل عن حاجتهم إلى شفاء أجسامهم. وقد رأى كثيرًا من المخلوقات المسكينة المرتاعة قد سيطر عليها اعتقادٌ بمحرم سيطرةً جعلت هذه المخلوقات تقضي نحبها بفعل إصابتها بصدمةٍ عضوية وعقلية فحسب، لشعورها بأنها انتهكت حرمة هذا الشيء المحرم.

وقد حدث أن حُمل إلى المستشفى رجلٌ شاب أصابه فرس نهر بجرح، وكانت عقدة التحريم عنده أنه سوف يقضي إذا رأى لون دمه، وأوقف الطبيبُ النزيف وعالج الجرح حتى بدأ في الالتئام، لكن المصاب كان قد رأى دمه ولم يكن ثمة سبيل إلى إقناعه بأنه لن يموت، وأصبح الرجل فريسة مخاوفه ولم يجد الطبيب حيلةً لإنقاذه.

وكانت عقدة التحريم عند شابٍّ آخر أنه يجب عليه ألَّا يأكل الموز أبدًا، بل لا يلمس شيئًا كان قد وُضع في آنيةٍ طُبخ فيها الموز. واتفق مرةً أن علم أنه أصاب سمكًا كان قد

[1] الودون (Woodoo): نوع من السحر عند الزنوج.

طُهي في آنيةٍ بها بعض فضلات قليلة من الموز، وما إن سمع ذلك حتى أصابته تشنُّجات ولم يلبث أن قضى نحبه. وماتت امرأة على هذا النحو؛ كانت عقدة الحريم عندها أن مولودها الأول يجب أن يكون ذكرًا ولكنها رُزقت بأنثى.

وقد حدث في كثيرٍ من الأحيان أن أُنقذت في المستشفى حياة أشخاص بوسائلَ أخرى غير الطب؛ ذلك أن رجلين كانا يصطادان السمك من النهر وإذا بفرس نهر يهاجمهما، وقذف الوحش بالزورق في الهواء وحاول أحد الرجلين أن ينجو بجلده وأصيب الآخر بجراحٍ خطيرة؛ فقد انطلق الوحش يطارده في الماء نصف ساعة على الأقل قبل أن يستطيع آخر الأمر أن يجر نفسه جرًّا زاحفًا إلى الضفة.

وحُمل هذا الرجل إلى المستشفى بعد اثنتي عشرة ساعةً من إصابته، وبعد أن حاول الطبيب الساحر أن يشفيه بسحره ففشل، ولم يكن هناك أمل في شفائه بالرغم من العلاج الذي عولج به، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة استدار أخوه لينتقم من زميله الذي كان يصطاد معه، وكان هذا الرجل قد أتى إلى المستشفى أيضًا.

وانتحى يوسف بالطبيب جانبًا وشرح له شريعة الغاب، وكان هذا الزميل الذي كُتبت له النجاة هو مالك الزورق الذي مضى به الرجلان للصيد، وكان هو نفسه أول من اقترح بأن يذهبا للصيد؛ وبذلك عُدَّ مسئولًا عن الحادث وعن وفالة زميله، وكان ذلك هو السبب في مجيئه إلى المستشفى في صحبة ضحية هذا الحادث، وكان ذلك أيضًا هو السبب الذي جعل أقارب المتوفى يدبِّرون الأمر للعودة برفيق قريبهم إلى القرية بالقوة إذا لزم الأمر ليُحاكَم على ما أجرم.

وقال يوسف للطبيب: لتصبحن حياته في خطر إذا عاد القوم به.

ورأى الدكتور شفيتزر الخوف مرتسمًا على وجه الرجل البائس وهو يحاول التخلص من يد آسريه، فهتف الطبيب قائلًا: إني أحتفظ بهذا الرجل هنا ليعمل عندي.

وطلب من القوم أن يُطلقوا سراحه.

واحتجَّ أقارب الميت على قوله ووعدوا أن يحاكموه محاكمةً عادلة، ولكن يوسف لم يثق بكلامهم لأنه كان عالمًا بأساليب بني جلدته.

وأصر يوسف على قوله: «ليقتُلُنَّه لا محالة.»

وبقي الطبيب بجوار ضفة النهر حتى انطلق الزورق الذي يحمل القتيل وأقاربه ليستوثق من أنهم لن ينسلُّوا عائدين ويَجُرُّوا الرجل الذي نجا قوةً واقتدارًا.

ورأى الطبيب من خلال عينَي يوسف أول لمحة تضيء له أسرار هذه البلاد العجيبة، وأدرك أن هؤلاء القوم لم يفعلوا ما فعلوه مدفوعين بالقسوة، وإنما كان يحملهم على ذلك

الواجب المقدس عندهم، أجل الواجب الذي يفرض عليهم أن يكفِّر المرء عن ذنبه وإن كانت مسئوليته عن وفاة آخر مسئوليةً بعيدة كل البعد. كانوا ينادون أن النفس بالنفس. وأدرك الطبيب وعقل شعورهم القوي بالعدالة، ولكنه رأى أن هذه حالة من الحالات التي يجب أن تُعرض على قضاء المركز في لامبارينيه ليفصل فيها على الوجه الذي تقضي به النظم.

وكان الأطباء الوطنيون لا يتردَّدون عن اتخاذ كل وسيلة ممكنة للاحتفاظ بسيطرتهم على الناس، وقد عرف الدكتور شفيتزر ذلك أيضًا من يوسف؛ ذلك أنه كان قد سمع برحلة صيد السمك التي اعتاد القوم أن يقوموا بها كل عام في منتصف فصل الجفاف حين تنحسر مياه نهر أوجو، فيخرج أهل القرية بأسرها إلى جسرٍ رملي على مسيرة ثلاث ساعات أو نحوها صُعُدًا في النهر، حيث يقضون هناك أسبوعين، ويقيمون عريشةً من أغصان الشجر يأوون إليها، ويأكلون السمك في كل وجبة مسلوقًا أو محمرًا أو مشويًّا، وكل ما يتبقَّى منهم يجفِّفونه ويدخِّنونه ويعودون به إلى القرية.

وقال الدكتور شفيتزر إذ ذكَّره ذلك بما جاء في التوراة من أعياد الحصاد، حين كان الناس يحتفلون أمام «يهوه»: «وأنت يا يوسف ألَا تريد أن تمضي معهم؟»

وكان يوسف مشغوفًا بصيد السمك حتى إن عينيه كانتا توشكان أن تخرجا من محجريهما عند أية إشارة إلى ذلك، ولكنه لم يُبدِ حماسةً لِمَا عرضه عليه الطبيب وشيكًا من عطلةٍ تُعفيه من العمل، وقال يوسف إنه لا يتعجَّل هذا الأمر، وإنه سوف ينتظر قليلًا ولا بأس من أن يمضي مع القوم بعد ذلك.

وأراد الطبيب أن يعرف السر في ذلك، وتبيَّن علة هذا الإحجام إذ أفصح عنه يوسف بقوله إن القوم لا يصيدون السمك في اليوم الأول، وإنما يعمد شيوخ القوم فيه إلى مباركة مكان الصيد فيصبون في الماء الروم، ويلقون فيه بأوراق شجر الطباق استرضاءً للأرواح الشريرة، حتى تدع السمك يقع في الشباك.

وقال الدكتور شفيتزر متعجِّبًا: ولكنك لا تؤمن حقًّا بمثل هذا السحر؟

وأجاب يوسف: أجل، لا أومن، ولكن إذا تجاسر أحد بكلمةٍ ينال بها من هذه العقائد، بل إذا ابتسم حين يتقرَّب القوم بالروم والطباق للأرواح، فلا مناص من أن يحل به العقاب إن عاجلًا أو آجلًا؛ ذلك أن الأطباء لا تأخذهم في ذلك مغفرة أبدًا، بل إننا في بعض الأحيان لا ندري مَن من الشيوخ هو الطبيب حقًّا.

ولم يكن يوسف ينتهز الفرص فبقي يواصل عمله بالمستشفى حتى حلَّ موعد الصيد، ثم مضى بزَورقه واستمتع به مع بقية القوم.

وحاول الطبيب في صبرٍ وتفهُّم للظروف أن يحارب مثل هذه الخرافات والمخاوف.

أما وقد توافر له بعدُ مستشفًى يأوي إليه، فقد استطاع أن يحتفظ فيه بالأطفال اليتامى ويُعنى بهم، ويغذِّيهم باللبن المحفوظ في العلب المجلوب من أوروبا حتى يستطيعوا أن يُصيبوا من طعام البالغين. وأقبل على المستشفى أيضًا العجائز الذين كانوا قد طُردوا من قراهم لمرضهم وعجزهم وبطلان نفعهم للقبيلة.

وأخذ يوسف ينصح الطبيب مرارًا وتكرارًا قائلًا: لا تئوِ هؤلاء القوم الذين تعلم أنهم لا محالة هالكون؛ فما من أحدٍ من سحرة القرية خليقٌ بأن يفكِّر في مثل هذا الأمر؛ ذلك أن مما يقضي على سمعتهم أن يموت مريض أثناء توليهم علاجه.

وكان كثيرٌ من الأشخاص المساكين المحتضرين الذين طردهم الأطباء السحرة وتخلَّى عنهم ذووهم، يحاولون بوسيلةٍ من الوسائل أن يلجئوا إلى مستشفى ألبرت شفيتزر، أو يُحمَلوا إليه خلسةً بالليل ثم يُتركوا هناك، فيقول له الطبيب: دعهم يجيئوا، فمرحبًا بهم. إن مستشفاي مفتوح لكل من يعانون آلام المرض.

وكان أولئك الذين لا يستطاع استخلاصهم من براثن الموت يعامَلون على الأقل بالحب والحنان، فيخفِّف ذلك عنهم قليلًا عندما تدركهم النهاية المحتومة. وكان الطبيب يخفِّف عنهم من الآلام باذلًا في ذلك غاية ما في وسعه.

على أن يوسف كان مصيبًا في أمرٍ واحد هو أن الطبيب كان يستطيع في أفريقيا أن يكون أمينًا مع مرضاه، فإذا علم أنه لا أمل يرجى في الشفاء بيَّن لهم ذلك في رفقٍ بدلًا من أن يمنِّيهم بالآمال الكذاب، ويخادعهم؛ ذلك أن الموت هناك في أفريقيا كان ولا يزال دائمًا شيئًا طبيعيًّا كالمولد سواءً بسواء، يستطيع الزنجي أن يواجهه في هدوء إذا جاء أجله.

والأطباء يحتاجون إلى الاحتفاظ بقوة عاطفتهم وطاقتها حتى يستطيعوا أن يبذلوا عنايتهم للجميع، ولكن الدكتور شفيتزر بقدرِ ما حاول لم يستطع أن ينتزع من نفسه ما يحس به من شفقةٍ عظيمة وقلق بالغ حيال كل مريض؛ فقد كان يشاركهم الشقاء بآلامهم وضعفهم، ويعتقد أن أية تضحية أو تعب يكابده في سبيلهم، وكل سنة أنفقها في الدرس والاستعداد للقدوم إلى هذه البلاد لا تذهب سدًى حين يرى الفرحة باديةً على أولئك الذين ابتُلوا بالقروح بعد أن ضُمِّدت قروحهم بعناية فلم يعودوا يضطرون إلى جر أقدامهم الواهنة النازفة في الطين. وكان سماعه لمناغاة الطفل يشدو راضيًا بعد أن كان يصيح من الألم أحلى عنده من أي غناء.

وكثيرًا ما كان يتردَّد في سمعه كلمة «أكيوا» ومعناها «شكرًا لك»، وكان كثيرٌ من القوم يؤثرون أن يعربوا عن تقديرهم لفضله بتقديم الهدايا، أو بذل ما يمكن أن يجودوا به من

مالٍ قليل، وقد كان لِمَا بذله رجلٌ في هذا السبيل مغزًى كبير عنده؛ فقد تطوَّع للعمل من أجل المستشفى؛ ذلك أن عم صبي كان قد حُمل إلى هناك وقد غطَّت القروحُ جسمه، أنفق أربعة عشر يومًا يصنع للمستشفى صواوين من صناديق الشحن. وأبدى تاجر زنجي استعداده لأن يقوم عماله بالخدمة، فأمكن بذلك إصلاح سقف كوخ الطبيب.

وكوفئ الطبيب أعظم مكافأة على الإطلاق، حين فرغ من إجراء جراحة لمريض، فلما استفاق أحسَّ الطبيب بيدٍ تمتد إلى يده، وتشبَّث بها، واستمع بفرحٍ إلى الكلمات التي فاه بها المريض قائلًا: لم أعد أحس بالألم، أجل لم أعد أحس بألم!

وقد كتب الطبيب تقريره عن ذلك العام في ظروفٍ مثل هذه الظروف، وقال فيه: «إنه استطاع أن جلس هو ومرضاه جنبًا إلى جنب، وأن يعرفوا عن خبرةٍ معنى الكلمات؛ «كلكم إخوة»!»

الفصل التاسع

«إن السبل التي لا مناص لنا من أن نسلكها لنبلغ الغاية المنشودة قد يغشاها ظلام، ولكن الوجهة التي يجب أن نولِّي وجوهنا شطرها واضحة جلية.»

من كتابه: «فلسفة الحضارة»

وحلَّت فصول، وأدبرت فصول، ولكنها لم تكن هي الفصول التي أَلِفها في الألزاس من قبلُ ألبرت وهيلين شفيتزر، الفصول التي تتفتَّح فيها الأزهار وتورق الأشجار ويثمر النبت؛ فقد كان لا يغشاها ذلك الغسق الطويل المتلبِّث المعهود في الصيف حين تبدو الشمس وكأنها تأبى أن تغرب، وتظل حمرة وهجها باقيةً في السماء ساعات. ولم يكن يحل بهذه البلاد الأفريقية شتاء يطالع المرء فيه تأجج النيران وهي تشتعل في الخشب فيُسمع له قعقعة، ولا رقائق الثلج تسقط على زجاج النوافذ رفيقةً حانية؛ فقد كان النهار يمضي في الوطن الأفريقي معتدلًا دافئًا لا تغشاه برودة قط، وتتفتح الأزهار طوال السنة في الأماكن المكشوفة حيث تغاديها الشمس بأشعتها. وكانت الغابة كعهدها كثيفةً خضراء خضرةً رصينة، لا تتقلَّب ولا تتحول أبدًا، فترى على الشجرة الواحدة براعم جديدةً وأزهارًا وثمارًا ناضجة في آنٍ. وكان القوم لا يقيسون الوقت كما يقيس الناس، وإنما يقيسونه بفصول الجفاف وفصول الأمطار.

وكان وصول ألبرت وهيلين شفيتزر إلى أفريقيا أول مرة قرابة نهاية الفصل المطير، وما إن انتهى شهر مايو حتى كانت الأمطار قد كفَّت عن الهطول، وأصبحت السماء لا لون لها ولا سحب فيها، وأشرقت الشمس كئيبةً من خلال ضبابة معتمة في بياض اللبن غشيت الجو بفعل الحرارة، ورأيا النهر تنحسر مياهه، وبدت جزائر الرمال التي كانت

مختفيةً حتى ذلك الحين كأنها عظام حيوان هزيل جائع. وكان هذا هو الوقت من السنة الذي يمكن أن تشاهد فيه التماسيح غافيةً كأنها عددٌ عديد من الكتل الخشبية منتشرةً على ضفة النهر. وتجمَّعت أفراس النهر في أواخر الليل على جزيرتها المفضَّلة، حيث كانت القناة تتصل بالمجرى الأصيل لتخوض في الماء وتنخر وتمرح. وكان هذا أيضًا هو الوقت من السنة الذي يأخذ فيه الأطفال الوطنيون الصغار في السعال والخنان، ويشكو الرجال الكهول من آلام الروماتزم التي تصيب عظامهم؛ ذلك أن الليالي تكون قرَّةً في فصل الجفاف، فكان الزنجي في كوخ قريته لا ينام إلا قليلًا، وهو يتخذ حصيرًا من القش سريرًا له على أديم الأرض الصلدة القذرة، لا يغطِّيه إلا الخرق القليلة التي يرتديها أثناء النهار.

وقد جرت العادة عند بعض القبائل أن الرجل منهم يقول حين يمضي إلى النوم بالليل: «إني لماضٍ أثني رجلَي حتى تصبحا أربعًا.»

ولكنه كان يقول في وقدة الظهيرة حين يستطيع أن يعوِّض ما فاته من النوم في المساء بقيلولة الظهر: «إني لماضٍ أبسط رجلَي.»

واستمر فصل الجفاف أربعة أشهر حتى بداية أكتوبر، ثم وافت الأمطار لتبقى الثمانية الأشهر الأخرى من السنة. وكانت الريح تهب وقتذاك كل مساء تزأر خفيفة، تهز الأشجار وتتلاعب بها. وهطل المطر نافذًا يروي الأرض ويبلِّل الأديم القذر لجميع أكواخ القرية متغلغلًا فيه، بل إن الشمس حين بزغت في صباح اليوم التالي كان الجو لا يزال تغشاه رطوبة شديدة، فتألَّقت على الشجيرات قطرات من المطر بقيت من الليلة السابقة. وربا النهر سريعًا وبدت أشجار المانجو، وأشجار النخيل، وأشجار الأوكوم بجذوعها الغبراء، وكأنما تركت حينذاك ضفة النهر العالية حيث كانت تقوم منذ يوم أو بعض يوم فحسب، ماضيةً إلى النهر كالأطفال يتمايلون في الماء، وانغمست أغصانها بعيدًا في النهر، فكان منها عريشة خضراء تظلِّل الزورق المار من تحتها.

وحلَّ فصلٌ آخر من فصول الجفاف وها هو ذا الآن يؤذِن بزوال. وكان هذا الفصل هو ثاني فصل شهده الطبيب وزوجته منذ وصلا إلى أفريقيا، وكان الأوان قد آن للبدء في تدبير أمر عطلة يعودان فيها إلى وطنهما في الألزاس، واستقرَّ عزمهما على أن يرحلا قبل حلول الفصل المطير التالي؛ ذلك أنهما بعد أن قضيا سنتين في منطقة خط الاستواء أصبحا في حاجةٍ إلى أن يستجمعا قوتهما ويستردا صحتهما في جوٍّ أطيب وأرطب.

وكانت قد مرت بالطبيب منذ وصوله أوقات كثيرة أحس فيها بخيبة الأمل والسخط، وفكَّر في أنه لا يزال أمامه بعدُ أمور جمة يجب أن ينهض بها، ولكنه كان يعود بذاكرته في

شيءٍ من الرضا ناظرًا إلى كل ما تحقَّق في الستة عشر شهرًا الماضية؛ فقد كان المستشفى الصغير قد أُقيم من لا شيء، وعولج ألفان من المرضى وشُفوا من عللهم قبل أن يُحس الطبيب أو يكاد أن الأمور قد استقرَّت في المستشفى. وكان كل يوم يجيء بمرضى جدد، واستشعر حقًّا بأن الأمر كان يستأهل قدومه إلى هذا المكان. ولم تكن التضحيات التي كان قد أعدَّ نفسه لتحمُّلها بقدر ما توقع.

كان قد أتى إلى قلب أفريقيا ليعيش منسيًّا مغمورًا لا يعرفه أحد إلا المرضى والمحتاجون الذين أقبلوا ينشدون عونه. وكان قد راض نفسه على أن يتخلَّى عن ثلاثة أمور كانت في نظره عظيمة الأهمية؛ ألَا وهي محاضراته وعظاته، والموسيقى التي كان يحبها ويُؤثرها.

على أن جمعية الموسيقار باخ في باريس كانت قد وهبت له بيانو ليحمله معه حين غادر أوروبا، وكان هذا البيانو مخطَّطًا بالمعدن لحمايته من الأرضة والعفن، وله ما للأرغن من دوَّاساتٍ حتى يستطيع أن يمضي في العزف عليه. وظل الطبيب مدةً طويلة لا يأنس في نفسه الإقبال على لمسه. وكان حين حمل البيانو من المرسى وهو بعدُ في صندوق شحنه يرقب ذلك في قلقٍ واهتمام. وكان ثمة عدد غفير من الحمالين حتى بدا للأعين أن صفين من الأرجل والرءوس قد ثُبتت على كل جانب، واستوثق أن البيانو قد فُك عنه بعناية الصندوق الذي شُحن فيه، ولكنه حين حُمل إلى البيت ووُضع في مكانه نظر إليه الطبيب لحظةً ثم أشاح بوجهه عنه، وقال بينه وبين نفسه ما سبق أن قاله وهو يُغادر أوروبا لَخيرٌ له أن يترك أصابعه وقدميه حتى تتصلب من عدم المرانة؛ فقد كانت أمامه هنا أعمالٌ كثيرة جدًّا تقتضي الأداء وسوف لا يُتاح له فسحة من الوقت للموسيقى.

وحدث في ليلةٍ أن تعب من عمل نهاره فجلس إلى البيانو وبدأ يتحسَّس مفاتيحه وأخذ يعزف فوجة باخ وهو لا يكاد يعرف ما يفعل، وأخذ يدير بقدميه دواسات البيانو كأنما هو أرغن، ومضى يعزف ويعزف في ذلك السكون الموحش الذي كان يريم على بيته القائم في الغابة، ولم يجد ثمة ما يدعوه إلى التخلي عن الموسيقى، ورأى أنه خليقٌ بأن يفيد من وقت الفراغ الذي يُتاح له حتى وإن كان نصف ساعة فحسب يقتطعه من مشاغل نهاره محاوِلًا أن يجعل أداءه الفني عميقًا كاملًا ما وسعه، فيتناول في المرة الواحدة مقطوعةً واحدة لا غير من باخ أو مندلسون أو فيدور أو سيزار فرانك، ويدرسها بعناية حتى يُحيط بأدق تفصيلاتها، ويُتابع دراسة هذه المقطوعة، واحدةً واحدة حتى يحفظها جميعًا عن ظهر قلب. ولم يكن هناك ما يحمله على العجلة بعد؛ فلا حفلات موسيقية تقتضيه الإعداد لها، ولا مواعيد مُقرَّرة يضطر الأمر إلى الوفاء بها. كان يستطيع إذن أن ينعم بوقته في هدوء،

ومن ثم أصبح للموسيقى في نفسه معنًى أكبر ممَّا كان لها من قبلُ قط، وكان إحساسه هذا مجرد بداية ردته إلى عملٍ كان قد شرع فيه قبل ذلك بوقتٍ طويل، وظن أن الواجب يفرض عليه أن يتخلَّى عنه. وانبعث مرةً أخرى مدفوعًا بهذه الرغبة المتجددة، يعمل في الطبعة الأمريكية للمجلدات التي كان قد كتبها عن موسيقى باخ.

وكان الدكتور شفيتزر قبل أن يُسمح له بالمجيء إلى أفريقيا قد حُمل على أن يتعهَّد بأن يمارس الطب فحسب، ويكف عن الوعظ، وقد تحقَّق هذا؛ لأن بحثه عن الحق قد أدَّى به إلى الإدلاء في كتبه ببعض الأفكار التي كان أعضاء مجلس البعثات الدينية في باريس يَعُدونها مسرفةً في التحرر.

وقطع الطبيب على نفسه هذا العهد بقوله: «لألزمن الصمت كالعجماوات.»

ولكنه وجد أن الرجال الذين كانوا قد وفدوا إلى أفريقيا للتبشير بين أهلها بالمسيحية لم يكونوا بمستطيعين أن تردَّهم عن سبيلهم مسائل خاصة بالعقيدة؛ ذلك أنهم رأوا أن لا بد لهم أن يرجعوا إلى البساطة المتمثِّلة في الإنجيل إذا أرادوا أن يفهمهم من يستمع إليهم، ولم يمضِ على الطبيب بعد وصوله وقت طويل حتى طلبوا منه أن يُشارك في الصلوات، ووجد أنه لم يعد مضطرًّا للتخلي من الوعظ.

وكانت تجربة محبَّبة بالنسبة للطبيب أن يعرِّف القوم بدينٍ يقوم على الحب بعد أن كانوا لا يعرفون إلا دينًا واحدًا يقوم على الخوف والقسوة. وأية سبيل كان في مقدوره أن يلتمسها لهدايتهم خيرٌ من التمثل بكلمات المسيح في موعظة الجبل أو أقوال بولس الرسول؟

وكان المدرس أويمبو الذي يحمل اسمُه معنى «الأغنية» يساعده بتفسير مواعظه بلغة الشعب، فكان يأتي في مساء السبت إلى بيت الطبيب ويدرس معه الموعظة جملةً جملة ويناقشانها، فإذا وجدا فيها تعبيرًا لا يستطيع القوم أن يفهموه مثل «كَرْمة» أو «حقل من القمح»، اقترح عليه أويمبو أن يعدل عنه إلى شيءٍ مألوف لديهم.

وكانت ثمة صلة ترتبط بين هذين الرجلين اللذين أقبل أحدهما من قريةٍ صغيرة في أعماق الغابة، وأقبل الآخر من كراسي الأستاذية في حواضر أوروبا. وكان الدكتور شفيتزر ينظر إلى أويمبو نظرته إلى رجلٍ من خيرة من لقي من معارفه الكثيرين، ويرى أنه يندر أن يجد المرء شخصًا أُحسنت تسميته كما أُحسنت تسمية أويمبو؛ ذلك أن أويمبو قد جعل من حياته أغنيةً عذبة.

وكان كثيرون من شباب أفريقيا بعد أن يتلقَّوا علومهم في مدارس البعثات الدينية، لا يفكِّرون إلا في شيءٍ واحد هو أن يغادروا قراهم الوطنية ويبحثوا عن وظيفةٍ دينية في

الحكومة، أو يعملوا صيارفةً في محل تجاري في حاضرةٍ من الحواضر. ولكن أويمبو كان قد أدرك حاجات قومه وآثر أن يبقى فيما أخذ به نفسه من عمل؛ لأنه أراد أن يُساعد قومه على الارتفاع بحياتهم، ولو أنه كان يُمنح مرتَّبًا قليلًا نظير قيامه بالتعليم في مدرسة من مدارس البعثات الدينية، كما أن عمله لم يكن سهلًا يسيرًا. وكان أمثاله أويمبو وزوجته التي لا تقل عنه ذكاءً وأولادهما الثلاثة الذين نشئوا نشأةً طيبة، كفيلين بأن يجعلوا مستقبل أفريقيا مستقبلًا مأمولًا، ولئن قُيض لأفريقيا أُسَر كثيرة مثل أسرة أويمبو لاستطاعوا أن يجعلوا من أفريقيا قارةً عظيمة، وكان الأفريقيون يسألون الطبيب في كثيرٍ من الأحيان: تُرى كيف حال هذه البلاد؛ بلاد البيض؟ وإلى أي حدٍّ تختلف عن بلادنا؟

وكان الخلاف بينهما في بعض النواحي أشد من أن يستطيع معه الطبيب أن يبيِّنه لهم، ولكن المرء إذا تدبَّر حال رجال من الوطنيين مثل أويمبو لوجد أن هذه البلاد وتلك تتشابه تشابهًا كبيرًا في غير ذلك من النواحي.

وحدث مرةً في رحلةٍ قاموا بها على متن زورق أن سأله الرجال الذين جلسوا إلى المجاديف هذا السؤال ثانية: تُرى كيف حال البلاد التي أتيت منها؟

فأجاب الطبيب وهو ينظر إلى الغابة المظلمة القاتمة رابضةً كالسور الأخضر المرتفع على ضفتي نهر: إن لدينا من ناحيةٍ نيرانًا عظيمة تشب في الغابات أحيانًا عندما تكون الريح شديدةً والأمطار قليلة.

وروى الطبيب كيف تشتعل الأشجار الحية، وتضرب نيرانها في الجو ويمتد اللهيب سريعًا من شجرةٍ إلى شجرة حتى تضطرم الغابة كلها بالنيران، وهذا شيءٌ لا يستطيع أن يتصوره أولئك الذين يعيشون في مثل هذا الجو المليء بالرطوبة أو يكادون؛ فإن من العسير هنا حتى في فصل الجفاف إشعال كتل الخشب التي كانت قد اقتُطعت وادُّخرت حين سُويت الأرض لزراعة الموز، ولكن ما أعجب أن يحدث هذا للأشجار الحية! كيف يمكن أن تشتعل أبدًا؟

وقال الطبيب وقد تألَّقت عيناه بومضة؛ ذلك أنه كان عندئذٍ قد عرف من لغتهم ما يمكِّنه من أن يفهم الأغنية التي كانوا يغنُّونها عن مبلغ ما يلاقونه من مشقة: «وثمة ناحية أخرى هي أنه يوجد في بلادنا من يخرجون في زورق لمجرد النزهة.»

فسأله الرجال: أيفعلون ذلك حتى إذا لم تضطرهم الحال إلى القيام برحلة؟ وإذا لم يكن عندهم بضاعة يقتضيهم الأمر نقلها؟

وهل ثمة سبب آخر يمكن أن يحمل المرءَ على أن يخرج في زورقٍ ويجدِّف؟

وأجاب الطبيب: إنهم يفعلون ذلك لِمَا فيه من رياضةٍ لأنهم يريدون التريُّض.

وضحك الرجال لمجرد التفكير في أن قومًا يبلغ بهم الحمق أن يمارسوا عملًا بدنيًّا كالتجديف لتسيير زورق دون حاجة تضطرهم إلى ذلك؛ لا شك أن الطبيب يبالغ في القول.

وأرادوا أن يزدادوا علمًا فسألوه: وما هي الفروق الأخرى؟

وفكَّر الطبيب في يوسف الذي كان لا يزال يضع النقود في حصَّالته ليدخر مالًا يشتري به زوجة، ولا يزال يُنفقه في شيءٍ لا يمكن أن يرد نفسه عن شرائه.

وقال الطبيب: إن الرجال يتزوَّجون هناك دون أن تضطرَّهم الحال إلى شراء زوجاتهم بالمال.

وهزَّ القوم رءوسهم لقوله، وظنوا أن هذا لا يمكن أن يكون حقًّا، ورأوا أنه كان يداعبهم ويسخر منهم بنكته لأنه كان يعتقد أن هذا هو غاية علمهم، وهل سمع أحدٌ قط برجلٍ تزوَّج دون أن تضطره الحال إلى أن يدفع لأسرة زوجه ما تطلبه من مال!

وكانت أوروبا تبدو بعيدةً عن أفريقيا آنئذٍ كل البعد في صيف عام ١٩١٤م، ولم يكونوا قد سمعوا عنها أية أنباء منذ بداية شهر يوليو، وها هو ذا شهر أغسطس قد مضى بعضه الآن، ولكن لم يهتمَّ أحدٌ كثيرًا بهذا الأمر؛ لأن الزوارق كانت بطيئةً والبريد يستغرق أسابيع حتى يبلغهم. وكان القوم في قلب أفريقيا لا يعنيهم الوقت إلا قليلًا في تلك الأيام، وكل يوم يمضي كسابقه يقضونه في علاج المريض وتغذية الأطفال وكسوتهم وتعليمهم. وإذا بالأنباء تأتي منذرةً بقيام حرب، حرب يُحس بها الناس في جميع أرجاء العالم بل في أقصى أطرافه!

وكان الطبيب قد أعد دواءً لامرأة مريضة في رأس لوبيز، وبعث به مع يوسف إلى المخزن القائم في لامبارينيه، راجيًا القوم هناك أن يبعثوا به إلى المريضة في الزورق عند قيامه برحلته التالية هابطًا النهر.

ورجع يوسف ومعه رسالة قصيرة نصها:

> «إن القوم في أوروبا يعبِّئون الجيوش، والراجح أن الحرب قد نشبت بالفعل، ويجب علينا أن نضع زورقنا تحت تصرُّف السلطات؛ ولذلك لا نستطيع أن نحدِّد الوقت الذي يقوم فيه برحلته التالية إلى رأس لوبيز.»

وجاءت الأنباء في اليوم التالي بأن الحرب أُعلنت، وفي هذا المساء نفسه أُعلِن الدكتور شفيتزر وزوجه أنه يجب عليهما الآن أن يعدا نفسيهما أسرى حرب.

وقد كانت الألزاس في يومٍ من الأيام جزءًا من الجمهورية الفرنسية، إلا أن الألمان كانوا قد استولوا عليها قبل مولد الدكتور شفيتزر بخمس سنوات، وعُدَّ هو وزوجته لذلك في زمرة المواطنين الألمان، ونُظر إليهما وهما يعيشان هنا في مستعمرةٍ فرنسية على اعتبار أنهما من رعايا الأعداء، وأُبلغا بأنه لا مانع من أن يُسمح لهما بالبقاء في البيت الذي كانا يشغلانه بشرط ألَّا يتصلا أي اتصال بالبيض أو السود. وأُنفِذ جنود من الوطنيين مرتدين السراويل والقمصان الزرقاء الخاصة بالبحارة، واضعين على رءوسهم الطرابيش الحمراء ذات الزر إلى مقر البعثة الدينية؛ ليقفوا على بابها حراسًا ويتثبَّتوا من أن أفرادها يطيعون الأوامر.

ووجد الطبيب أن ممَّا يدعو إلى العجب أن يستيقظ في باكورة الصباح وهو يعلم أنه يجب عليه أن يبقى في البيت لعجزه عن أن ينزل إلى المستشفى؛ ليعرف كيف كان حال المرضى بالليل. وكان يجد نفسه في كثيرٍ من الأحيان جالسًا إلى البيانو يسرِّي عن نفسه ويتساءل هل يقيَّض له بعدُ أن يرى أوروبا، وإذا قُيض له ذلك فكيف تكون حال أوروبا؟ وراح يفكِّر في شباب فرنسا وألمانيا وقد رقد كثيرٌ منهم في الخنادق جرحى يعانون الآلام. أهذا هو الطريق الذي سيقت إليه الحضارة وهل هو بداية سقوطها؟ وبدأ يسجِّل الأفكار التي تدور برأسه وإن كان يعلم أن ثمة احتمالًا أن يُنزع منه كل ما كتبه لأنه أسير حرب.

ولم يكن الأفريقيون بقادرين على أن يُدركوا السبب الذي دعا إلى تحديد إقامة طبيبهم المفاجئ، وأخذوا يعنِّفون الحراس الوطنيين وتساءلوا ما الذي يقصدونه بإقامة أنفسهم سادةً على الطبيب العظيم، يحدِّدون له ما يفعل وما لا يفعل؟ وكذلك فعل الأوروبيون فاحتجوا أيضًا لأنهم لم يجدوا سببًا وجيهًا يدعو إلى حرمانهم من خدمات الطبيب الوحيد القائم بالعمل في رقعة تبلغ مئات الأميال، وكان من النادر أن يمر يوم دون أن يجد قائد المنطقة نفسه مضطرًّا إلى أن يبعث إلى الحراس رسالةً يوصيهم فيها بأن يسمحوا لحاملها بأن يلقى الطبيب لأنه في حاجةٍ إلى علاج. وظلَّت الحال على هذا المنوال ثلاثة أشهر حتى تدخَّل الرجل المؤمن شارل فيدور المقيم في باريس فأطلق سراح ألبرت وهيلين شفيتزر، وأخذ العملُ في المستشفى يسير سيرته الأولى.

وأخذت أنباء الحرب تصل بانتظام لا بأس فيه، وكانت الرسائل تُبعث من رأس لوبيز أو من ليبرفيل بالبرق إلى قائد المنطقة في لامبارينيه كل أسبوعين. وكان القائد يبعث بدوره بالأنباء إلى المخازن وإلى مراكز البعثات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية يحملها جندي وطني.

وفي يومٍ من الأيام بدأ يوسف يشكو وهو يُساعد الطبيب في تضميد جروح مريض: لقد ارتفع ثمن كل شيء الآن.

وأجاب الطبيب: يجب ألَّا نتحدَّث على هذا النحو يا يوسف، ألَا ترى أمارات القلق باديةً على وجوه الطبيب وزوجه وغيرهما من أعضاء البعثة الدينية؟ إن للحرب في نفوسنا معنًى أكبر من ارتفاع الأسعار، فإننا جميعًا محزونون من أجل إخواننا الذين يُصابون بالجراح ويموتون في ساحة المعركة.

ونظر يوسف إليه مُتعجِّبًا كأنما أدرك للمرة الأولى معنًى كان خافيًا عليه.

وتواترت الأنباء بأن الرجال البيض الذين كانوا قد تركوا هذه المنطقة من أفريقيا ليخوضوا غمار المعارك الدائرة في أوروبا قد قُتلوا في الحرب واحدًا بعد الآخر.

وهتف أفريقي شيخ متعجبًا حين سمع بأن عشرةً منهم قد قُتلوا: أهكذا يُقتل مثل هذا العدد الكبير في الحرب؟

ولم يفطن الرجال إلى أن عدة آلاف من بلادٍ أخرى قد قُتلوا على هذا العدد، ثم أردف: لمَ لا تجتمع قبائلهم لتدبير حل لهذا؟ وكيف يُتاح لهم بأية حال أن يدفعوا الفدية عن كل هؤلاء القتلى!

وكان الرجل الشيخ يعلم أن الحال قد جرت في الحروب الوطنية التي وعتها ذاكرته منذ شبابه بأن كل من يُقتل فيها سواء أكان من المنتصرين أم من المنهزمين يدفع الطرف الآخر ديته، وكان ثمة شيء آخر اهتم له الرجل؛ فقد تساءل: من الذي يدعو الأوروبيين الذين لا يأكلون القتلى الذين يسقطون في ساحة المعركة إلى قتل هذا العدد الغفير، إلا إذا كانوا مدفوعين إلى ذلك بالقسوة، والقسوة وحدها؟

وكان يُقبل على الطبيب أناسٌ آخرون حائرين يسألون كيف يقتل البيض الآن بعضهم بعضًا في حين أن دينهم يحض على المحبة. ولم يحاول الدكتور شفيتزر أن يفسِّر لهم الأمر أي تفسير.

ولم يملك إلا أن يُجيبهم بقوله: إننا حيال شيء فظيع يعجز المرء عن فهمه.

وفي عيد ميلاد المسيح الذي حلَّ وقتذاك حُملت إلى البيت شجرة نخيل صغيرة بدلًا من شجرة الميلاد التي تُجلب في هذا العيد، وتدلَّت من أغصانها حُلي زاهية وأُوقدت الشموع في الغسق، فأضفت على جو الغرفة وهجًا رقيقًا يبعث على الانشراح والسرور، وكان ضوءُها يضطرب في نسيم الليل ملقيًا ظلالًا تتراقص على الجدران وفي الأركان.

واستطاع الجمع الذي التأم شمله في مركز البعثة الدينية من المواطنين الفرنسيين والألمان والأفريقيين أن ينسوا الحرب لحظةً قصيرة ويتغنَّوا بأناشيد عيد الميلاد ويتبادلوا

الهدايا الصغيرة. وكانت أشجار المانجو وأشجار قطن الحرير القائمة خارج الدار يصدر منها حفيفٌ رقيق والريح تُداعب أغصانها، وانطلق نهر أوجو يجري ساكنًا وقورًا، وكانت النجوم ترسل ضوءها الشاحب على أديم الثرى؛ نجوم الدب الأكبر ونجوم صليب الجنوب وعناقيد النجوم التي تتألَّف منها المجرة. وفي مثل هذه الليلة الهادئة الساكنة سواءً بسواء، وفي مكانٍ إلى الشمال من ذلك لا يبعد كثيرًا عن هذا المكان، انطلقت الملائكة منذ زمنٍ بعيد تشدو للرعاة وهم يرعَون قطعانهم: «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة.»

وأطفأ الطبيب الشموع حينما احترقت إلى أنصافها.

وسألته زوجته: ولكن لمَ فعلت ذلك؟

وأجاب الدكتور شفيتزر: إن هذه الشموع هي كل ما لدينا، وخيرٌ لنا أن ندَّخرها للعام المقبل.

– للعام المقبل؟

وهزَّت رأسها هزة حزن وأسًى، فمن يدري ما الذي يأتي به العام المقبل؟

وأحسَّ الطبيب بمبلغ ما كان في عمله من رحمة؛ إذ استطاع أن يخفِّف الآلام ويُنقذ الأرواح البشرية، على حين وجد عددٌ غفير من الناس أن الواجب يقتضيهم أن يُنزلوا بغيرهم الشقاء والموت. وكانت شحنةٌ من المؤن الطبية غادرت أوروبا قُبيل إعلان الحرب تحاول أن تشق طريقها إلى لامبارينيه.

وكان معنى هذا أن العمل في المستشفى يمكن أن يمضي في طريقه؛ لأن هذه الشحنة كانت تشتمل على عدة صناديق من العقاقير والضمادات، على أن هذه الشحنة كان ينبغي أن تكفيهم وقتًا طويلًا، فمن يدري متى يستطيعون أن يبعثوا إليهم بشحنةٍ أخرى؟

وكانت مشكلة الغذاء أكبر من مشكلة الدواء؛ ذلك أن قطعانًا من الفيلة كانت تتجوَّل في البلاد تأكل الموز وتطأ نبات المانيوق، وكان في استطاعة قطيع من عشرين فيلًا أن يدمِّر مزرعةً بأسرها في ليلة واحدة ويصيب القرية بالجوع عدة أشهر، ولم يكن أحدٌ يدري متى يصل هذا القطيع؛ ذلك أن الفيلة وإن كانت ضخمة الجثة بطيئة الحركة، إلا أنه كان لها أسلوبٌ في السير ملتزمةً الصمت كأنها الريح الهامسة. وكانت تستطيع أيضًا أن تحجب آثار أقدامها عن العيون؛ فترفع بخراطيمها الأغصان وتقذف بها وراءها، تختفي نهارًا في المستنقعات التي في أعماق الغابة، وتُقبل بالليل إلى الأماكن التي استطلعتها من قبل.

وقد شكا بعض الأهالي الأفريقيين ذات يوم حين كانوا يركبون متن زورق مع الطبيب، وقالوا: لو أننا كنا الآن مع السيد كاديار لأصاب لنا ببندقيته زوجًا من النسانيس أو بعضًا

من الطيور نأكل لحومها، ولكنك تمر بتمساحٍ مقتربًا منه أشد القرب، ولا تبادر أبدًا حتى بلمس بندقيتك، ولا يمكن بحالٍ أن يمر بنا حادث ونحن في صحبتك.

ورأى الدكتور شفيتزر طيور الماء تدور وتحوم في خفةٍ ورشاقة، وتمرق مروق السهم فوق سطح النهر ولا يستطيع أن يحمل نفسه على اقتناص طير واحد منها، أو يُطلِق النار على نسناس يتمايل على الأغصان العالية لشجرةٍ من الأشجار فيصبح هدفًا سهلًا لأي صياد. وكان يحدث في كثيرٍ من الأحيان أن يكون نسناسٌ منها مجروحًا فحسب، فيقع في الكلأ حيث لا يمكن أن يناله أحد. وأسوأ من هذا أن يقع في أسر الأغصان الكثيرة الأوراق، ويموت هناك موتًا بطيئًا مؤلمًا، ولو استطاع المرء أن يجد جثته فإن من المحتمل أن يجد أيضًا نسناسًا وليدًا يصيح صياحًا متقطِّعًا ويتشبَّث بأمه الميتة تشبثًا يثير في النفس الحسرة والأسى.

وأحس الناس في جميع أرجاء العالم بالحرب الدائرة في أوروبا، فلا يُستثنى من ذلك أقصى الأماكن في قلب أفريقيا، ولم يتأثر القوم هناك بارتفاع الأسعار وندرة الغذاء ونقص العمل في مضارب الخشب فحسب، بل سرعان ما سيق أهل نهر أوجو إلى الخدمة العاملة حمالين في مستعمرة الكاميرون العسكرية.

وكان ألويز الطباخ يسأل كل مرة يأتي فيها البريد: ألَا تزال الحرب دائرةً أيها الطبيب؟

– أجل يا ألويز لا تزال الحرب دائرة.

وهمس ألويز هازًّا رأسه: أوه، لا، لا، أوه! لا لا لا! أوه، لا لا لا؟

وفي نجومو، وهي قريةٌ بين رأس لوبيز ولامبارينيه، حُملت طائفةٌ من الحمالين على ظهر مركب بخاري نهري إلى المركز الذي حُدِّد لهم، ووقف الطبيب الذي كان قد استُدعي إلى هناك ليعالج زوجة أحد رجال البعثة الدينية على ضفة النهر، ليرى المركب وهو يغادر نجومو. واحتشد جمعٌ من النسوة يولولن نائحات على أبنائهن وأزواجهن الذين حُملوا بعيدًا عنهن، ورأين المركب وهو يتحرَّك ببطء ماضيًا في سبيله حتى غاب على البعد آخر أثر من آثار دخان المركب، فلما اختفى المركب عن أنظارهن ذهبن إلى حال سبيلهن، وبقيت امرأة منهن جلست وحيدةً على حجر، وراحت تبكي في سكونٍ على ذلك الشيء الذي لم تستطع أن تفهم له علةً ولا سببًا. وشخص الدكتور شفيتزر إليها وأمسك بيدها محاولًا أن يفكِّر في كلماتٍ يسرِّي بها عنها، ولكنها مضت تبكي كأنها لم تسمعه أو تشعر حتى بوجوده، وإذا به يشعر هو الآخر أنه يبكي لبكائها متوجِّهًا إلى النهر الخالي والشمس الغاربة.

وكان قد أقبل في هذه الرحلة على مركبٍ بخاري صغير يجر ناقلةً مشحونة بالبضائع، ومضى وهو جالسٌ على سطح هذه الناقلة يفكِّر كيف كانت الأمم المتحضِّرة في هذا العالم تشن بعضها الحرب على بعض، وما الذي يمكن عمله ليحول دون تدمير الحضارة التي أقيمت خلال السنوات الماضية جميعًا تدميرًا كاملًا شاملًا؟ ولم يكن الحل أن يُدير المرء ظهره للعالم، ويستغرق في التفكير في القضايا العليا؛ فنحن إلى ذلك نعيش في هذا العالم كما أننا جزء منه. وإذا كان الإنسان يتقدَّم من الناحية الروحية فإن ذلك يجب أن يتم بالتسليم بما وقع في هذا العالم لا بإنكاره؛ فنحن محتاجون إلى مثلٍ نعمل في سبيله، أجل محتاجون إلى شيءٍ يجعل هذا العالم مكانًا للعيش أفضل ممَّا هو عليه، لكن شعلةً مثل الإنسان تشتعل في الدرك الأسفل، ولا مناص من التماس منهج جديد للتفكير يعود بنا إلى مثل الحضارة الحقة.

وبينما كان الطبيب يفكِّر في هذه الأمور رفع بصره فوجد قطيعًا من أفراس النهر يستحم في النهر ويقفز، وتفرَّقت أفراس النهر؛ إذ دنا المركب، كل فريق في سبيل، وكان ذلك في ساعة الغروب حين ألقت أشعة الشمس على النهر وشاحًا من الذهب المتألق، وبدت السماء بأسرها كأنما اقتنصت حرارة النهار، وأمسكت بها واستبقت حمرة اللهيب لحظات قليلةً قبل أن تغيب.

«أنا حياة تريد أن تحيا في غمرة حياة تريد أن تحيا.»

كانت هذه الفكرة تراوده منذ كان طفلًا حتى قبل أن يستطيع أن يجد الكلمات التي تعبِّر عنها؛ ذلك أن كل مخلوق حي عند إرادة الحياة مثله سواءً بسواء، وكل مخلوق حي له هذا الحق.

«احترام الحياة». ولقد واتته هذه العبارة على غير انتظار دون أن يبحث عنها؛ فلو أن كل إنسان يستطيع أن يحترم الحياة هذا الاحترام بحيث لا يقتصر احترامه لها عليه فحسب، بل يتعداه إلى الآخرين أيضًا، لكان لنا أن نأمل في قيام حضارة مجيدة في المستقبل.

فلما عاد الطبيب إلى مركز البعثة وإلى مستشفاه القائم هناك، بدأ يعاود تأليف كتابه الذي كان قد بدأه حول الحضارة والأخلاق، فكان يجلس كل مساء حين يفرغ من العناية بالمرضى إلى منضدته القائمة بجوار باب الشبك المؤدِّي إلى الشرفة، وقد رقد تحتها ظبي وليد متكوِّمًا تحت قدميه مستسلمًا لنومٍ هادئ، وراحت كلبته كارامبا تنبح خارج الدار نباحًا خفيفًا من حينٍ إلى حين كلما سمعت صيحةً غريبة تنبعث من الغابة، لعلها كانت

صيحة غوريلا أو فهد يبحث عن فريسة، لا لشيءٍ إلا لتُشعر الطبيب أنها يقظى تقوم بالحراسة. وأخذ الطبيب في مكانه هذا الذي خلا فيه بنفسه إلا من ضوء مصباح زيتي يلقي وهجه الحاني على الأوراق التي أمامه، يسجِّل الأفكار التي كانت تدور في رأسه منذ وقتٍ طويل.

«إن وراء إرادة الحياة التي تتملَّكني رغبةً متأججة في أن أحيا حياةً أخرى، وأن أبلغ ذلك السمو الخفي بإرادة الحياة الذي نسميه اللذة، يساورني في الوقت نفسه خوفٌ من الدمار، ومن ذلك الهبوط الخفي الذي يصيب إرادة الحياة ونسميه الألم، أجل إن هذه الأشياء التي تلازم إرادة الحياة تحيط بي، سواء استطاعت أن تفصح لي عن نفسها أم ظلت بكماء لا تفصح ولا تُبين.»

وانبعثت ريح المساء تهب رفيقةً من خلال الباب المصنوع من الشبك، وراحت صراصير الليل تصر صريرًا ملحًّا خارج الدار، وأشجار النخيل تتمايل في حفيفٍ هامس، واستيقظ الظبي النعسان، ومدَّ الطبيب يده تحت المنضدة ليربت عليه، وألقى نظرةً على الساعة، وكان الواجب يقتضيه قبل أن تبلغ التاسعة أن يهبط إلى المستشفى ليمر مروره الأخير على المرضى ويستوثق من أنهم ينعمون بالراحة، ولعل كثيرين منهم كانوا ينتظرونه في مراقدهم تحت الكلل (الناموسيات)؛ ليستمعوا إلى كلماته وهو يمر بهم قائلًا: طابت ليلتكم، وأرجو لكم نومًا هنيئًا.

إن المثل الأعلى لـ «احترام الحياة» ينطوي على كل ما يمكن أن نصفه بالحب والولاء والعطف، سواء في الشقاء أو الهناء أو الكفاح.

وقد سمَّى ذلك: «الوحدة المباركة في الغابة العذراء»، وهل كان يستطيع أبدًا أن يوفيها حقها من الشكر على ما كانت تعبِّر عنه من معنًى في نفسه!

وأقبل عيد ميلاد المسيح مرةً أخرى، واحترقت أنصاف الشموع التي ادُّخرت من العام الماضي حتى الذُّبالة فوق شجرة النخيل المزدانة.

وأخذ المالَ الذي جلبه الطبيب معه، وظنَّ أنه يكفي للإنفاق على المستشفى سنتين، يتضاءل سريعًا، وتتراكم الديون عليه، وشحَّت المؤن الطبية إلى حدٍّ يبعث على الأسى، وندر الغذاء. صحيح أنه كان لديه بعض علب اللبن المحفوظ لإطعام الأطفال، فلما نفد لم يدرِ أحد متى يمكن أن يرسَل إليهم منه المزيد.

وترك يوسف المستشفى؛ إذ لم يكن المستطاع أن يُدفع له المرتب الذي كان يتقاضاه.

وقال يوسف: إن كرامتي لا تسمح لي بالعمل نظير أجر أقل ممَّا كنت أتقاضاه.

وعاد الرجل ليعيش مع أبويه في القرية التي وُلد فيها، وكانت تقوم على جزيرةٍ عبر مجرى النهر، وحمل معه حصالةً كان قد ادَّخر فيها أربعين دولارًا من ثمن الزوجة التي كان يريد شراءها، ولكن هذا القدر من المال أنفقه يوسف رويدًا رويدًا كسابقه في شراء أشياء كان يحتاج إليها أو أشياء استهوته في حوانيت لامبارينيه. وكانت الحياة الزوجية لا تزال بعيدةً في ضمير المستقبل بالنسبة إليه.

وترك أويمبو أيضًا مركز البعثة الدينية وفي كنفه زوجة وثلاثة أطفال في طور النمو، وكان من العسير عليه أن يدبِّر أموره في حدود المرتَّب الصغير الذي يتقاضاه المدرس، فلم يجد بعدُ بُدًّا إزاء ارتفاع الأسعار وانخفاض مرتبه بقدر ما تيسَّرت حال البعثة الدينية أن يعتزل العمل في البعثة ويبحث عن عملٍ آخر.

ثم حلَّ عيد ميلاد آخر، والحرب لا تزال دائرة، وزُيِّنت شجرة النخيل الصغيرة بالحُلي، ولكن القوم لم يجدوا شموعًا لتضيئها. أجل كان هذا هو عيد ميلاد المسيح الثالث الذي حلَّ منذ نشبت الحرب، ولم تتردَّد بعدُ ولا إشاعة تبشِّر بالسلام، وظلَّ المرضى يُقبلون وانضم إلى زمرتهم عددٌ من الأوروبيين قِوامهم أعضاء بعثات دينية من مراكزَ أخرى، وباعةٌ وتجار أخشاب حالت الحرب دون رجوعهم إلى ديارهم، وكثيرًا ما كان الطبيب يتخلَّى عن سريره لمريضٍ، وينام على جزء من الشرفة حُجِب بحاجز.

وكان وقت الظهيرة الذي يفرغ فيه الطبيب من العمل بين الغداء والساعة الثانية مساءً التي يحل فيها موعد استئناف العمل في المستشفى، هو الوقت الذي يُنفقه الطبيب في الموسيقى، فيتمرَّن على قطع باخ المعدة للأرغن حتى يشعر بأنه يستطيع أن ينفذ إلى صميم معناها في يُسرٍ واستيعاب أكثر. وكان يمضي في تأليف كتابه في المساء بعد العشاء حتى تبلغ الساعة التاسعة، ويحل موعد نزوله لأداء زيارته المسائية للمستشفى، وكان الكتاب قد بدأ بعدُ يكتمل، وكان قد سماه «فلسفة الحضارة».

وآذن الفصل المطير بالزوال وحلَّ الوقت الذي يبدأ فيه النمل الزحاف زحفه. وكان يخرج مرتين في العام، في أول الفصل المطير وفي آخره، يتقدَّمه خمس نملات أو ست، بنظامٍ كامل على نحو ما يفعل الجنود في تشكيلاتهم. وتتخذ النمل السود الضخمة المحاربة مراكزَ للحراسة، معترضةً طريقًا أو رابضةً في مكانٍ مكشوف، وقد اصطفَّت صفوفًا على جانبَي الطابور الزاحف. وتقف ساعات موليةً ظهورها للموكب الزاحف، تواجه برءوسها ذات الفكوك القوية، التي تكاد تبلغ في حجمها بقية أجسامها، أيَّ عدو يُحتمل أن يهاجم الموكب.

وكانت النمال الصغيرة تمر سريعًا وهي آمنة بفضل هذه الحماية، تحمل صغارها معها وتندفع في عجلةٍ شديدة، حتى ليحدث أحيانًا أن تجد نملةٌ محاربةٌ نفسَها قد جُرفت مع النمل المندفع كأنها قطعةٌ من الخشب يحملها تيار النهر المتدافع، ثم تسترد توازنها وتعود إلى مكانها الأول.

ولهذه النمال أسلوب تقصد به صفوفها فجأة، وتتفرَّق كأنما تلقَّت إشارةً خفية بذلك، فلا تلبث أن تُصبح في غمضة عين كتلةً سوداء مائجة تنتشر على أديم الأرض ملتهمةً كل كائن حي يعجز عن الهروب فيصبح في متناول يدها، من صراصيرَ في العشب إلى حياتٍ تعجز عن الزحف السريع بعيدًا عنها، وخنافس وضفادع وفئران وقطط من قطط الزباد ... كل هؤلاء يقع فريسةً لها. بل إن العناكب الكبيرة في الأشجار لا تستطيع الهرب؛ لأن النمال تزحف صاعدةً حتى تبلغ أعلى فرع فيها، فإذا حاول عنكب أن ينجو منها قافزًا إلى الأرض، وجد أخوات لها على الأرض متأهِّبةً للانقضاض عليه.

وكان بيت الطبيب يقع في طريق زحفها نصف الحَوليِّ، وقد هبَّ أكثر من مرة مستيقظًا بالليل على صوت نذير من كتاكيت حظيرة الدجاج تنطلق مقرقِرةً نابشة الأرض بأقدامها. وكانت إذا سكنت أصوات الليل الأخرى فجأة، وصمتت طيور الليل والصراصير والضفادع، علم أيضًا أن النمال استأنفت زحفها من جديد، فلا يجد بدًّا من أن ينطلق سريعًا ليفتح باب حظيرة الدجاج حتى يُتيح للكتاكيت الهرب، وتتناول زوجته في هذه الأثناء البوق من فوق الحائط وتنفخ فيه ثلاث مرات، فيهب لمساعدتها من يستطيع النهوض من مرضى المستشفى، أو ممن يلازمونهم من أقاربهم. وتُملأ الدلاء من ماء النهر وتُمزج بمطهِّر الليزول، وتُرش حول البيت وتحته على ضوء المصابيح، وتندفع النمال المحاربة إلى الدفاع زاحفةً فوق الطبيب والرجال الذين يعملون معه. وكانت عضتها ضاريةً تنغرس فكوكها في اللحم، وتتعلَّق به تعلُّقًا شديدًا حتى إنه لو أفلح المرء في انتزاعها انتزاعًا يفصل أجسامها عنها فإن فكوكها تبقى مغروسةً في اللحم، ولا مناص من انتزاعها فكًّا فكًّا.

وكانت النمل إذا شمَّت رائحة الليزول تمضي إلى مكان آخر في صفوف زاحفة تحميها النمل المقاتلة، لتتفرَّق مرةً أخرى حيث تأمن شر الهجوم.

وكان الأفريقيون يعرفون هذه المخلوقات حق المعرفة، فما إن يلمحونها وهي تقترب حتى يحمل أفراد الأسرة جميعًا حصيرهم الذي ينامون عليه ويغادرون الكوخ تاركيه للنمل يفعل به ما يشاء؛ ذلك أنهم يعلمون بأن الأمر سينتهي بهم حين تمضي النمل إلى حال سبيلها بالعودة إلى بيوتهم، فيجدونها قد تطهَّرت من جميع ما فيها من الديدان

والصراصير والفيران، بل من حيَّاة المامبا التي قد تكون كامنةً في السقف المقام من الطين والقش.

وكتب الطبيب يقول: «على أن العالم يمدنا بقصةٍ رهيبة لإرادة الحياة المتنازعة فيما بينها، فتحافظ حياةٌ على نفسها على حساب حياةٍ أخرى، وتدمر حياةٌ حياةً أخرى. وإنما هي نظرية الإنسان بإرادة غيره في الحياة، بتفكيره في إرادته هو في الحياة.»

ومضى يكتب: «بل إن الإنسان إذ يحترم حياة الآخرين يجد نفسه في كثيرٍ من الأحيان مضطرًّا إلى الحياة على حساب إنسانٍ آخر. وإن المرء ليُضطر مرارًا وتكرارًا إلى أن يُحمِّل نفسه وِزر تدمير حياة أخرى، أو إصابتها بالضر؛ لينقذ حياته أو حياة مخلوق آخر، ويحاول أن يتجنَّب هذه الضرورة حينما استطاع ذلك، وتصبو نفسه إلى الاحتفاظ بإنسانيته، وأن يخفِّف عن الآخرين بعض شقائهم.»

وبدأت تظهر على زوجة الطبيب آثار ثلاث سنين وأكثر قضتها في المناطق الحارة؛ لا تصيب من الطعام إلا ذلك القدر الضئيل الذي كانت تسمح به الحرب. وكان الطبيب أيضًا محتاجًا إلى قسطٍ من الراحة وتغيير الهواء. وقدَّم تاجر أخشاب، كانت زوجته قد عولجت في المستشفى وشُفيت، إلى ألبرت وهيلين شفيتزر كوخًا يقوم عند مضاربه بالقرب من رأس لوبيز على مصب نهر أوجو. وكان هذا الكوخ مأوى الرجال الذين كانوا موكَلين بأطواف الخشب، ثم خلا من ساكنيه حينما نشبت الحرب وتعذَّر شحن الأخشاب.

وأفاد هذا التغيير الطبيب وزوجه، وأنعش قواهما الهواء الطيِّب الخالص الذي كان يهب من البحر. وكان السمك وافرًا في الجون، فأتاح لهما أن يأكلا في عشائهما كل يوم سمك الرنكة الطازج.

وكان قليلٌ من العمال قد بقوا هناك؛ ذلك أنه كان لا يزال بعدُ أطواف من الخشب في الجون. وخرج الدكتور شفيتزر مع هؤلاء العُمال ليشاركهم في عملهم، وراح الرجال يفكون رباط الكتل الخشبية الثقيلة من شجر الأوكوم التي كانت مشدودةً بعضها إلى بعض، ويُدحرجونها على أديم الأرض اليابسة حتى يأمنوا عليه شر الدود الثاقب. وكان يمضي وقتٌ طويل قبل أن تُحمل شحنة من هذه الكتل مرةً أخرى على ظهر المراكب إلى مصانع أوروبا وأمريكا التي تصنع منها خشب الألواح.

وخرج الطبيب ذات مساء في نزهةٍ على الأقدام، ومرَّ بطائفةٍ من الأكواخ المهجورة التي شُيدت حين كان عدد العمال في هذا المكان أكثر من ذلك بكثير، ووجدها الآن تتهاوى أطلالًا، تستخدمها القبائل التي كانت تمر بهذا المكان مضاجع يلتمسون فيها المأوى بليل.

وانطلق الطبيب ينادي لعله يجد كوخًا منها قد سكنه بالمصادفة ساكن، فلم يجبه أحد. وهنالك فتح بابه ليستوثق فألفى في الكوخ الأخير رجلًا يرقد على أديم الأرض القذر ورأسه يكاد يكون مدفونًا في الطين والرمل، وقد غشيه النمل.

وكان الرجل لا يزال يتنفس، ولكن الطبيب أدرك لأول وهلة أنه كان فريسةً لمرض النوم، وقد تُرك هناك ليقضي نحبه؛ إذ عجز عن أن يذهب إلى أكثر مما ذهب.

وجثا الدكتور شفيتزر بجوار الرجل وفعل كل ما في وسعه ليُطهِّره ويُريحه في ساعاته الأخيرة؛ فقد رأى من خلال باب الكوخ المفتوح زُرقة ماء الجون الصافية تزهو في إطارٍ من الغابات الخُضر. لقد كان مشهدًا ساحرًا في جماله، تسكب عليه الشمس الغاربة ضوءها المتألق الذهبي. وكان ممَّا يروع النفس ويهزها هزًّا أن يرى المرءُ بلمحةٍ واحدةٍ مثل هذا الجمال والبؤس الذي لا دافع له، وهنالك آمن الطبيب بأن هذه هي أفريقيا في كامل شعرها ونثرها.

الفصل العاشر

«إن من يفكِّر في فعل الخير يجب عليه ألَّا يتوقع من الناس أن يُزيلوا الحجارة من طريقه، ولا حيلة له إلا أن يتقبَّل نصيبه راضيًا وإن زادوا هذه الحجارة أحجارًا.»

من كتابه: «خلاصة حياتي وأفكاري»

وكانت ثلاثة أعوام قد انقضت على ذلك اليوم من شهر أغسطس الذي وافتهما فيه رسالة تنبئ باندلاع لهيب الحرب في أوروبا، ولم يلُح بعدُ أملٌ يبشِّر بالسلام. واستمرَّ عملهما في العناية بالمرضى قائمًا في لامبارينيه، ورأس لوبيز، ونجومو، أو في غيرها من البلاد التي كان يُدعى إليها الطبيب، باستثناء الأشهر الثلاثة الأولى التي ظلَّ فيها الدكتور شفيتزر وزوجته ملازمَين بيتهما في حراسة الحراس. ثم أتى الأمر فجأةً بأن يُحمل هذان الزوجان إلى أوروبا أسيرَي حرب، وجاء في الرسالة أن سفينةً يُترقَّب وصولها في أي وقت، وأن الزوجين يجب عليهما أن يكونا متأهبَين لمغادرة أفريقيا دون إعلان آخر.

واندفعا يجمعان كل متاعهما ويحزمانه في أقفاص، وأقبل جيرانهما أعضاء البعثة الدينية الفرنسية لمساعدتهما. كما أقبل لهذا الغرض أيضًا رجلٌ أمريكي كان يُقيم في القرية وقتذاك. وراح الزوجان يُثبِّتان بالمسامير أغطيةً فوق الأقفاص التي شملت آخر ما بقي عندهما من عقاقير ومؤن طبية وضمادات، ويضعانها في خزانةٍ صغيرة من الحديد المموَّج حيث يأمنان عليها.

وقد تناول الطبيب مخطوط كتابه وتفحَّصه، واستقرَّ رأيه على ألَّا يحمله معه لأنهم سوف يُصادرونه بلا شك، فيضيع عليه عملٌ أنفق فيه السنتين الماضيتين.

وسأل الطبيب الرجل الأمريكي المستر فورد: هلَّا تتفضَّل فتحفظ لي هذا عندك حتى تنتهي الحرب؟

ووافق الرجل وتقبَّل هذه الكومة الثقيلة من الأوراق المكتوبة بالألمانية من فلسفة الحضارة، وقال إنه سوف يحفظها له بدافع الصداقة، وإن كانت تساوره الشكوك في صواب هذا العمل.

وبادر الطبيب إلى وضع ملخص قصير للكتاب باللغة الفرنسية، ظل يعمل فيه حتى تأخر به الليل، وحزمه ليحمله معه احتياطًا لِمَا قد يحدث إذا فقد الكتاب الأصلي الكامل.

ومن حسن التوفيق أن السفينة وصلت متأخرةً فأتاحت للطبيب فسحةً من الوقت يقضي فيها بعض الأمور القليلة التي تُقضى في آخر لحظة. وحُمل إليه رجلٌ من إحدى القرى المجاورة ليُجري له جراحةً عاجلة، وكان عليه أن يزوِّد المريض ببعض الإرشادات قبل أن يرحل هو وزوجه إلى وطنهما. وتساءل الطبيب: ماذا يكون من أمرهما الآن؟

فلمَّا وصلت السفينة وبدأت تمضي إلى المرسى في لامبارينيه، تولَّى حراس من الوطنيين حراستهما حتى بلغوا بهما سطح السفينة، ومضى الأب الأكبر للبعثة الفرنسية الكاثوليكية صاعدًا إلى السقالة، ودفع الحارس جانبًا محاوِلًا أن يستبقي الطبيب.

وقال وهو يصافح الطبيب وزوجه: لا يمكن أن تغادرا هذه البلاد دون أن أشكركما جميعًا على كل ما أسديتماه من فضلٍ لنا.

ووقف ألبرت وهيلين على سطح السفينة النهرية الصغيرة ليُلوِّحا بأيديهما مودِّعَين أولئك الذين اجتمعوا لوداعهما، وكان من هؤلاء زملاؤهما الفرنسيون في البعثات الدينية ومستر فورد الأمريكي، والأب الأكبر وقد لبس رداءه الأبيض وخوذته، وكان هؤلاء من مواطني دول تحارب بعضها بعضًا، ولكن هذه الحرب لم تُغيِّر شعور الصداقة والولاء اللذين كان يُحس بهما كل منهم نحو الآخر.

وكان من المودِّعين أيضًا زنوج قدم هؤلاء إلى أفريقيا من أجلهم، وقد وقف الزنوج قريبين كلَّ القرب من الماء، وراحوا يصيحون مردِّدين كلمات الوداع والسفينة تتحرك رويدًا رويدًا، وغامت وجوههم في نظر المسافرين على البعد. ومضى بعد ذلك وقتٌ طويل إلا أن ألوان ثيابهم ظلت تتألق في أعينهما، حمراء زاهية وزرقاء وصفراء تختلط بالسمرة القاتمة لأجسام أولئك العرايا أو يكادون، الذين أقبلوا من أعماق الغابة لوداعهما، وكان من بينهم عدد قليل التفُّوا بنسيجٍ أبيض قذر، استرسل في طيات حولهم، كأنهم القديس إلعازر ملتفًّا في كفنه.

وطافت بمخيلة الطبيب والمركب ينساب هابطًا النهر أفكار عن تلك الآلاف الكثيرة من القوم الذين دخلوا المستشفى وخرجوا منه منذ أن بدأ العمل فيه لأربع سنين ونصف سنة خلت، وذكر منهم الشيخ المجذوم وزوجته العجوز اللذين جدَّفا مائتين وخمسين ميلًا في زورقٍ مصعدين في النهر؛ لأنهما كانا قد سمعا عن أوجانجا، الطبيب الأبيض الذي أوتي رُقًى سحرية تشفي المرضى. وذكر الزوجين العجوزين اللذين أقبلا عليه وقت المجاعة مريضَين يكادان يتضوَّران جوعًا لأنهما لم يكونا قد أصابا طعامًا منذ يومين. وذكر الصبي الصغير الذي كان قد أخرجه الفزع من وعيه حتى اضطُروا إلى حمله بالقوة إلى غرفة الفحص الطبي، وقد علم الطبيب بعد ذلك أن الصبي كان واثقًا من أن الطبيب كان يقصد قتله والتهامه كما لا يزال القوم يفعلون في القرية التي أتى منها.

ولَّما بلغت السفينة رأس لوبيز صعد رجل فرنسي كانت زوجته قد عولجت وشُفيت في مستشفى لامبارينيه إلى الطبيب وعرض عليه أن يمده بشيءٍ من المال إن كان قد خلا وفاضه منه. وقد تبيَّن للطبيب مرارًا، من مثل هذه الأمور الصغيرة، أن الخير الذي انطوت عليه قلوب الناس لا يمكن لشيءٍ أن يغيِّره على الرغم من الحروب وما ينشأ عنها من كراهيةٍ وقسوة.

ولَّما ركب الطبيب وزوجته متن الباخرة التي تشق عباب المحيط عائدةً بهما إلى أوروبا، سيقا إلى الغرفة المُعَدة لها وصدرت الأوامر بمنعهما من رؤية أي شخص أو التحدث إليه فيما عدا الخادم الذي خُصص لهما، وكان هذا الخادم ويُدعى جيَّار يحضر لهما الطعام، ويصعد بهما على ظهر الباخرة في ساعاتٍ معلومة ليستنشقا الهواء ويتنزَّها. وكان الطبيب في الساعات الطويلة التي تتخلل ذلك يشغل وقته بتذكُّر بعض فوجات باخ وسيمفونية فيدور الثالثة المعدة للأرغن، ويتمرَّن عليها بالنقر بأصابعه على النَّضَد متخيلًا أنها أرغن، كما كان يفعل وهو بعدُ طفل أصغر من أن يبلغ مفاتيح الأرغن. واتخذ من أديم الأرض العارية دواسات.

وقال له جيَّار الخادم يومًا وقد أشرفت الرحلة على الانتهاء: هل لاحظتَ الطريقة التي عاملتُك بها، وهلَّا علمتَ أنه لا يحظى بهذه المعاملة الطيبة إلا القليلون من أسرى الحرب؟ أمَّا عن وجبات الطعام التي كنت أوافيك بها فقد حرصت على أن أقدِّم لك كل شيء طيب نظيف، وكنت أُعنى بغرفتك دائمًا عنايتي بغرف الآخرين، ولا أترك فيها شيئًا قذرًا.

وأمَّن الطبيب على قوله وتساءل ما الذي يريده بعد؟

ومضى الرجل يقول: فهل تستطيع أن تخمِّن لمَ فعلت ذلك؟ إنني لم أفعله ارتقابًا لشيءٍ من المال تنفحني به؛ فإنني لا أقبل هذا من أسير حرب، ولأُخبرنك بالسبب؛ فقد حدث منذ أشهر قلائل أن ركب رجل يُدعى جوشيه متن هذه الباخرة عائدًا إلى فرنسا، ونزل في غرفةٍ من الغرف التي أتولى خدمتها، وقال لي الرجل: «يا جيَّار، قد يحدث في القريب أن تحمل الطبيب من لامبارينيه إلى أوروبا أسير حرب على هذه الباخرة، فإذا حدث هذا فإني أسألك أن تعد من أجلي أن تساعده بكل ما تستطيع.» وأخبرني هذا الرجل أنه كان مريضًا في مستشفاك، وقال لي إنك شفيته من مرضه، وبعدُ — ثم أضاف الخادم قائلًا بابتسامة — «ها أنت ذا تعلم لمَ عاملتك هذه المعاملة الطيبة.»

ورست الباخرة في بوردو، وخطا الطبيب وزوجه أول خطوة على أرض أوروبا الأولى بعد غياب خمس سنوات أو نحوها، وكانت عودتهما إلى الوطن مختلفةً كل الاختلاف عمَّا تخيلاه عندما غادراه لأول مرة، وظنا أنهما سيعودان إليه في مدى سنتين ليقضيا فيه إجازتهما.

ووُضعا في ثكناتٍ موقوتة مع غيرهما من رعايا الأعداء، ثم حُملا بعد ثلاثة أسابيع إلى مكانٍ في جبال البرانس قرب التخوم الإسبانية؛ إذ حضر إليهما رجلان من رجال الشرطة في منتصف الليل يركبان عربةً ليذهبا بهما إلى هناك، وكان الأمر الذي صدر إلى الطبيب وزوجه من قبل، وأوجب عليهما أن يكونا مستعدَّين للرحيل قد أُبلغ إليهما في تلك الليلة بالذات. وكان الطبيب الذي أضعفه الألم والحمى وقتذاك قد التبس عليه الأمر، ظانًّا أن الليلة المقصودة هي التالية، فانتظر إلى أن يطلع الصباح ليبدأ في حزم حقائبه.

وهاج الشرطيان وماجا إذ وهما أن ما فعله الطبيب كان ضربًا من العصيان للأمر، ووقفا ينتظران متململَين، وراح الطبيب وزوجه يحاولان جمع حاجياتهما على ضوء مصباح خافت ويدسانها في الصناديق. وهدَّد الشرطيان مرةً أن يمضيا بهما دون متاعهما إن لم يعجلا بحزمه.

وتعهَّد الدكتور شفيتزر بينه وبين نفسه وهو ماضٍ يحزم متاعه: «إذا كان قد مرَّ بي قط موقف ضقت فيه بالآخرين، فإني من هذه الليلة لن أفقد صبري مرةً أخرى مهما كان السبب.»

وأشفق عليهما الشرطيان آخر الأمر، بل مدَّا لهما يد المساعدة في حزم حقائبهما باحثَين عن الكتب والملابس وزجاجات الدواء ليضعاها في الصندوق.

فلمَّا بلغ الطبيبُ وزوجه المعسكر في جبال البرانس، فُتحت الصناديق وأُخرج كل ما فيها لتفتيشه.

وانطلق حارس ممسكًا في يده ترجمةً فرنسية لكتاب «السياسة لأرسطو»، يهدر قائلًا: انظروا! كيف يأتي بكتبٍ في السياسة إلى معسكرٍ من معسكرات أسرى الحرب!

وتجاسر الطبيب فأوضح الأمر قائلًا: تلك ترجمةٌ لكتاب أُلِّف قبل مولد المسيح بوقتٍ طويل!

وسأل الحارسُ رجلًا آخر يقف قريبًا منه: أحقًّا يقول أنت أيها العالم الواقف هناك؟

وأومأ الرجل برأسه مؤمِّنًا على ذلك.

وصاح الحارس: ماذا تقول؟! أكان الناس يتحدَّثون في السياسة في زمنٍ غابر كهذا؟

وأجاب الطبيب والعالم: أجل!

وأجاب الحارس: لا بأس، ويمكنك، فيما يخصني، أن تحتفظ بهذا الكتاب، ولا أظن أن القوم في ذلك الزمن الغابر كانوا يتحدثون في السياسة على نحو ما نتحدث نحن الآن.

وردَّ الحارس الكتاب إلى الحقيبة، وألمَّ سريعًا بباقي محتوياتها وأجاز ما فيها. وأُنقذ ملخَّص كتاب الطبيب عن الفلسفة الذي كان قد ترجمه إلى الفرنسية، وسُمح له بأن يحتفظ بمئونته من العقاقير التي كان قد جلبها معه.

وكان المكان الذي بلغاه دَيرًا في يومٍ من الأيام يحُج إليه المرضى من أقاصي البلاد ودانيها يرجون الشفاء. وكان خاليًا يتهاوى أنقاضًا رُويدًا رُويدًا منذ أن استولت عليه الحكومة لعدة سنين خلت، وقد أصبح من بعدُ مأوًى لحشدٍ عجيب مختلط من الناس حُجزوا هناك، وراحوا يرطنون بألسن متبلبلة متعددة، ويلبسون أرديةً تنتمي إلى أممٍ مختلفة كثيرة. وكانوا يجتمعون في فناء الدير مرتين في اليوم لمناداة أسمائهم، وكان من بينهم تُركٌ في سراويل فضفاضة وقد ألقت زوجاتهم على وجوههن أنقبةً فلم تبدُ منها إلا عيونهن السود، وعرب في ثيابهم البيض المسترسلة وطرابيشهم الحمراء، وقسسٌ من مستعمرات فرنسا في أفريقيا في عباءاتهم البيضاء، ونَوَر يرتدون ملابس زاهية اللون وقد تدلَّت الأقراط من آذانهم، وفنانون وعلماء في صداراتهم المخملية وأربطة أعناقهم المنسابة، ورجال السفن التجارية في زي الملاحين، ورجال آخرون ارتدَوا أردية رجال الأعمال البسيطة القاتمة اللون.

وكان منهم أيضًا صُناع أحذية وخياطون وصيارفة وتُجار ومهندسو عمارة، ومهندسون ونُدُل، ومديرو فنادق، وفنانون وعلماء وموسيقيون، قد احتجزتهم الحرب جميعًا في بلادٍ غير بلادهم، ولكن لم يكن بينهم طبيبٌ آخر غير طبيبنا، وكان ثمة طبيب

أرياف عجوز يمارس مهنته فيما جاور الدَّير، ويُستدعى كلما احتاج الأمر إليه للعناية بمريض.

ومرَّت الأيام في المعسكر، كل منها كسابقه. ومضى بعض المحتجزين بدافع الضيق والملل يذرعون الفناء الصغير رَوحةً وجيئةً مرارًا وتكرارًا مثل الحيوانات الحبيسة، يمدون أبصارهم في شوقٍ ولهفة من حينٍ إلى حين متطلعين فوق الأسوار العالية إلى السماء الزرقاء وما وراء الأسوار من جبال تُكلِّل هاماتِها الثلوجُ المتألقة. واجتمع آخرون لِممًا صغيرة يتحدَّثون عن الحرب والسياسة ويحمى بينهم وطيس الجدل؛ ينتصر بعضهم لفريقٍ وينتصر بعضهم للفريق الآخر، وانطلق أيضًا آخرون لم يعتادوا الكسل والخمول يبحثون عن شيءٍ يفعلونه إزجاءً للوقت، وأخذوا يرمِّمون الدَّير القديم بقدر ما وسعهم، أو مضوا، بإذنٍ من محافظ المعسكر، يساعدون الزراع على جني محصولاتهم، وعجز آخرون عن المُضي في العمل، فشرعوا ينحتون من قِطَع الخشب أدوات صغيرة. وأقبل رجلٌ على الدكتور شفيتزر بعد وصوله بيومٍ إلى معسكر الاعتقال، وسأله أيستطيع أن يؤدِّي له أية خدمة؟

ومضى الرجل يقول: أود أن أُعرِب عن تقديري لك لإبرائك زوجتي من مرضٍ ألمَّ بها.

وتحيَّر الطبيب لدى سماعه كلامه؛ لأنه لم يذكر أنه رأى يومًا الرجل أو زوجته، وشرح له الرجل الأمر قائلًا: لقد لقينا رجلًا من أهل هامبورج يُدعى كلاسن في أحد معسكرات الاعتقال التي أُرسلنا إليها، وأعطى كلاسن زوجتي حين مرضَت دواءً قال إنك وصفته له قُبيل أن يُحمل إلى هنا من أفريقيا، فشفاها سريعًا.

وهنالك ارتدَّ إلى ذاكرة الدكتور شفيتزر ما غاب عنها، وكان ريتشارد كلاسن تاجر خشب من ألمانيا، احتجزته الحرب في أفريقيا الاستوائية الفرنسية، فأصبح أسير حرب. وكان الدكتور شفيتزر قد أعدَّ له بعض العقاقير ليحملها معه، ووضع على كل زجاجة إرشادات مفصلةً تُبيِّن العلل التي تُستخدم فيها هذه العقاقير وطريقة استعمالها. وإن الطبيب لجديرٌ بعد أن ينال نظير أتعابه شيئًا يُصنع من أجله في معسكر الاعتقال، وكان الشيء الذي يحتاج إليه الطبيب أشد الحاجة منضدة، ووجد القوم بعض الألواح السائبة في علية الدير تصلح لصنع المنضدة.

فلما تم صنعها، استأنف الطبيب العمل في تأليف كتابه، مسترشدًا هذه المرة بالملخَّص الذي كان قد أعدَّه لكتابه باللغة الفرنسية.

> إن احترام الحياة ينطوي على كل شيء يمكن أن يوصف بأنه الحب والولاء والعطف، سواءٌ في الأفراح أو في الأتراح أو في الكفاح.

واتسع الوقت للطبيب لا للكتابة فحسب، بل للموسيقى أيضًا، واتخذ من النَّضَد أرغنًا، ومارس العزف كما فعل من قبلُ وهو على ظهر المركب، وراح ينقر بأصابعه على أديمها الخشبي وقدماه على الأرض كأنما كان يجد فوقها دواسات، واستطاع أن يتمثَّل في خياله أن يسمع ألحان باخ ومندلسون.

وسأله في الفناء يومًا أسنُّ رجلٍ في طائفةٍ من النَّوَر: هل أنت ألبرت شفيتزر الموسيقي؟ أجل، ذلك الموسيقي الذي تحدَّث عنه رومان رولان في كتابه «موسيقيو اليوم»؟

وسُرَّ النَّوَر حين أجاب الطبيب بنعم، ودعَوه، وهو زميلهم في الموسيقى، إلى مشاركتهم حين اجتمعوا في علية الدَّير للعزف على الكمان والتمرن عليه.

وكان محافظ معسكر الاعتقال يؤدي واجباته في عدل، ورحمة، وفَهمْ أيضًا. وقال المحافظ إنه إذا سمح للموسيقيين بالاحتفاظ بآلاتهم الموسيقية للتمرن عليها، ولأطباء الأسنان أن يدخروا أجهزتهم ليمضوا في عملهم إذا اقتضى الأمر ذلك، وللنجارين أن يُبقوا على عدتهم ليستخدموها، فإن العدل كل العدل أن يسمح للطبيب الوحيد في المعسكر أن يزاول طبه. وكان الدكتور شفيتزر، بفضل خبرته والعقاقير التي في حوزته، أكفأ في معالجتهم من طبيب الأرياف الذي كان في طريقه إليهم.

وهناك قولٌ مأثور في الألزاس بأن العمل عبادة، وقد كان العمل في ذلك الشتاء بركةً على الدكتور شفيتزر وبركةً على أولئك الذين عُني بهم. وكان إذا سار بين المرضى أو جلس إلى نَضَده يكتب، أو يذكر الموسيقى ويمارسها بالنقر بأصابعه، استطاع أن يرفع عن كاهله إلى حينْ المشاغلَ التي كانت تؤرِّق باله. لقد أصبح وطنه مرةً أخرى ميدان قتال تتقاتل في سبيل امتلاكه الأُمتان اللتان أحبهما، وتساءل عن الأحداث التي كانت تمر بقومه هناك؟ وكيف كان حال والديه؟ وأخيه وأختيه؟

وماذا يا تُرى أصاب أمه في العماد بارث، وعمه لويس، وعمته صوفي، وجميع أصدقائه الأعزاء الذين عرفهم في ستراسبورج؟

وكان الرجال الآخرون الذين ودوا أن يستغرقوا في العمل يحسدون الطبيب على كثرة مشاغله وتعدُّد وظائفه، وأبدى الخياطون الذين كانوا مشتاقين إلى أن تتوافر في أيديهم مقصات وإبرة، رغبتهم في أن يصنعوا لزوجة الطبيب رداءً من بعض قطع المنسوجات التي كانت لديها، لا لشيءٍ إلا للاستمتاع بالعمل.

وقد أرادت طائفةٌ من المعتقَلين قِوامها: حذَّاء وصانع سِلال، وصانعة قُبعات وخَيَّاط، وصانع فرش، أن يتولَّوا أمر المطبخ. وقالوا إنهم يستطيعون أن يمارسوا ذلك أفضل من

أولئك الذين كانوا آنئذٍ يتولَّون شئون المطبخ، ولو أنهم كانوا جميعًا على حد روايتهم، من أرباب الحِرَف السابقين. ولمَّا رأى المحافظ إلحاحهم، استقرَّ رأيه على أن يحاولوا ذلك على الرغم من أنه لم يكن بينهم أحدٌ مارس الطبخ من قبلُ قط.

وقال لهم: إذا أفلحتم أمكنكم أن تقوموا بمهام الطباخين، أما إذا فشلتم فسوف يُلقى بكم في المحابس، وتُغلَق دونكم الأبواب والأقفال جزاءً لكم على ما أثرتم من متاعب.

وأجمع الرجال على أن قوله هو الحق والعدل، ومضَوا إلى المطبخ، وفي هذا اليوم الأول أعدوا غذاءً من البطاطس والكرنب يليق بملك، ومن يومها أصبحت كل وجبة يُعِدونها تَفضُل سابقتها. واتفق رأي الجميع على أنهم كانوا خيرًا من الطباخين الأصلاء، أولئك الذين اشتغلوا يومًا في مطاعم باريس الراقية، وحُملوا على أن يمضوا في عملهم طباخين بمعسكر الاعتقال.

وسأل الدكتور شفيتزر زعيمَ تلك الطائفة الذي كانت مهنته الأصلية حذَّاءً: كيف حالك؟ وكيف تستطيع أن تُعِد مثل هذه الوجبات الشهية بما يُلقى إليك، ودون أن تكون لك خبرة بالطهو؟ وما سرك؟

فأجاب الحذَّاء: لا شك أن ثمة أشياء من مختلِف الأشكال والأصناف يجب أن يتعلَّمها المرء، ولكن أهمها أن يطهو المرء الطعام طهو المُؤثِر لهذا الفن يبذل فيه عنايته.

والحياة في معسكر الاعتقال ثقافة في ذاتها؛ فقد أَلِف الطبيب نفسه أن يلتقط نُتَفًا من المعارف في ذلك الشتاء لم يكن ليجدها في الكتب أو يتلقَّاها في الكليات أو الجامعات، وتعلَّم وهو حبيس بين جدران الدَّير العالية مع أناسٍ من عدة جنسيات مختلفة ينتهجون في الحياة عدة سبل مختلفة، أشياء متباينةً أشد التباين مثل الصيرفة والعمارة وإقامة المصانع وتشييد الأفران، على يد قومٍ متخصصين في هذه الميادين، وانطلق الموسيقيون النَّوَر يتحدَّثون عن ممارستهم العزف في المطاعم الفرنسية، ومديرو الفنادق والخياطون والتجار عمَّا زاولوه من أعمال.

وكان من أشفق عليهم الدكتور شفيتزر هم أولئك القلقون الذين لم يستطيعوا أن يُغرقوا أنفسهم في العمل، فسمَّاهم أطفال معسكر الاعتقال الشاحبين المقرورين؛ ذلك أنه لم تكن لهم رغبة في الطعام، مع ما بلغ من جودته آنذاك، وغدَوا ضعفاء يعانون من سوء التغذية، حتى إن أقل مرض يُصيبهم كان خليقًا بأن يُصبح علةً خطيرة. وكان يراهم يذرعون الفناء يومًا بعد يوم، أو يتلبَّثون في الدهاليز إذا اشتدَّ هطول المطر فمنعهم من الخروج إلى العراء، وقد فترت هممهم وتملَّك نفوسَهم الحزنُ والكآبة، وأصبح ولاؤهم نهبًا

مقسَّمًا بين البلاد التي وُلدوا فيها والبلاد التي آثروا أن يعيشوا بين ربوعها، وكان بعضهم قد بنى بزوجاتٍ فرنسيات، ورُزقوا أولادًا لا يتحدَّثون غير اللغة الفرنسية. واستمع الطبيب إلى حديثهم وهم يتكلَّمون عن مشاكلهم، وكان لِمَا أبداه نحوهم من عطفٍ وما أظهره من فهمٍ لمشاكلهم أثر في نفوسهم أفعل من أي دواء.

وكان الشتاء في ذلك العالم قارسًا عجيبًا في برودته، وقد عانى منه خاصةً أولئك الذين قدموا من رقدة الحر في خط الاستواء، ولكن هواء الجبل كان جافًّا خالصًا على الرغم من برودة الجو، ولم يلبث الطبيب وزوجته أن أحسا بدبيب العافية يسري في أوصالهما مرةً أخرى.

وما إن وافى الربيع حتى صدر الأمر بأن يُنقل ألبرت وهيلين إلى معسكر في سانت ريمي من أعمال بروفانس، حيث حُمل إليه الألزاسيون دون سواهم، ووجد ألبرت هناك أصدقاء قدماء، بعضهم عرفهم من أيام الطفولة، وبعضهم كانوا أقرانه في التحصيل وزملاءه، وكان محافظ هذا المعسكر يعامل معتقليه بالود والعدل، شأن محافظ المعتقل السابق.

وكان كثيرًا ما يقول حين يُسأل أمباحٌ أن يفعل المرء كيت أو كيت: «ما من شيءٍ مباح»، ثم يضيف وفي عينه وميض: ولكن ثمة أشياء تُباح إذا التزمتم جادة العقل.

وما لبث برد الشتاء في هذا العام أن تأخَّر به الوقت، وحلَّ الربيع رطبًا كئيبًا تُغاديه ريح شمالية باردة تهب من جبال الألب، وكذلك كان بناء المعسكر في سانت ريمي بحديقته المسوَّرة، دَيرًا استولت عليه الحكومة منذ وقت طويل، فلمَّا مضى الدكتور شفيتزر في أول مرة إلى قاعة الاستقبال الفسيحة في الطبقة الأرضية، ساوَرَه شعورٌ عجيب بأنه رآها من قبلُ في مكانٍ ما؛ فقد كان في كآبة القاعة السافرة وبلاطها الحجري، وموقدها المصنوع من الحديد بماسورته التي تمر من جانبٍ إلى آخر، شيءٌ معروف مألوف، على أنه كان يعلم أنه لم يمثل في هذا المكان من قبلُ قط طوال حياته.

وتكشَّف له اللغز آخر الأمر؛ ذلك أنه كان قد رأى هذه القاعة في صورة من رسم الفنان فان جوخ، وكان الدَّير القديم قد استُخدم حتى عهد قريب فحسب، مستشفًى للأمراض العقلية، وكان هذا الفنان قد نزل به مريضًا، يجلس في قاعة الاستقبال الفسيحة كما يفعل الطبيب الآن، ويتمشَّى في الحديقة الصغيرة بين الجدران العالية، ويُحس بريح الشمال تهب على بلاط الدهليز البارد كما لا تزال تهب اليوم.

وأتت الأنباء بعد ذلك بثلاثة أشهر ونصف شهر، مخبرةً بأنهم سيُرَدون جميعًا إلى أوطانهم في الألزاس، في مقابل عدد مثلهم من أسرى الحرب الفرنسيين الذين كانت ألمانيا

تحتفظ بهم. وسرت في أرجاء المعسكر جميعًا جَلَبة تُفصح عن اهتياج مشاعر المعتقلين؛ إذ راح كلٌّ منهم يحزم متاعه ويُعِد العدة للرحيل.

وحمل الدكتور شفيتزر مُسَودات كتابه «فلسفة الحضارة» الذي ظل يعمل فيه وهو في كلا المعسكرين وأطلع الرقيب عليها، ووُضعت الأختام على المُسَودات وسُمح بإخراجها.

وبينما كانت القافلة تمر من خلال الباب حاملةً إياهم إلى محطة السكة الحديد، اندفع الدكتور شفيتزر عائدًا إلى مكتب المحافظ ليودِّعه، فوجد المحافظ هناك جالسًا مكتئبًا وحيدًا؛ ذلك أنه كان متأثرًا أبلغ التأثر برحيل أولئك الألزاسيين، الذين كان موكلًا بهم وكان يحب أن يسميهم «نزلائي».

ولم يستشعر الدكتور شفيتزر أية مرارة في قلبه، كما كان ينتظر أن يفعل، لقضائه تلك الأشهر في معسكرَي الاعتقال، وأدرك أن هذا الإجراء يجب أن تتخذه كل أمة في حالة الحرب تأمينًا لسلامتها، وإنما كان حزينًا من أجل أولئك الذين كانوا يخوضون الحرب في ميدان المعركة وفي الخنادق، يشقون أو يجلبون الشقاء على غيرهم. أما عن نفسه فقد كان يستشف الخير في أعماق قلوب الناس، وإن لم يُظهروا إلا القليل من الشفقة حيال أصدقائهم وأعدائهم على السواء. وتذكَّر ذلك الرجل المسكين الكسيح الذي عالجه في أحد المعسكرَين، وساعده هذا الرجل على حمل متاعه إلى المحطة، ولم يكن الكسيح يملك من المتاع إلا القليل، وبينما كانا يسيران هو والطبيب معًا في شمس شهر يوليو اللافحة قطع الطبيب على نفسه عهدًا آخر؛ فقد نذر إكرامًا لهذا الرجل أن يسعى دائمًا إلى رعاية كل من ناء كاهله بمتاعه في محطات السكة الحديد حيثما وجده. وتذكَّر أيضًا أولئك الرجال والنسوة الفرنسيين الذين صادفوا في محطةٍ من المحطات الصغيرة القائمة على طول الطريق القطار الذي كان يُقل الدكتور شفيتزر وزملاءه، فظنوا أنه القطار القادم من ألمانيا يحمل أسرى الحرب الفرنسيين، وساروا يحفُّون بركابه إلى مناضد محمَّلة بما لذ وطاب من طعام. فلمَّا تبينوا خطأهم فجأةً شعر الطرفان بالحرج أول الأمر، ثم اشتركوا جميعًا في الضحك من أعماق قلوبهم، وسرى بينهم شعورٌ من الصداقة والود.

وبينما كان القطار ماضيًا في طريقه يحملهم خارج فرنسا أخذ يزداد طولًا وطولًا بالعربات التي كانت تلحق به من المعسكرات الأخرى، وقد امتلأت عربتان منها بصُناع السلال ومُصلحي الغلايات وسنَّاني المقصات والأفاقين والنَّوَر، كل أولئك كانوا يُستبدلون أيضًا بغيرهم من الأسرى.

ومضى القوم مسافةً قصيرة مجتازين سويسرة المحايدة، بمزارعها وكرومها الخُضر الأنيقة وبيوتها النظيفة، ثم عبروا التخوم إلى الألزاس، وكأنما انتقلوا إلى كوكبٍ آخر؛ فقد

كان الناس في الألزاس نحافًا، وجوههم شاحبة، وقد بدت عليهم أمارات الإعياء الشديد، وكانت الطرقات في الليل مظلمة، ولا ينبعث من البيوت أي بصيص من نور.

ولَمَّا كانت جونسباخ قريبةً جدًّا من خط النار، فقد اضطُر الدكتور شفيتزر إلى طلب ترخيص من ستراسبورج بالسماح له بالمضي إلى جونسباخ، ولم يستطع حتى بعد حصوله على الترخيص أن يمضي بالقطار إلا إلى كولمر، ولم يجد بُدًّا من قطع الأميال العشرة الأخيرة على قدميه سائرًا بين خطوطٍ من الأسيجة المقامة من الأسلاك الشائكة والقش، وكان أينما التفت وجد قواعد من الآجُر أقيمت للمدافع الرشاشة، وألفى البيوتَ التي مرَّ بها واحدًا بعد واحد قد دمَّرتها نيران المدافع، ورأى التلال التي أحبَّها يومًا لِمَا كان يغشى سفوحها من رُقع مشجرة قد تعرَّت الآن إلا من جذوعٍ قليلة بقيت منتثرةً هنا وهناك. وكان هدير المدافع الكئيب يُسمع من قُنة التلال، وأُقيمت في القرى على طول الطريق شواهد كُتب عليها تنبيه لكل شخص بأن يحمل معه في سيره قناعًا ضد الغازات السامة.

وكان هذا الذي رآه هو الوادي الباسم الآمن الذي تركه منذ أكثر من خمس سنوات في ذلك اليوم، يوم الجمعة الحزينة حين كانت أجراس الكنيسة تدق.

واضطُر إذ بلغ جونسباخ أن يشق طريقه وسط حشود من الجنود ويمر بصفوفٍ من البيوت المهدَّمة حتى بلغ منزله، فوجد أن الجنود قد احتلَّته وعسكرت فيه، ولكن أباه ظلَّ مقيمًا فيه بالرغم من ذلك، وكانت أمه قد قُتلت تحت أقدام خيل الجنود الذين كانوا يمرون بالقرية.

وحلَّت بالطبيب فترة من المرض لم يستطع أن يشفيه منها هواء وطنه الألزاس الخالص، وغشيه شعورٌ من الضنى أعقبه ألمٌ وحُمَّى شديدة. وكان مما سرَّى عنه أن يجد نفسه مع أبيه مرةً أخرى، ويراه في حجرة مكتبه العتيقة المعهودة وقد تألَّق وهج المصباح الرقيق فوق وجهه الوديع. وكان يبدو عليه هدوء الآمن المطمئن يلازمه حتى حين يدوِّي قصف المدافع، ويندفع غيره من سكان القرية لائذين بأقبية بيوتهم، فيظل هو في مكانه لا يريم.

وسُمح لهيلين شفيتزر آخر الأمر أن تلحق بزوجها في جونسباخ، ولكن الدكتور شفيتزر حتى بعد اجتماعِ شَمله بهذين الاثنين اللذين أحبَّهما لم يبرأ من علته إلا بعد أن عاد إلى ستراسبورج لتُجرى له جراحة.

«زمالة أولئك الذين تبدو عليهم أعراض الألم.»

أجل لقد عرف الطبيب الآن بالتجربة معنى الألم يحل بالجسم، والعذاب الشديد يصيب الجسد، وكان قد نعم منذ حداثته بالصحة السابغة، وأحسَّ بأن مثل هؤلاء الناس تربط بينهم أواصر القربى في جميع أنحاء العالم؛ ذلك أنه قد وحَّدت بين قلوبهم تجربة مشتركة.

وذكر المرضَ والشقاء اللذين شاهدهما في أفريقيا فغشيه القلق، لكنه لم يجرؤ على التفكير في عودته، ولم يكن ثمة سبيل إلى معرفة متى تكون العودة إن كُتب له ذلك على الإطلاق، وخُيل إليه أنه كان كقطعةٍ من النقود تدحرجت تحت الأثاث وظلَّت هناك لا يعرف بأمرها أحد.

وانتهت الحرب في الحادي عشر من نوفمبر من تلك السنة؛ سنة ١٩١٨م، وأصبحت الألزاس تابعةً لفرنسا، وغدا الدكتور شفيتزر بحكم معاهدة الصلح المعهودة مواطنًا فرنسيًّا، كما كان أبواه قبل انتصار الألمان سنة ١٨٧٠م.

ولَّما تمالك عافيته واستطاع أن يستأنف عمله عُرض عليه منصب في مستشفى البلدية في ستراسبورج، وأُعيد أيضًا إلى منصبه القديم قسيسًا لكنيسة القديس نيقولاس الصغيرة. وكان زميلاه الأولان قد صُرفا عن منصبيهما؛ إذ طرد الألمان واحدًا أثناء الحرب لأنه كان نصيرًا للفرنسيين، وطرد الفرنسيون الآخر بعد الحرب لأنه كان نصيرًا لألمانيا.

وطاب له أن يعود إلى العمل ثانية، يشفي المرضى ويؤم الصلوات في الكنيسة الصغيرة التي كان بها جد مشغوف، وأصبح في ميسوره أن يبدأ في رد الديون التي اضطُر إلى حمل أعبائها من أجل مستشفاه في السنوات الأخيرة التي قضاها في أفريقيا.

وكان عبء هذه الديون ينوء به عقله؛ ذلك أنه كان قد اقترض من جمعية البعوث الدينية في باريس ومن أصدقاء له كرماء في فرنسا، وكان ردُّ هذه الديون يتطلَّب وقتًا طويلًا، على أنه أصبح في مقدوره الآن على الأقل أن يبدأ في ردها، ولم يجسر أن يتدبَّر ما يكون بعد ذلك.

وأخذ أهل الألزاس يعودون إلى العمل مرةً ثانية لإزالة الأنقاض التي خلَّفتها الحرب، فأصلحوا الدمار الذي أصاب بيوتهم، وحرثوا حقولهم، وزرعوا كرومهم مرةً أخرى. أما في ألمانيا التي كانت قد حطَّمتها الهزيمة فكان يسودها الجوع واليأس. وكان الطبيب أثناء الهدنة وفي السنتين التاليتين لها زبونًا معروفًا لموظفي الجمارك؛ إذ كان يعبر الحدود وقد امتلأت جعبته بالطعام من أجل كوزيما أرملة ريتشارد فاجنر، ومن أجل المصوِّر العجوز هانز توما وأخته.

ووصلت رسالة ذات يوم من السويد تدعو الدكتور شفيتزر إلى القدوم إلى جامعة أبسالا لإلقاء سلسلة من المحاضرات، فمضى إلى هناك متعبًا كاسف البال لا يزال يعاني من آثار مرضه الأخير، ولم يلبث أن استرد عافيته كاملةً بعد أسابيعَ قليلة، وعاوده تحمُّسه القديم للعمل. وأخذه رئيس الأساقفة الذي دعاه لزيارة السويد إلى بيته واستضافه، ورتَّب أن يقوم الطبيب بإلقاء محاضراتٍ أخرى في أنحاء السويد حين يفرغ من محاضراته في جامعة أبسالا. وكان طالبٌ سويدي شاب يترجم ما يقوله جملةً جملة بأسلوبٍ شائق، حتى إن المستمعين أحسوا بأنهم يعون الكلمات الأصلية بدلًا من أن يفهموا الترجمة.

وأُقيمت أثناء زيارته أيضًا حفلات عزف منفرد على الأرغن. وكان من دواعي سروره أن يعزف على آلات الأرغن السويدية القديمة التي كان رنينها يُناسب طريقته في عزف مقطوعات باخ.

ولمَّا انتهت زيارته للسويد عاد الطبيب إلى ستراسبورج وفي جعبته من المال الذي كسبه ما يكفي لرد ديونه التي لا تحتمل التأجيل. وأصبح في مقدوره بعدُ وقد اكتملت عافيته أن يبدأ في التطلُّع إلى المستقبل. واستقرَّ عزمه على أن يعود إلى لامبارينيه ويستأنف العمل الذي بدأه فيها.

ولم يكن شأنه آنئذٍ كشأنه عندما قرَّر أن يمضي إليها أول مرة؛ فقد أصبح يعرف ما ينتظره هناك، ولم تكن الحياة التي اختارها بالحياة اليسيرة؛ ذلك أنه سوف تمر به هنالك أوقات من اليأس وخيبة الأمل، ولكنه سوف ينال جزاءه أيضًا حين يرى المرضى يُشفَون ويعودون إلى عافيتهم مرةً أخرى.

وتخلَّى الدكتور شفيتزر عن عمله في ستراسبورج وانتقل هو وزوجته وابنته الصغيرة التي كانت قد وُلدت في عيد مولده الموافق ١٤ من يناير ليعيشوا مع أبيه في بيته بجونسباخ. وقضى وقته هناك في الكتابة ساعيًا إلى الانتهاء من الكتاب الذي كان قد بدأ فيه قبل أن يرحل من أفريقيا.

وطُبع له في ثلاث سنوات من هذه الفترة خمسة كتب، وكان أولها كتابًا عنوانه «على حافة الغابة الأولية» الذي روى فيه التجارب التي مرَّت به في أفريقيا، وحلَّاه بصورٍ شمسية من صُنع ريتشارد كلاسن الحطَّاب الهامبورجي الذي كان الطبيب قد زوَّده بالعقاقير عندما اعتُقل أسير حرب.

ثم أعقب ذلك بكتابه «فلسفة الحضارة» في جزءين، وهو الذي كان قد أودع مخطوطه في رعاية المستر فورد الأمريكي، وسلَّمه فورد إليه أخيرًا، فأعاد تصنيفه مضيفًا إليه ما

كتبه عندما كان في معسكرَي الاعتقال. ثم طُبع في السنة التالية كتاب «المسيحية وديانات العالم» وقد استقاه من محاضراتٍ كان قد ألقاها في إنجلترة. وفي هذه الأثناء ظهر كتابه «ذكريات الطفولة والشباب».

وكان صيته آنئذٍ قد انتشر في جميع أنحاء أوروبا وتجاوزها إلى أمريكا، وتُرجمت كتبه إلى عدة لغات، وتلقَّى دعوات إلى إلقاء محاضرات أو العزف منفردًا على الأرغن من إسبانيا وسويسرة والدنمارك وتشيكوسلوفاكيا والسويد وإنجلترة ووطنه الألزاس.

ولم يكن بالأمر اليسير أن يتخلَّى عن هذه الأمور وهو مستغرقٌ فيها ويرحل عن أرض وطنه مرةً أخرى، وممَّا زاد الأمور سوءًا أن الرأي كان قد استقرَّ على أن زوجته لم تكن بعدُ في حالةٍ تسمح لها بالرحيل معه؛ ذلك أن الجو في المناطق الاستوائية كان فوق ما تحتمل، فلم تجسر أن تمضي معه وفي صحبتها طفلتها الصغيرة.

وودَّع الطبيب زوجه وطفلتها كما ودَّع أباه والحزنُ يغشى فؤاده، ولكن لم تكن له في الأمر حيلة، وأحسَّ بأنه إنما كُتب عليه أن يشارك بنصيبٍ في تحمُّل الألم الذي يغشى العالم؛ إذ لا مناص من أن يذهب كل امرئ في الطريق الذي رُسم له، ولسوف يعود من حينٍ إلى حين، وتُدبِّر زوجه أمر الرحيل معه إلى أفريقيا كلما أحسَّت بالقدرة على ذلك.

ورحل مع الطبيب طالبٌ شاب من طلاب جامعة أكسفورد ليقضي بضعة أشهر، يساعده فيها على استئناف عمله هناك.

الفصل الحادي عشر

«إنما تقوم ذواتنا بشيءٍ واحد هو أن نكافح حتى تستضيء نفوسنا بالنور، وليُدركن الناس كفاحنا، فإذا كان في نفوسهم نور يعمرها أشرق النور منها، واهتدى كلٌّ منا إلى الآخر ونحن نضرب معًا في الظلام.»

من كتابه: «ذكريات الطفولة والشباب»

وقام الطبيب برحلته من أوروبا إلى أفريقيا على متن سفينة شحن، واستغرقت السفينة ما يربو على سبعة أسابيع في قطع المسافة من ساحل فرنسا إلى مصب نهر أوجو. وكانت رأس لوبيز بعدُ مختلفةً أشد الاختلاف عن تلك القرية المهجورة أو تكاد، التي عرفها الدكتور شفيتزر أثناء سنوات الحرب. وكانت مياه هذه البلدة مزدحمةً ومراكب الخشب محملةً بأخشاب الموجنا والأبانوس والأوكوم، بل إن اسمها كان قد تغيَّر وأصبحت تُسمَّى بعدُ بثغر جنتيل.

وانطلقت صيحات الترحيب من العمال الوطنيين الذين عرفوا طبيبهم أوجانجا، وكان من بينهم أويمبو وقد حصل على رمثٍ جيد محمَّل بكتلٍ من خشب الأوكوم كان قد جلبها هو وبعض الرجال من قريته وهبطوا بها إلى النهر ليبيعوها.

وقال الطبيب وهو يصافح صديقه القديم ومترجمه: لقد أبعدتَ الرحلة يا أويمبو، أما وقد أخذت تمارس تجارة الأخشاب فإنك ماضٍ في طريقك إلى الثراء.

فأجاب أويمبو: ليس لي أن أشكو.

وهمَّ الطبيب بأن يسأله عن زوجته وأطفاله وإذا بأويمبو يُضطر إلى الابتعاد مندفعًا ليشرف على تسليم أخشابه، فعاد الطبيب ليلاحظ متاعه وهو يمر بالجمارك، وكان من بين صناديقه الكثيرة وحقائبه أربعة أكياس من أكياس البطاطس امتلأت برسائل لم يجد

فسحةً من الوقت للرد عليها قبل رحيله من أوروبا. وكان موظف الجمارك الذي فتش متاعه قبل أن يغادر الثغر الفرنسي قد تحيَّر إذ وجد مثل هذا العدد الكبير من الرسائل التي لم تُفضَّ موجهًا إلى شخصٍ واحد، وأيقن أن في الأمر حيلة؛ إذ ربما كانت هذه الأكياس تحمل ذهبًا مهرَّبًا كانت حكومة فرنسا قد حرَّمت خروجه من البلاد، وظل موظف الجمارك المسكين يراجع هذه الرسائل ساعةً ونصف الساعة، وراح يفضُّها واحدةً بعد واحدةٍ حتى بلغ قرار الكيس الثاني، ثم هزَّ رأسه متحيِّرًا ونفض يده من الأمر. أجل كانت أربعة أكياس بطاطس ملئت برسائل من أناسٍ يعبِّرون فيها عن استمتاعهم بقطعةٍ معينة عزفها منفردًا على الأرغن، أو يقولون إنهم استمعوا إلى محاضرةٍ بالذات كان لها أثرٌ كبير في نفوسهم، أو قرءوا كتابًا بذاته وأعجِبوا به كثيرًا.

وكان القارب النهري الذي كان منتظرًا ليُقل الركاب صاعدًا في نهر أوجو هو نفس القارب الذي كان قد استقلَّه الطبيب وزوجه في رحلتهم، حين قدموا إلى هذه البلاد أول مرة. وعجب الطبيب بينه وبين نفسه كيف أضحى هذا القارب قذرًا واهنًا عتيقًا إلى هذا الحد، خلال إحدى عشرة سنةً مضت. ولم يبلغ الطبيب أفريقيا التي عهدها من قبلُ إلا بعد أن التفَّ الزورق بثنية النهر التي كانت تحجب الثغر عن الأنظار. وهنالك كان الزمان قد توقف، ووجد الطبيب المستنقعات كما هي وقد انتصبت في الماء جذور الأشجار كأنها سيقان عناكب ضخمة، وجزائر البردي المعهودة وقد أخذت سيقانُها الطويلة المريَّشة تتمايل مع هبات النسيم، وراحت النسانيس تُطل عليهم من الأشجار الباسقة الممتدة على ضفتي النهر، وقد هاجها ما هاجها من فضولٍ عندما رآها أول مرة. ورأى أيضًا القرى المتهاوية كشأنها، ورأى سُكانها كعهده بهم مُهلهَلي الثياب أثقل كاهلَهم الفقرُ والبؤس.

وكان بين ركاب المركب كثيرون من معاونيه القدماء من تجار الخشب وموظفي الحكومة وقد حيَّوا الطبيب تحيةً حارة وأنبئوه بكل ما وقع من حوادث في أثناء غيبته.

وخرج الطبيب في تلك الليلة بعدما انتهى العشاء، وصعِد وحيدًا على سطح المركب، فوجد طيور الماء تمرق داخلةً خارجة بين أعواد القصب الشاحبة، تشدو بتغاريدها الليلية الوسنانة. وأخذت الضفاف المخضوضرة يغشاها الظلام رويدًا رويدًا، ثم طلع قمر عيد الفصح في تمامه فوق قمم الأشجار وأضفى ضوءه الفضي الهادئ على النهر وعلى الغابة البعيدة جمالًا يأخذ بالألباب، فأدرك أنه أصبح في أفريقيا حقًّا، أجل أفريقيا بكل ما فيها من بؤسٍ وجمال.

وبلغ المركب لامبارينيه مع شروق الشمس في اليوم السابع لعيد الفصح، وكانت الزوارق القادمة من قِبَل مركز البعثة الدينية تنتظر لتحمل الطبيب ومساعده الشاب

نويل وكلَّ ما معهما من أسفاطٍ وصناديق وحقائب، وتمضي بهما مصعدةً في النهر إلى المستشفى.

وجدَّفت الزوارق ساعةً ثم استدارت حول ثنية الجزيرة ودخلت المجرى الفرعي. وتطلَّع الطبيب في شوقٍ تجاه التلال الصغيرة الثلاثة ليحظى بنظرةٍ إلى مباني مركز البعثة الدينية، وما كان أطول المدة التي انقضت مذ رآها آخر مرة! وما كان أكثر الأحداث التي وقعت بين رحيله عن أفريقيا وقدومه إليها! وطالما كان قد ودَّع الأمل في أن يراها مرةً أخرى، وها هو ذا لا يكاد يصدِّق أنه مَثل هنالك آخر الأمر، وكان ينغِّص عليه فرحة العودة شيءٌ واحد، هو أن زوجته وطفلته لم تكونا معه لتشاركاه في هذه الفرحة.

وبقي مساعده الشاب الإنجليزي نويل عند المرسى ليشرف على إنزال متاعهما من الزوارق، أما الدكتور شفيتزر فقد كان نافد الصبر يتعجل رؤية المستشفى القديم ثانية. ومضى يصعد المنحدر كأنه في حلم، وخُيل إليه أنه يرقى إلى قلعة الجمال النائم المكنونة. وكانت الأعشاب والشجيرات المتشابكة تنمو، حيث كانت تقوم يومًا مساكن شُيدت من كتل الخشب في عناية كبيرة ولم يبقَ إلا المسكنان المقامان من الحديد المموَّج، واللذان صُنع أديم أرضهما من الأسمنت، وكان يغطِّي نصفَهما أغصانُ أشجار باسقة كانت نُبيتات فحسب عندما رآهما الدكتور شفيتزر آخر مرة، وكان سقفاهما المغطيان بألياف النخيل يتهاويان، حتى لقد خلا المسكنان من السكان. وحمد الطبيب الله على ذلك لأنه كان قد خزَّن في هذه الحجرة مئونته الطبية، مُودعًا إياها في الصناديق الخشبية المتينة منذ سبع سنوات مضت.

وكانت طائفة المبعوثين الدينيين الذين حيَّوه عند مرسى النهر قد تبعوه ولحقوا به حين مضى مُيمِّمًا شطر كوخه القديم على قمة التل، وكانوا قد بذلوا كل ما في وسعهم للإبقاء على المباني في حالةٍ صالحة، ولكنهم تخلَّوا عن ذلك لنقص العُمال ومواد البناء. وقد زاد الآن طلب أوروبا وأمريكا زيادةً كبيرة للخشب، حتى إن أي رجل كان يستطيع أن يحصل على بلطة يلاقي عملًا في الغابة يؤجر عليه أجرًا طيبًا، وأي امرئ يعرف شيئًا عن أطواف الخشب يجد عملًا يقوم على حملها على متن الماء هابطًا النهر. وكان كل شخص لديه عمل كثير لا يدع له فسحةً من الوقت يُنفقها في ذلك العمل البطيء الذي يقتضيه إقامة سطح من القطع المصنوعة من ألياف النخيل، يثبتها في عُمدٍ من الخيزران ليقيم بها المساكن.

وقال له أحد المبعوثين وهم يشقون طريقهم خلال الأعشاب الطويلة والكلأ: «إن أول شيء سوف أفعله غدًا هو أن أكلِّف صبيان البعثة الدينية بتمهيد هذا الطريق من أجلك.»

فقال له الطبيب: لا عليك، ودعني أمهِّده بالسير فيه على أقدامي.

وشرع في ذلك دون أن يُضيع وقتًا؛ فقد خرج في عصر ذلك اليوم نفسه هو ونويل في زورقٍ باحثَين عن قطعٍ من ألياف نخيل السقوف في القرى المجاورة؛ ذلك أن المرضى كانوا خليقين بأن يفدوا عليه بمجرد أن تنتشر الأنباء بأنه قد عاد. ولمَّا كان فصل الأمطار قد آذن بالمجيء فإن الأمر كان يقتضيه أن يجد مكانًا بعيدًا عن المطر يعالج فيه مرضاه، وعنبرًا يئوي فيه أولئك الذين يحتاجون إلى البقاء. ولا مناص له أيضًا من أن يجد غرفةً يُخرج فيها المؤن الطبية من صناديقها التي كان قد تركها هنا، وكذلك الصناديق الاثنان والسبعون التي كان قد أرسلها من أوروبا وكان ينتظر وصولها في أية لحظة.

وكانت قبائل جديدة قد أقبلت ونزلت على نهر أوجو منذ كان الطبيب هناك آخر مرة، وأخذ قومٌ غيرهم يتوافدون باستمرار ويلحقون بهذه القبائل. وكان هؤلاء القوم هم البنجابية، أقبلوا من أعماق الغابة أنصاف عرايا يكادون يتضوَّرون جوعًا ويحملون فوق رءوسهم أشياءهم القليلة الحقيرة. وكان هؤلاء البنجابية قِصار القامة وجوههم وجوه المتوحشين حقًّا، وقد وُشمت بوشم قبائلهم. وكان الجالوا الذين ينتسب قومهم إلى هذه المنطقة ينظرون إليهم باستهانة، بل إن الباهوين أيضًا الذين كان الجالوا يعدونهم أقل منهم مرتبةً كانوا يحتقرونهم أيضًا.

فلمَّا بدأ العمل في المستشفى أقبل البنجابية يحملون مرضاهم بعد أن عجز أطبَّاؤهم السحرة عن شفائهم. وكان هؤلاء مصدر متاعب؛ وذلك أن أساليبهم في الحياة لم تكن مختلفةً عن أساليب الرجل الأبيض فحسب، بل إن عاداتهم التي نشئوا عليها في الغابة كانت مختلفةً أيضًا عن عادات قوم النهر.

وكان الطبيب في بعض الأحيان يطلب العون على حمل رجل مريض فوق محفة أو مساعدة جريح أصيب في ساقه، وكان يرد على سؤاله في أكثر الأحيان: لا؛ فإن هذا الرجل ليس من قبيلتي.

وكان صبر الطبيب ينفد في كثيرٍ من الأحيان من فِعال البنجابية؛ لأنهم كانوا لا يحترمون حقوق ملكية الآخرين، فيأخذون ما يريدون لا يبالون أي شيء يكون وإلى أي مالك ينتسب، بل لقد كانوا يسرقون الطعام من مريضٍ أعجزه المرض عن أن يدفعهم عنه، لا يُظهرون أي أمارة من أمارات الاعتراف بالجميل. وكان أقرباؤهم الذين يأتون معهم يجلسون مكتئبي الوجوه، ويأبَون أن يُبدوا أي علامة من علامات الود.

وكان الدكتور شفيتزر يقول بينه وبين نفسه لو أنه استطاع أن يجلس حول نار ويتحدَّث مع مرضاه حديث الرجل للرجل، ولو أمكن أن ينظر إليه نظرةً أبعد من اعتباره

مجرد طبيب وأمين على قانون المستشفى ونظامه، لقامت بينه وبين المرضى صِلة من التفاهم أقوى وأوثق، ولكن وقته كله كان مُستغرَقًا الآن في مصارعة المرض والألم، وفي الجهد الجسماني الذي يبذله في إصلاح المباني التي يعالِج فيها المرضى ويئويهم.

وكان أحيانًا يصادف مريضًا من مرضاه السابقين حين تقوده رحلاته لعيادة المرضى إلى جوار موقع من مواقع الخشب، فيفيض وجه المريض بالبِشر عند رؤيته، وكان يظن من قبلُ أن هذا المريض عندما لجأ إليه في المستشفى كان وجهه واجمًا مكتئبًا، وكان يتفق أيضًا أن يمر قرب المستشفى راكبًا زورقه مجدِّفٌ من المجدِّفين البنجابية، فيهتف الرجل محييًا الطبيب من كل قلبه بالرغم من أنه لم يكن قد صدرت منه كلمة واحدة مهذبة طوال مرضه. وإن المرء ليقتضيه الأمر أن ينفُذ إلى أعماق هؤلاء القوم ليعرف طبيعتهم على حقيقتها.

وقد رأى الطبيب نظرةً من الهلع تغشى وجه رجل حُمل من داخل البلاد لتُجرى له جراحة عاجلة، فلمَّا مُدِّد على منضدة الجراحة نمَّ وجهه بجلاءٍ عن إيمانه بأنه وقع بين جماعة من آكلي البشر، ولم يجد الطبيب أحدًا يستطيع أن يتحدث بلغة هذا الرجل، ولم تتيسر ترجمة عبارات الطبيب المطمئنة له، ولعله لم يكن ليفهم شيئًا إلا التمتمة التي يصطنعها طبيبٌ ساحر أو رجل من الرجال الفهود. ووضع المخدِّرُ حدًّا لوعيه، فلما استيقظ وقد برئ من ألمه الفظيع غشيت وجهَه ابتسامةٌ عبَّرت عن اعترافه بالفضل وفَهْمه للأمور تعبيرًا يفوق كل حديث.

وعاد يوسف ليستأنف عمله الأول في المستشفى بمجرد أن علم أن الطبيب قد آب. وكان قد تمكَّن أخيرًا خلال السنوات السبع الماضية من أن يشتري زوجةً بما ادخره من أجورٍ تقاضاها من عمله في معسكرٍ للأخشاب، وأصبح بعدُ لا يطمع في أن يُتاجر في الأخشاب لحسابه، وكان هو وبعض أصدقائه قد استأجروا رُقعةً واسعة من الغابة على مسيرة ثلاثة أيام من لامبارينيه، فكان ذلك يضطره إلى الحصول على إجازة من المستشفى كلما احتاجوا إليه في مقر الأخشاب.

وعاد ألويز الطباخ إلى المستشفى أيضًا، ولكن لم يُسمع أي خبر عن أويمبو المدرس، وكان أويمبو هو الشخص الوحيد الذي اشتدَّت وحشته إليه أكثر من سائر الرجال؛ فقد كان يعلِّق عليه آمالًا كبارًا؛ لأن رجلًا من طرازه ذكيًّا نبيلًا مستقيمًا كان خليقًا بأن يفعلَ الكثير لخير قومه لا بزعامته لهم فحسب، بل بالأسوة الحسنة التي كان يضربها لهم أيضًا؛ فقد كانت أفريقيا محتاجةً إلى عون أبنائها أكثر من حاجتها إلى عون الأجانب أنفسهم.

ومر الطبيب حزين القلب بالبيت الصغير بالقرب من مدرسة الصبيان، حيث كان أويمبو يُقيم هو وأسرته في يومٍ من الأيام، ولم يستطع أن يحمل نفسه على الحديث عن أويمبو، حتى مع الرجال الآخرين في مركز البعثة أو يسأل عن خبره.

ولم يَحِلَّ بالبلاد فصل جفاف في السنة الأولى من عَودة الطبيب، وظلت الأمطار التي كان يجب أن تنقطع في شهر مايو تهطل خلال أشهر الصيف، وكان ذلك شيئًا لم يعهده أحد من قبلُ قط، ولا سمعوا أجدادهم يقولون إنه حدث في السنين الخالية، فحاروا في فهمه، ولم يكن في لغتهم ألفاظٌ تعبِّر عن الشتاء والصيف، وكان رجال البعثة الدينية قد ترجموا لهم وعد الله الذي وعده نوحًا بعد الطوفان: لسوف يبقى فصل المطر وفصل الجفاف والنهار والليل ما بقيت الأرض.

وأراد القوم أن يعلموا: «إذا كان هذا هو وعد الله فكيف لا يسير الجو بحسب ما جاءت به التوراة؟»

وتحيَّر الطبيب كيف يُجيبهم، وقلق باله خشية أن يحل بالبلاد قحطٌ يعقبه ما يعقبه دائمًا من مرض. وكان الفصل من مايو إلى أغسطس هو الفصل الذي يجب فيه أن تُطهَّر الأرض، فتُقطع جميع الأشجار والكلأ وتُحرَق، فتخصب الأرض برماد الخشب المحترق ويُستطاع زراعة الأرض الجديدة بالموز. وكان من الأمور الشديدة السوء أن يُترك كل هذا العدد من رجال القرى ليعملوا في معسكرات الأخشاب حيث كانت الأجور تُنفَق بسرعةٍ تماثل السرعة التي تُكتَسَب بها، أمَّا الآن وقد أخذت العواصف المطيرة تتلاحق واحدةً في إثر الأخرى، فإن أولئك الذين ظلوا في القرى قد ثُبِّطت عزائمهم عن تطهير الأرض؛ إذ علموا أنه لن يتيسَّر لهم شجر يجف بحيث يمكن أن يشتعل.

وخرج الأب الأكبر للبعثة الدينية الكاثوليكية في رحلةٍ تستغرق أسبوعين مُجتازًا المجرى الفرعي ومعه اثنا عشر صبيًّا من المدرسة لصيد فرس النهر، ولم يكن العمل في المدرسة ليستمر إلا إذا عاد هؤلاء بحمل زورق من لحم فرس النهر مدخن، فإذا عادوا خِلو الوفاض فإن المدرسة كانت خليقةً بأن تقفل أبوابها.

وشرع الدكتور شفيتزر يشتري الأرز ليدَّخره احتياطًا لأي طارئ آخر يجعل مرضاه في حاجةٍ إلى طعام.

وحلَّ شهر أغسطس وآن أوان عودة الطالب الشاب نويل إلى إنجلترة ليستأنف دراساته في جامعة أكسفورد، وكان نويل قد قضى في أفريقيا أربعة أشهر ولم يكتفِ بالعمل مساعِدًا للطبيب فحسب، يحقن المرضى ويُحضِّر العقاقير، بل كان أيضًا يعمل مقدِّم عمال ونجارًا

وكاتبًا على الآلة الكاتبة وقندلفتًا. وكان الأفريقيون يسمُّونه ياور الطبيب لأن سنوات الحرب كانت قد جعلتهم يألفون المصطلحات العسكرية، وأسفوا أسف الطبيب نفسه إذ رأوا الشاب يرحل.

وجاءت من الألزاس ممرضة هي الآنسة ماتيلدة كوتمان، وطبيبٌ شاب هو الدكتور فيكتور نسمان، وانضمَّا إلى هيئة المستشفى؛ ذلك أن العمل فيها كان قد زاد زيادةً كبيرة، وأصبح لا يمكن أن ينهض به طبيبٌ واحد.

وقال الطبيب الشاب بمجرد أن غادر المركب في لامبارينيه: الآن تستطيع أن تستريح، وسأتولَّى عنك العمل كله.

وابتسم الدكتور شفيتزر لكلماته؛ لأن هذا الشاب، وهو ابن زميل له في الدراسة بجامعة ستراسبورج، كان ينعم بالعافية والنشاط العارم اللذين كان ينعم بهما الدكتور شفيتزر وهو في مثل سنه.

وأجابه شفيتزر: حسنًا! ولْتبدأ الآن بالإشراف على شحن حقائبك وصناديقك في الزوارق.

وقد أثبت الدكتور نسمان أنه رجلٌ يُجيد القيام بشئون الشحن، وأظهرت الأيام أنه كان من ذلك الطراز من الشبان الذين خُلقوا للعمل في أفريقيا. كان واقعيًّا رُزق موهبة الألزاسيين في التنظيم، وكان يستطيع أن يُحسن معاملة الناس، وأهم من ذلك كله أنه كان قد أوتي روح الفكاهة التي تُتيح له أن يتغلَّب على أوقات اليأس والقنوط التي لا مناص من أن تمر بكل طبيب.

وكان الأهالي يسمُّونه «الطبيب الأصغر» مع أن قامته كانت تفوق قامتهم جميعًا، بل لقد كان أطول من الدكتور شفيتزر نفسه. وكانوا يسمون الدكتور شفيتزر دائمًا «الطبيب الأكبر».

ولم يلقَ شفيتزر المساعدة من هذين الألزاسيَّين الشابين فحسب، بل إن بعض الأفريقيين كانوا قد تعلَّموا أن يعملوا ممرضين، وأصبح يوسف الآن يستطيع أن يحقن المرضى في الوريد وأن يضمِّد الجروح أيضًا، ولم يحظَ الدكتور شفيتزر إلا بقسطٍ قليل من الراحة على الرغم ممَّا تنبَّأ به الدكتور الشاب نسمان.

وكان المرضى يُقبلون في حشودٍ فيزحمون وقت الطبيبَين دائمًا، ويأتي المجذومون وصرعى ذبابة «تسي تسي» يعانون مرض النوم، وكذلك ضحايا البعوضة التي تحمل الملاريا. وكان كثيرون يأتون حاجلين وقد غشيت القروحُ أقدامَهم وسيقانهم، ويفد العجائز

يتطلَّعون إلى مأوًى أخير يثوبون إليه، ويُحمل المواليد اليتامى ليُطعَّموا. وكان بعض القوم يجيئون إلى المستشفى وقد أُصيبوا بالتسمم بيد عدو، وبعضهم وقد نال منه فيل أو جاموسة وحشية.

وقد حدث أن رجلًا أصابه فهد بجرحٍ وهو نائم في كوخه، وكان الفهد قد أمسك بذراع الرجل اليسرى ولم يتركها إلا حينما هُرع إليه جيرانه بمشاعلهم. واستغرق نقله بالزورق إلى المستشفى اثنتي عشرة ساعة، ولم يظهر على جلد الذراع المتورمة إلا أربع وخزات صغيرة حيث نفذت فيها مخالب الفهد، ولكن اللحم تحت الجلد كان ممزَّقًا حتى العظام، وأصابت الرجل حمَّى شديدة، وعولج على الفور، ولم تلبث حاله أن تحسَّنت بما يسمح له بالعودة إلى القرية.

وعضَّت غوريلا رجلًا آخر، وقذف فيل رجلًا ثالثًا في الهواء، ونطحه حتى أدماه، وجاء إلى المستشفى أشخاصٌ آخرون عضهم بشر مثلهم وأصابوهم بجراح.

وقال يوسف: إن أسوأ عضة هي عضة الفهد، وأسوأ منها لدغة الحية السامة، وأسوأ من ذلك عضة النسناس، إلا أن أسوأ الجميع هي عضة الإنسان.

وأصبح المستشفى ملاذًا لا للمرضى والعجائز والأطفال اليتامى فحسب، بل للمجانين والمجذومين أيضًا، وكذلك كان كثيرون من الناس يحضرون إليه هربًا من الأخذ بالثأر.

وحدث في صبيحة يوم أن أحضر رجل إلى المستشفى زميلًا له كان قد أصابه خطأً بطلقةٍ نارية ظانًّا أنه خنزير بري يربض في الكلأ، وكان الجرح قاتلًا، وما إن قضى الجريح نحبه حتى بعث الصياد من فوره إلى زوجته وطفله ليلحقا به في المستشفى. وذهب معه الدكتور شفيتزر إلى مركز مأمور القسم حتى تُحقَّق القضية بمقتضى القانون، بدلًا من أن يترك الرجل ضحيةً لانتقام أسرة القتيل. وحُكم على الصياد بأن يدفع مبلغًا معلومًا من المال لأسرة الفقيد. ولَّما كانت شريعة الغاب تقضي بأن النفس بالنفس، فقد حُكم على الصياد أيضًا أن يُعطي للورثة عنزًا. وقد سمح له الطبيب بأن يبقى في المستشفى هو وأسرته، وأن يعمل فيه حتى يكسب من المال ما يكفيه لدفع الدية.

واستفحلت المجاعة؛ ذلك أن القوم لم يستطيعوا أن يزرعوا شيئًا في ذلك العام؛ لأن الأمطار المستمرة التي هطلت في صيف سنة ١٩٢٤م منعتهم من تطهير فُرجات الغابة الصالحة للزرع وحرق الشجيرات، وقد كانوا أحرياء بأن يقطعوا كُتل الخشب قِطعًا صغيرة ويسحبوها بعيدًا أو يكوِّموها حتى تنفسح الأرض بين الأكوام لزراعة أشجار الموز والمنيوق، ولكن لم تكن هذه هي الطريقة التي درجوا عليها في الزرع، وكانوا لا يفعلون إلا ما اعتادوا

أن يفعلوه دائمًا، فاستسلموا لنصيبهم وقعدوا في قراهم ينظرون الموت، واعتقدوا أن روحًا شريرة قد نزلت بالأرض ولا يمكنهم أن يفعلوا شيئًا للخلاص منها.

وما كان أشد حاجة هؤلاء القوم إلى زعيمٍ يقودهم، زعيم من بني جلدتهم يُخلِّصهم من نير خرافاتهم وجهالتهم.

وقد قال أحد المبعوثين الدينيين للدكتور شفيتزر يومًا: لقد صادفت أويمبو مدرسنا القديم منذ وقتٍ غير بعيد.

فأجاب الطبيب: أجل، أويمبو، وإنه لرجلٌ آخر فقدناه في تجارة الأخشاب، وكان يمكن أن يكون معينًا لقومه، وقد كان هو دون الآخرين الذي أعلِّق عليه أكبر الآمال.

وصاح المبعوث الديني متعجبًا: فقدناه! ماذا تقول؟

وقال الطبيب وقد رأى أويمبو على رصيف ثغر جنيل، حين عاد من أوروبا إلى أفريقيا: إنه الآن رجل أعمال ناجح ولم يعد مدرسًا لقومه كما عرفناه هنا.

فأجاب المبعوث: أجل، رجل أعمال، ولكنه لم يتخلَّ عن التدريس. وإن العمل الذي يؤديه الآن في التعليم أهم بكثيرٍ ممَّا كان يفعله هنا حين عرفناه.

ومضى المبعوث يروي كيف عاد أويمبو أثناء الحرب إلى قريته الصغيرة الدغل، وراح يتحدث إلى قومه، وأقنعهم بأن يخرجوا معه ويطهِّروا جزءًا كبيرًا من الغابة تمهيدًا للزراعة. وكان هؤلاء القوم شأنهم شأن غيرهم في قرى أفريقيا الأخرى لم يُطهِّروا قط من الأرض إلا ما يكفي لتزويدهم بالغذاء الذي يسد رمقهم فحسب. ولكن أويمبو كان يريد أن يُطهِّر من الأرض رُقعةً كبيرة توفر الطعام للقرية بأسرها، ويبقى بعدُ ما يكفي لبيعه إلى تجار الخشب يُطعمون منه عمالهم، فزرعوا الموز، والمنيوق لطعامهم الأساسي، كما زرعوا البن والكاكاو ليبيعوه في السوق.

وأقام أويمبو أيضًا مدرسةً في قريته دون أن يستعين بالحكومة أو بالبعثات الدينية، واقتطع من وقته ليقوم بالتدريس لهم بنفسه، وأخذ الأطفال يعملون في المدرسة ليكسبوا من المال ما يكفي لشراء كتبهم، وأكسبهم ذلك شعورًا بالعزة والاستقلال.

ولم يقنع أويمبو بالتدريس للأطفال فحسب، بل أراد أن يُدخل إلى القرية بأسرها أسلوبًا جديدًا في الحياة، وكان القوم حتى ذلك الحين يُقيمون أكواخًا صغيرة حقيرة من الخيزران والطين لا تكاد تتماسك تماسكًا يحقِّق لهم الحماية من الشمس والمطر. وأخذ أويمبو يعلِّمهم كيف يبنون أكواخهم في مهارةٍ وبراعة، ولم تنقضِ على عودته أشهر قلائل حتى أصبحت بيوت قريته هي أكبر وأمتن بيوت في ذلك الجزء من قارة أفريقيا. وأهاب

بالرجال أن يساعدوه على تطهير الكلأ الذي كان ينمو حتى يحف بالقرية؛ ذلك أنه علم أن هذا الكلأ مباءة البعوض الناقل للملاريا وذباب تسي تسي، فطهَّر الرجال الأرض حتى البحيرة؛ ممَّا جعل نسائم المساء الرطيبة تهب عليهم بلا حاجز ولا عائق.

ولَمَّا انتهت الحرب استؤنفت تجارة الأخشاب، وخرج أويمبو في طليعة الرجال إلى الغابة، وعلَّمهم كيف يعملون جماعةً في تناسقٍ وتعاون. واتخذ سجلًّا يدوِّن فيه المصروفات والإيرادات والساعات التي اشتغلها كل رجل، وأدرك القوم أنهم يستطيعون أن يرفعوا مستواهم بعملهم.

ولم يكن ما فعله أويمبو بالأمر الهيِّن؛ فقد تمرَّد كثيرٌ من الرجال لحملهم على العمل أكثر ممَّا تقتضيه الضرورة المُلِحة فحسب، وراحوا يسألون من يكون أويمبو هذا الذي عاد إليهم بما تعلَّمه من أساليب الرجال البيض وأخذ يُلقِّنهم ماذا يفعلون. ولكن أويمبو استطاع أن يستميلهم بالأُسوة الحسنة ودماثة خلقه أكثر من استمالته إياهم بالأحاديث البليغة.

وجاء أويمبو إلى المستشفى ليزور الدكتور شفيتزر، ولَمَّا يمضِ وقتٌ طويل على سماع الطبيب بهذه الأنباء عن صديقه القديم. وروى له الدكتور شفيتزر كيف سُر حين سمع بما أسداه أويمبو لقريته من خير، لكن أويمبو الذي عُرف دائمًا بالتواضع لم يتحدَّث إلا قليلًا عن نصيبه في ذلك. وقال الطبيب بينه وبين نفسه: لو قُيِّض رجل مثل هذا لكل قرية، فإن أفريقيا خليقة بأن تُصبح بلادًا عظيمة.

وإن ذلك العدد الكبير من المرضى الذين يحفل بهم المستشفى ليرجع السبب فيه إلى أن القوم كانوا فريسةً لخرافاتهم وجهالتهم وافتقارهم إلى النظافة وبذل الجهود.

لقد كان المستشفى مزدحمًا دائمًا زحمةً تقتضي عملًا أكثر ممَّا يستطيعه طبيبان، وتطلَّب الأمر وجود ممرضة أخرى. ولبَّى الطبيب الشاب «لوتربورغ» السويسري والآنسة «إمَّا هوسكنخب» الألزاسية النداء، وأقبلا ليكرِّسا نفسيهما لمساعدة البائسين في هذه البلاد النائية عن وطنيهما.

واستمرَّت المجاعة إلى العام التالي، وانعدم الطعام إلا الرز، بل إن الرز كان قد شح وأصبح من العسير الحصول عليه، وتوقف العمل في كثيرٍ من معسكرات الأخشاب. وتحيَّر الطبيب ماذا يكون الحال إذا اضطُروا أيضًا إلى هجر المستشفى، وكيف يستطيع أن يطرد المرضى ويُعيدهم إلى قُراهم التي برَّحت بها المجاعة. وكان كثيرون من القوم قد أقبلوا من قُرًى نائية على مسيرة ستين ميلًا أو تسعين، وكان إخراج المرضى الذين شُفوا من المستشفى

هم وذووهم في حينه مشكلةً في كثيرٍ من الأحيان، حتى في الأحوال العادية؛ فقد كان أهل القرى النائية منهم يُضطرون إلى الانتظار حتى يمرَّ زورق أو قارب بخاري ذاهب إلى ناحيتهم — أما الآن فقد أصبح الأمر أسوأ من ذلك؛ لأن القوم كانوا يبقَون في المستشفى أطول مدة ممكنة، يخشَون كل الخشية أن يعودوا إلى الجوع الذي ينتظرهم في قراهم. على أنه لَمَّا أخذ مورد المستشفى من الرز يشح، وأصبح من الميئوس منه أن يحصل المستشفى على المزيد، فقد بدا للأنظار أن ذلك سوف يتمخَّض عن أمرٍ ذي بال، وأخذ أولئك الذين وقفوا في الحصول على أكياسٍ من الرز اشترَوها بمالهم يتقاسمونها مع غيرهم ممن لم يُكتب لهم التوفيق. وحدث في كثيرٍ من الأحيان أن أعطى تاجر خشب جزءًا من زاده من الرز إلى منافسٍ له خلت يداه منه. أما في المستشفى الذي كان يحتاج إلى مائةٍ وخمسة وسبعين رطلًا على الأقل من الرز كل يوم، فإن الطبيب قد عمد إلى إرسال قدرٍ منه إلى مركز البعثة الدينية القائم أعلى النهر وكان في حاجةٍ إليه، كما أعطى أيضًا التجار وأعطى مصنعًا إنجليزيًّا في هذه المنطقة.

وقد تعلَّم الدكتور شفيتزر من المجاعة درسًا مفيدًا؛ هو أن المستشفى يجب أن يكون له مزرعة خاصة ليضمن موردًا من الغذاء مهما حلَّ من المجاعات في المستقبل. ولكن تُرى أين يجد هذه المزرعة؟ لقد كان التل الصغير الذي يقوم عليه المستشفى لا يكاد يتسع للمباني التي رُممت أو أُقيمت منذ عودته إلى أفريقيا؛ ذلك أنها كانت قد خُططت بحيث يتسع لعددٍ من المرضى لا يزيد على الخمسين. وها هي ذي قد آوت إلى الآن ثلاثة أضعاف هذا العدد، فهب أن نارًا شبَّت فيها فماذا تكون الحال؟ وأصابت الطبيبَ رِعدةٌ لهذا الخاطر؛ لأن احتشاد هذه المباني احتشادًا لا يترك إلا فسحةً قليلة بين بناءٍ وبناء يجعل الشرارة الواحدة خليقةً بأن تُدمِّر جميع هذه المباني دفعةً واحدة. لقد كانت الحاجة إذن ماسةً إلى فسحةٍ من الأرض كبيرة، فسحة لمزرعة موز كبيرة، وأخرى يُستنبت فيها المنيوق، ويجب أن تتوافر للمستشفى أيضًا حديقة خُضَرٍ على غرار تلك التي تنمو في أوروبا وأمريكا، وبستانٌ تُزرع فيه أشجار البرتقال والليمون الهندي. أجل يجب أن تتوافر فيه فاكهة المناطق الاستوائية بمقاديرَ عظيمة حتى يتيسَّر للمرضى وذويهم كل ما يحتاجون إليه، وكذلك يجب أن يُتاح للمستشفى فسحة من الأرض يستطيع أن ينمو فيها، فيُزاد عليه من المباني ما تدعو إليه الحاجة.

وكان الطبيب قد لاحظ في كثيرٍ من الأحوال وجود مكان على مسيرة أقل من ميلين من مركز البعثة الدينية في أعالي النهر، وكان هذا المكان مقرَّ قرية قديمة من قُرى الجالوا

يعيش فيه زعيمها نكومبه الملك الشمس. وكان الأهلون يعرفون هذا المكان باسم أدولينا نونجو، ومعناه المكان الذي يُشرف على جميع القبائل، وهو اسم مُوفَّق؛ فعنده كان يتفرَّع النهر إلى فرعين، ويتجلَّى منظرٌ رائع للسماء والماء والغابات الخضر، وتبدو في الأفق تلالٌ زرقاء منخفضة، وقد انتشرت القرى الصغيرة هنا وهناك في فرجات الأرض على طول الشاطئ ظاهرةً للعيان.

وبدأت خطة تتبلور في عقل الطبيب، فمضى مرةً أخرى إلى المكان، وسار وحيدًا مرتقيًا في رِفقٍ المنحدرَ الصاعد، وأصبح يرى بعين الخيال الغابة وقد ظهرت، وأُقيمت مبانٍ رحيبة متينة البنيان تحيط بها أشجار الفاكهة والمزارع.

الفصل الثاني عشر

«إن قوة المُثل العليا لا حد لها؛ فنحن لا نرى في قطرة الماء أية قوة، ولكن هذه القطرة إذا نفذت في صدع صخرة واستحالت جليدًا فإنها تشق الصخرة، وإذا استحالت بخارًا فإنها تُحرِّك مكابس أقوى الآلات طرًّا؛ ذلك أنه يطرأ عليها شيءٌ يثير القوة الكامنة فيها ويُطلقها من إسارها.»

من كتابه: «ذكريات الطفولة والشباب»

وعاد الدكتور شفيتزر ذات مساء من رحلةٍ خفية أبعد فيها السيرَ عن المستشفى ونادى الطبيبَين والمرضتَين، فاجتمعوا عنده وقال لهم إن لديه أخبارًا يود أن يُنبئهم بها، وروى لهم كيف أن المستشفى سوف يُنقل إلى مكانٍ أفسح وأكبر، وأنه قد انتظر حتى يستوثق من خُطَطه قبل أن يُفصح عنها، أمَّا الآن فقد وافق مأمور القسم على أن يستخدم المستشفى قطعةً من الأرض مساحتها مائة واثنان وسبعون فدانًا تقوم في موقع قرية الجالوا القديمة.

وعقدت الدهشة ألسنة زملائه في العمل أول الأمر، ثم انطلقوا يصيحون صيحات الفرح، وبدءوا جميعًا يتحدَّثون ويرسمون خططهم العاجلة والآجلة. صحيح أنه سوف تتوافر لهم مبانٍ أقوى وأمتن، وفسحةٌ من الأرض تَسَع عنابر عزل المصابين، وفسحة أخرى يتسع فيها المستشفى وينمو، وفسحة يزرعون فيها ما يكفي مرضاهم ويكفيهم من مواد الغذاء، ولكن يا لها من مغامرة! ذلك أن هذا المكان كان قد ارتدَّ إلى حضن الغابة تمامًا في تلك السنوات التي تلت نزوح أهله عنه.

وأخذ الأفريقيون الواقفون بالقرب منهم يُحملقون فيهم عجبًا ودهشة؛ ذلك أنهم لم يكونوا قد رأوا الأوروبيين قط يشيرون مثل هذه الإشارات، ولا سمعوهم يُثرثرون مثل

هذه الثرثرة، وبدا لهم ذلك كأنه مؤتمرٌ من مؤتمراتهم هم المتصلة حين يجتمع رجالهم ويتحدَّثون تحت سقف البيوت التي يعقدون فيها هذه المؤتمرات.

وكان أول شيء يجب أن يفعله القائمون بأمر المستشفى هو أن يُقيموا عُمدًا يحدِّدون بها المنطقة التي مُنحت لهم حتى يمكنهم رسم خطة الأرض وإطلاع مأمور الناحية عليها واعتمادها،. وأخذ الدكتور شفيتزر والبوصلةُ في يده يشق طريقه خلال الغابة المتشابكة الأغصان، وقد تبعه مساعدوه عن كثب، وراحوا على نشز الأرض يضعون علامات على الأشجار بحزِّها حزوزًا، ويغرسون في ثرى المستنقعات اللين قضبانًا طويلة بين الواحد والآخر ستون قدمًا، ثم بدءوا يطهِّرون الأرض.

وكان الدكتور شفيتزر يُقارن عمل يوم مع هؤلاء الرجال بحركات السيمفونية؛ فهم يبدءون متمهِّلين مُحجمين، ثم تتحرك السكاكين التي تقطع الشجيرات في اعتدالٍ شديد، يحاول المقدم عبثًا أن يزيد من سرعة حركتها. وكان حلول الظهيرة ووقت الراحة يضع حدًّا لهذه الحركة، ثم يستأنف الرجال عملهم بعد طول استحثاث متمهِّلين أكثر، وتسكن الريح سكونًا تامًّا، وتُسمَع ضربات الفأس من حينٍ إلى حين، ثم تعقب ذلك مُلَح قليلة يلقيها الطبيب، فتنبعث الضحكات والكلمات المرحة، ويبدأ عددٌ قليل من الرجال يغنِّي، وتهب نسمة ريح مقبلة من النهر، ثم تُختتم السيمفونية بالانتعاش الذي يعم الجميع، ويُنزلون ضرباتهم بالأشجار صارخين صاخبين، وتنهال الفئوس وسكاكين قطع الشجيرات في صوتٍ أعلى وحركة أسرع حتى يصيح الطبيب أخيرًا: كفى!

وينتهي عمل اليوم.

ويظل العُمال يثرثرون وهم يجمعون أدواتهم ويردونها إلى الزوارق متأهِّبين لرحلة العودة هابطين النهر. وما كان أعجب الطبيب الأكبر من إنسان! فقد كان يلتقط عظايةً أو ضفدعة ويُبعدها عن طريقهم حتى لا تصاب بأذًى حين كان يُساعد العمال في الحفر أو تطهير الأرض. ولم يقنع بالإبقاء على الحيوانات فحسب، بل كان يبقي أيضًا على بعض الشجيرات. وكان العمال يفهمون لمَ يُبقي على شجرة من أشجار قطن الحرير؛ لأنها كانت هي شجرة مشايخ القبائل، ولكن لكل قرية شجرة من هذه الأشجار يجتمع عندها مشايخ القوم ويروون قصصًا من الأيام الخالية حين كانت الحيوانات تُجاذب الناس الحديث. أجل لقد كانت شجرة القطن الحرير شجرةً سحرية لها أوراق تُتخذ عقارًا شافيًا لكل الأمراض. ولكن الطبيب كان لا يحملهم على الإبقاء على شجرة قطن الحرير فحسب، بل على النخيل الذي يُستخرج منه الزيت أيضًا، فكان يضطرهم إلى فتح ثغرة خلال النباتات

الزاحفة ليبلغوا نخلةً ضئيلة صغيرة ويُطهِّروا حولها، وما كان أيسر عليهم أن يجتنبوا كل الأشجار التي تقع تحت أنظارهم، ويدَعوها حتى تجف ثم يحرقوا الغابة بأسرها، ولو فعلوا ذلك لوقع في حبائلهم عددٌ كبير من الحيوانات يكفي لتزويدهم باللحم أيامًا كثيرة، ولكن الطبيب لم يكن قط يُطيق ذلك بأي حال من الأحوال.

ومضى الرجال يعزقون عشب اللانتانا المزهر ونباتات أذن الفيل العريضة، ويجوسون خلال أشجار السرخس وأشجار الكنَّاس البرية التي تنمو حتى تبلغ قامة الرجل.

وكان الطبيب الأكبر يقول لهم احترسوا من الأغصان العالية! واستوثقوا حتى تأمنوا الأفاعي التي تكمن تحت أقدامكم، وأرهفوا السمع منتبهين إلى صوت الفهود أو الغوريلا التي تكمن في الدَّغَل، ولا تسيروا قرب صف من النمل الزحَّاف، وتجنَّبوا لدغات ذباب تسي تسي والبعوض، وابتعدوا عن النباتات الواخزة تخز أقدامكم والبراغيث تتسلَّل بين أصابع أقدامكم.

وأخذوا يُغنون أغنيةً عن البراغيث:

«تسا! تسا! نجومكا! تسا!»

«لا يستطيع المرء أن يرقص والبراغيث بين أصابع قدميه!»

ولم يكن هذا بالشيء الذي يدعو إلى الضحك؛ إذ يندر أن تجد مواطنًا من هذه المنطقة بلغ أشُده وظل محتفظًا بأصابع أقدامه العشرة بسبب هذه الحشرة الضئيلة التي تنقِّب متسللةً تحت الظفر وتُصيب المرء بالْتهاباتٍ خطيرة.

ومضى العمل في سبيله واستطاع الطبيب أن يرى الحلم الذي راوده وقتًا طويلًا يتحقَّق، ولسوف يغدو هذا المكان يومًا جنة عدن تحفل بمئات من أشجار الفاكهة نبتت من الحَب الذي أُلقي في الأرض، ولسوف يتوافر له أيضًا كل صنف من الفاكهة والخضراوات التي يمكن أن تنمو في مُناخ المناطق الاستوائية؛ أجل، سوف يتوافر الغذاء بعدُ للجميع في هذه الأرض التي لم تزوِّدها الطبيعة بنبات يؤكل، والتي كان يُجلب إليها ويُزرع كل ما يحمل فاكهةً أو ورقًا أو جذورًا يغتذي بها الناس؛ وسوف يتوافر لهم أيضًا زيت للطهي من نخيل الزيت التي أُبقي عليها، ولسوف يُجلب إلى هذه الأرض أيضًا قطيع من الماعز نُشِّئ بحيث يستطيع أن يقاوم ذبابة تسي تسي، ويدر اللبن للمرضى والأطفال اليتامى، ولربما جاء يوم يكثر فيه الطعام كثرةً تُتيح لكل فرد أن يحصل على كل حاجته، وتنمحي أسباب الجوع والقحط ولا يرتكب أحد جريمة السرقة ليأكل.

وبدأت مباني المستشفى نفسها تنهض شيئًا فشيئًا وتتخذ الصورة المرسومة لها. وكان الطبيب قد تعلَّم الكثير في السنين التي انقضت منذ أن قَدِم إلى المناطق الاستوائية أول مرة، وتزوَّد بهذه الخبرة قبل أن يبدأ في إقامة مستشفًى دائم. ولن يجد بعدُ مباني أُقيمت من الخيزران وغُطيت سقوفها بأوراق الشجر على مألوف القوم في هذه الأنحاء من أفريقيا. لقد كانت هذه المباني تحتاج دائمًا إلى إصلاحٍ حتى لا تسقط أو تتهاوى، وتقتطع بذلك من الأوقات الثمينة التي ينفقها الأطباء أنفسهم في العناية بالمرضى ساعات يقضونها في أعمال النجارة والأعمال اليدوية. وكان العمل في إعداد الحجارة أو الآجُر لا محل له؛ وذلك أنه كان خليقًا بأن يستغرق وقتًا طويلًا ويتطلَّب نفقات كثيرة. وكان الحديد المموَّج يُقام على هيكلٍ ضخم من الأخشاب هو الحلَّ الوحيد، وكان الأمر يتطلَّب طِلاءه طلاءً يرد عنه أشعة الشمس.

والشمس قرب خط الاستواء تميل قليلًا من الشمال إلى الجنوب، وهي في ذروتها شتاءً وصيفًا تسطع فوق الرءوس مباشرة؛ ولذلك وجب أن تكون المباني مستطيلةً ضيقة، وأن تكون أطرافها الهرمية مواجِهةً للشرق والغرب لتتحمَّل أشعة الشمس المُحرِقة، بحيث يمكن أن يُفتح جانبَا المبنى الشمالي والجنوبي بطولهما لتلَقي النسيم.

ورُسمت خطة خمسة مبانٍ تستطيع أن تُئوي أكثر من مائتَي مريض وأقاربهم أو أصدقائهم الذين يأتون معهم، وأُقيمت هذه المباني على منحدر التل حيث يُمكن أن يُطِل المرضى على نهر أوجو ليشاهدوا زوارقهم المربوطة عند المرسى تنتظر لتحملهم في عودتهم إلى قُراهم حين يُشفَون من مرضهم.

وفي غمرة هذا العمل كله بلغت الأنباء الدكتور شفيتزر بأن جامعة براغ قد منحته درجةً علمية فخرية. وما كان أبعد ذلك العالم عن هذه الغابة من الأشجار الضخمة والكروم والنباتات المتسلِّقة البرية والوحوش تتهادى في الدَّغَل! وكانت تلك الجموع من الناس المُخلِدين إلى السكون في ذلك البهو الخافت الإضاءة يُصغون إليه وهو يتحدَّث إليهم من المنصة أو يعزف لهم على الأرغن، تبدو وكأنها كوكبٌ آخر. ومع ذلك فإن هذين العالمين كانا متداخلَين تداخلًا محكمًا كأنهما اللُّحمة والسَّدَى في نسيجٍ واحد. وكان أولئك الذين كانوا يجيئون إلى البهو يستمعون إليه ويُصفِّقون له تقديرًا وتكريمًا، وأولئك الذين كانوا يقرءون كُتبه هم أولئك الذين كتبوا الرسائل التي كانت لا تزال تَرِد إليه في الأكياس مع كل بريد. وقد كان لهم جميعًا، بفضل كلمات التشجيع التي يوجِّهونها إليه والمساعدات التي

يبذلونها له، نصيبٌ في هذا العمل الذي حقَّقه في هذه الغابة الأولية، وبفضلهم أيضًا أصبح من الميسور بعد أن يُقام ذلك الطراز من المستشفى الذي كان يحتاج إليه الدكتور شفيتزر.

وكان هذا هو الذي أقنعه إقناعًا يفوق اقتناعه في أي لحظة مضت بأن في قلوب معظم الناس زادًا مكنونًا من الخير. لقد كان يعلم أن كثيرًا من الناس قد أُوتوا العزيمة والرغبة الشديدة في أن يُكرِّسوا حياتهم في تخفيف الشقاء والبؤس اللذين يلحقان بإخوانهم في البشرية، فكانوا إذا عجِزوا عن أن يكون لهم قدرٌ فعَّال في هذا النوع من العمل، ساعدوه عليه وشاركوا فيه بما يستطيعون. وقد يظل الخير الذي أسداه هؤلاء الناس وأسماء الكثيرين الذين يسَّروا له المُضي في عمله بفضل ما بعثوا إليه من مساعداتٍ خافية لا يعلم بأمرها إلا القليلون. ولكن كان هذا الخير أعظم أضعافًا مضاعفةً من الخير الذي يستلفت أنظار العالم، وكان يُشبِّهه بالبحر إذ يقارَن بالأمواج التي تصطخب على سطحه. وكان يَعُد نفسه وكيلًا عن أولئك الذين أتاحوا له أن يعمل هنا، وأشعرته هذه الفكرة بضآلة قدره.

فلما تمَّ من المباني ما يكفي انتقل إليها المرضى، وكان الطبيب يقضي طول يومه على ضفة النهر مع المرضى في زوارقهم يتنقَّل من المستشفى القديم إلى المستشفى الجديد، ولما مرَّ بالمستشفى في تلك الليلة مرورَه المعهود ليستوثق من أنهم جميعًا في حالةٍ طيبة، لقي التحيات من وراء ناموسية كل سرير ومن جميع أقارب المرضى الذين اجتمعوا حول أواني الطهي الخاصة بهم: إنه لكوخٌ جيد أيها الطبيب، كوخ جيد جدًّا!

وأسكن هؤلاء القوم لأول مرة في حياتهم كما ينبغي أن يسكن البشر. أجل، سكنوا مساكن تُظِلها سقوف محكمة، تقيهم الجو ويكسو أرضها أديمٌ من الأسمنت بدلًا من الثرى العاري.

وأقبل طبيبان أوروبيان آخران ليشاركا في العمل، وأُضيفت إلى هيئة المستشفى ممرضات أخريات أيضًا، وأصبح من الميسور بعدُ أن يشخَص طبيب إلى المرضى الذين يعيشون بعيدًا ويعجزون عن أن يتحمَّلوا الرحلة الشاقة إلى المستشفى. وكان في الإمكان دائمًا أن يُخلَّى طبيب من العمل فيمضي ومعه العقاقير والأجهزة اللازمة إلى المرضى ليعالجهم في قُراهم.

وترك يوسف المستشفى وقد أوشكت المباني الجديدة أن تتم؛ ذلك أنه لم يكن قد نجح في عمله تاجرًا للخشب، فمضى إلى معسكرٍ من معسكرات الأخشاب ليشتغل عاملًا فيه. وكان فِراقه للطبيب الأكبر أليمًا حزَّ في نفس الرجلين؛ ذلك أنهما ودَّعا بذلك صحبةً استمرَّت

منذ بدء العمل في المستشفى. وظلَّ يوسف حتى في عمله الجديد القائم على الاحتطاب يسمِّي نفسه مساعد الدكتور شفيتزر الأول، وكان يطيب له أن يشرح لمستمعيه المَرُوعين في الدَّغَل كيف كان يحقن المرضى بالإبرة تحت الجلد.

فلمَّا سار العمل في يُسر بالمستشفى الذي قام في الموقع الجديد بدأ الدكتور شفيتزر يفكِّر في إجازةٍ هو بها جدير يقضيها بين أسرته في الألزاس مرةً أخرى، وكان يستطيع في هذه المرة أن يرحل آمنًا لعلمه بوجود الأيدي القادرة على النهوض بالعمل في غيبته.

وانطلق رجلٌ يعدو لائذًا بالطبيب حين سمع بأنه مقبل على الرحيل وقال: أيها الطبيب، هل أصدرتَ أوامرك بما يكفل ألَّا يُقدِم أحد على طردي حين ترحل؟

وكان هذا الرجل من المصابين بالأمراض العقلية، حُمل منذ أشهر قلائل مُكبَّلًا بالأغلال؛ ذلك أنه كان قد قتل في سَورة جنونه امرأةً من أهل قبيلته، وردَّ الآن إلى شيءٍ من عقله بحيث أصبح قادرًا على التمشي في ساحات المستشفى، بل لقد بلغ من أمره أنهم استطاعوا أن يُنيطوا به بعض الأعمال الهينة مثل سَن حد الفئوس. وأخذ يقضي حياته هنا هادئًا راضيًا إلا من خوفٍ مُلِح كان يدركه فيجعله يخشى أن يُرَد إلى قريته وإلى المصير الذي كان ينتظره هنالك.

وأجابه الطبيب: كلا بالطبع يانتشامبي؛ فإن أحدًا لا يستطيع أن يطردك إلا إذا تداول معي مداولةً طويلة.

وضغط الرجل على يدَي الطبيب كلتيهما، وفاضت دموع الفرح على خديه الأسمرين.

وبعد ستة أشهر من الانتقال إلى المستشفى الجديد، وقف الدكتور شفيتزر على سطح الباخرة التي كانت تحمله في عودته إلى أوروبا، ومضت الباخرة تسير سيرًا وئيدًا في خروجها من الجون وأشعةُ الشمس تسطع مشرقة، وأخذ الساحل الذي تُوَشِّيه أشجار النخيل يتراجع على البعد.

أجل وقف الطبيب يساوره ذلك الألم الذي يساوره كلما رحل عن مكانٍ أحبَّه، وراح يرقب نهر أوجو وأغصانُه المتشابكة جميعًا تذوي في ثنايا تلك الشقة المخضوضرة من الساحل حتى غاب عن الأنظار، وتلاشت معه أسرار أفريقيا المستوحشة القاسية، ولم يبقَ في ذاكرته إلا جمالها وحُسنها.

وأخذ الطبيب يفكِّر في مبلغ ما يمكن أن يشغف به المرء من حب هؤلاء القوم الذين يعيشون هنا على الرغم من المتاعب التي يلقاها منهم أحيانًا، وقد اضطُر يومًا أن يذكِّر الدكتور نسمان الطبيب الأصغر حين ضاق بفعلٍ مثير أتاه البنجابية وانزعج له: «لسوف تعود يومًا فتنظر إلى هؤلاء القوم أنفسهم نظرةً تنطوي على المحبة وتأسى لفراقك إياهم.»

ولَمَّا غابت عن نظره أفريقيا وهو يرقبها من فوق سطح الباخرة ولم يعد يرى إلا الماء، هبط الدكتور شفيتزر إلى أسفل الباخرة لينقل متاعه إلى قُمرته آملًا أن يخفِّف ذلك بعض التخفيف من ألم الفراق الذي كان يساوره.

وكان من بين زملائه في السفر تُجار أخشاب ومبعوثون دينيون من إقليم أوجو، وكانوا هم أيضًا عائدين في إجازة يقضونها بين أسرهم في أوروبا؛ ذلك أن أفريقيا لم تكن في ذلك الوقت مكانًا يأمن المرء فيه على الأطفال الصغار، أو على أولئك الذين لا يُطيقون ذلك الجو المرهِق.

ولحق الطبيب بهؤلاء وهم يجلسون معًا يتحدَّثون عن البلاد التي غادروها وعن أهلها، وكان بعضهم يُحس بالفعل لوعة الحنين إلى هذه البلاد، وأخذ آخرون كانوا قد أقاموا فيها مدةً طويلة ينتقدونها، وراح أحدهم، وهو تاجر أخشاب، يشكو من أنه دفع مبالغ مقدمًا في نظير كتل من الخشب ولم تُسلَّم إليه هذه الكتل قط. وتحدَّث آخر عن قومٍ كانوا يبيعون أطوافًا محمَّلةً بكتل الخشب إلى أكثر من مشترٍ، ويحصلون على مقدَّم الثمن من كل واحد. وتحدَّث الرجلان قائلَين: إنه يحدث في كثيرٍ من الأحيان أن يتسلَّم الشاري الكتل ثم يجدها من صنفٍ قليل القيمة مخالف لِمَا اتفقوا عليه.

وقال رجلٌ من المشترين ظلَّ صامتًا حتى ذلك الحين: إن الوطنيين ليسوا جميعًا سواءً في ذلك، وإني لأعرف تاجرًا يستطيع المرء أن يثق فيه ثقةً مطلقة وهو يعيش في إقليم بحيرة ألومبي، فإذا عقدت صفقةً معه فإنك تستطيع أن تطمئن إلى تسلُّم الخشب، وأن تضمن أن صنفه هو الصنف الذي تمَّ عليه الاتفاق. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن هذا الرجل لا يسألك المزيد ثم المزيد من مقدَّم الثمن، بل هو لا يقبل حتى ما يُقدَّم إليه من مال، ويقول لك إنه يفضِّل ألَّا يأخذ أي مال حتى يسلِّم البضاعة.

وقال مبعوثٌ من هؤلاء المسافرين: إن اسم ذلك الرجل هو أويمبو، أليس كذلك؟

فأجاب تاجر الخشب: أجل إن ذلك هو اسمه بلا شك.

وأنصت الطبيب فخورًا إذ اشترك الآخرون في الحديث، وأخذوا يروون ما وقع بينهم وبينه.

وشرع رجلٌ ثالث يقول: «إن لي قصةً أرويها عن هذا الأويمبو: لقد كنت مرةً أركب متن هذه البحيرة في زورقٍ مسطح، وإذا بعاصفةٍ تهب، وكانت الريح مواجِهةً لنا، وبدأنا نفقد كل أمل في بلوغ الشاطئ، وكان كل ما نفكِّر فيه حيال هذه المحنة هو كم يمتد بنا

الوقت حتى ينقلب الزورق ويمتلئ بالماء. وكان رجالي جميعًا ممن يعيشون في داخل البلاد، ولم يكن فيهم أحد يستطيع السباحة.»

«وعزَّ عليَّ أن أرجو المساعدة من أهل القرية الواقعة على ضفة البحيرة. وما كان لزورق أن يتحمَّل تلك العاصفة إلا زورق كبير من ذلك الطراز الذي كان يصنعه القوم في الأيام السالفة، ولكن لم يكن أحدٌ بعدُ يصنع زوارق من هذا القبيل، ومن ذا الذي كان يمكن أن يلوم القوم على إحجامهم عن المخاطرة بحياتهم فيركبوا متن زورق مسطح كزورقنا محاولين أن يخلِّصونا من هذه المحنة؟»

«وإذا بي أرى زورقًا كبيرًا من ذلك الطراز الذي كان يصنعه القوم في سالف الأزمان مُقبلًا نحونا في غمرة العاصفة. ووصل إلينا الزورق الكبير، وقد بدا زورقنا يميل وينقلب، ولم يكتفِ رجاله بمد أيديهم إلينا منقذين أرواحنا فحسب، بل أنقذوا أيضًا متاعنا وحملونا إلى القرية حيث جُفِّفت ملابسنا، وأنزلونا أحسن منزل، وقدَّموا لنا أطيب طعام، ودعانا شيخ القرية إلى بيته حيث أخرج متاعي وترك كل شيء فيه ليجف. فلمَّا حزمت متاعي في صبيحة اليوم التالي وجدته سليمًا لم يَضِع منه شيء. ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ ذلك أنني حين ودَّعت الشيخ وشكرته سألته عمَّا يكون في عنقي لأهل القرية من مالٍ لقاء كل ما فعلوه من أجلي، فأجاب الشيخ: ليس في عنقك لهم شيء، وإنما أدَّى هؤلاء الرجال واجبهم، وإن الرجال الأخيار لا يسألون أحدًا شيئًا لقاء فعلٍ من هذا القبيل.»

«هاكم ما حدث، وتلك هي قصتي مع أويمبو.»

وكان الدكتور شفيتزر يستطيع أن يفكِّر في أشخاصٍ كثيرين آخرين من أصدقائه الأفريقيين يمكن مقارنتهم بأويمبو، وأحسَّ بأن أولئك الرجال أنفسهم الذين آنس فيهم تجارُ الخشب بعضَ النقائص يتصفون بخلالٍ حميدة يمكن للمرء أن يستشفها إذا تجاوز عن الفروق القائمة بين قواعد الأخلاق والعادات من بلدٍ إلى بلد، ورأى حقيقة الرجل المختفية وراء هذا القناع من الأخلاق والعادات، فإن الناس جميعًا يتكشَّفون للمرء الذي أوتي من الحب والصبر ما يتيح له أن يفهمهم.

الفصل الثالث عشر

«إن أعمق التفكير تفكير محدود؛ ذلك أنه إنما يعني بأن تضطرم شعلة الحق التي يُبقي عليها متأجِّجةً بأقوى حرارة وأخلصها، ولا يُعنى بالمدى الذي يبلغه ضياؤها.»

من كتابه: «التفكير الهندي ونموه»

ومن هذا اليوم أصبح للدكتور شفيتزر دائمًا مكانان يستطيع أن يقول إنهما وطنه، ولسوف يظل قلبه بقية حياته مشدودًا بينهما، يساوره تردُّد في أن يرحل عن أحدهما وشوق إلى العودة إلى الآخر.

ومضى إلى منتجعٍ جبليٍّ في الغابة السوداء هو وزوجته وابنته رينا التي كانت قد بلغت حينذاك الخامسة، وغدت في سن تسمح لها بأن تستمع إلى القصص التي يرويها لها عن الحيوانات المتوحشة في المستشفى وتفتن بها. وكانت بعض هذه الحيوانات قد حُملت إلى المستشفى وقد أصيبت بجرحٍ من بندقية صياد، وبعضها قد أصيب باليتم بعد أن قُتلت أمه، وكانت هناك ظباء، وتكلا الخنزيرة البرية، وفيفي النعامة، ورباح، وطائرٌ من طيور البطريق كان يطير باختياره كل مساء ليجثم على الروافد خارج باب الطبيب؛ وكان هناك أيضًا الغوريلا الطفلة التي كانت تتعلَّم آداب المائدة، فتأكل العصيدة بملعقة وتلبس ميدعتها على أحسن حال؛ وكذلك كان نسناستان خبيثتان؛ كندا وأوبي، راحتا تلعبان معًا مندفعتين فوق أشجار المانجو وأشجار النخيل في سرعةٍ عجيبة، صاعدتين هابطتين حتى يُخيَّل للمرء أن هذه الأشجار قد امتلأت بالنسانيس.

على أن «رينا» كانت لا بد أن تنتظر حتى تكبر لتستطيع أن ترى الحيوانات بنفسها، وكانت مثل جميع أطفال الرجال الآخرين، الذين اقتضاهم عملهم أن يذهبوا إلى أفريقيا في ذلك الوقت، لا مناص من أن تبقى في أوروبا حيث الجو أسلم وأصح.

وقضى الطبيب سنتَين حافلتَين وقد طُلب منه أن يحضر أو يُقيم حفلات يعزف فيها منفردًا على الأرغن في السويد والدنمارك وهولاندة وسويسرة وإنجلترة وألمانيا، وفي البلاد التي أُنشئت حديثًا وهي تشيكوسلوفاكيا. وكان كلما سنحت له الفرصة عاد إلى أسرته في الأوقات التي تتخلَّل هذه المشاغل، فيمضي حينًا إلى الغابة السوداء وحينًا إلى الألزاس.

وكانت صحة هيلين شفيتزر قد تحسَّنت تحسُّنًا جعل من الميسور عليها أن تعود إلى أفريقيا مع زوجها، وتركت الصغيرة رينا في عناية بعض الأقرباء، ولكن لم يمضِ على ذلك إلا أشهر قلائل حتى بدأ الجو يثقل على هيلين شفيتزر مرةً أخرى، فلم تجد بدًّا من الرحيل، ولحق بها الطبيب خلال السنة التالية.

وكان في المستشفى آنئذٍ عددٌ أوفر من الأطباء والممرضات؛ فكان خمسةٌ من الأطباء ومثل هذا العدد من الممرضات يتعاونون على العمل. صحيح أنه كان لا يزال ثمة شيء كثير يقتضي التحقيق، إلا أن تحقيقه لم يعد يجاوز طاقة أي منهم. وكان الدكتور شفيتزر عندما يمضي في رحلته إلى أوروبا سنةً بعد سنة، يعلم أن العمل في المستشفى يتم على ما يرجوه.

وفي سنة ١٩٣٢م ألقى خطابًا في فرانكفورت بألمانيا بمناسبة حلول الذكرى المائة لوفاة جوته، وبدأ الطبيب هنالك وسط حشدٍ من الناس ازدحمت بهم دار الأوبرا في الساعة نفسها التي لفظ فيها الشاعر العظيم آخر أنفاسه في الثاني والعشرين من شهر مارس، واستمع إليه الحاضرون مأخوذين وهو يتحدَّث إليهم، مدركين المأساة التي تواجه أمتهم؛ ذلك أنه قد ساورت عقولَ الكثيرين منهم بلا شك أفكارٌ عن زعيم جديد أخذ يظهر في أُفق حياتهم، زعيم لم يكن قد سمع أحدٌ عنه شيئًا منذ قليل، ألَا وهو أدولف هتلر وأنصاره من ذوي القمصان القاتمة، وغشي جموعَ المستمعين شعورٌ بالنذر، وقال لهم الطبيب في ذلك اليوم: «لطالما أُقنع الإنسان بآلاف مختلفة من الوسائل بأن يتخلَّى عن الأسباب الطبيعية التي تربطه بالحقيقة، وأن يلتمس سعادته في صيغٍ سحرية تتصل بعض الاتصال بالشعوذة الاقتصادية أو الاجتماعية، فيباعد ذلك بينه وبين الفرصة المتاحة له لتحرير نفسه من إسار الشقاء الاقتصادي والاجتماعي.»

وقال للمستمعين: إن مأساة هذا النوع الجديد من الشعوذة، ألَا وهي ظهور زعماء في كثيرٍ جدًّا من البلاد: في ألمانيا وفي إيطاليا وفي روسيا، تتمثَّل في أن المرء يُضطر في ظلهم إلى أن يتخلَّى عن شخصيته المادية والروحية، ويعيش عيشة واحد من ذلك السواد من الناس، الذين ابتُليت حياتهم الروحية والمادية بالقلق، ويَدَّعي هؤلاء الزعماء أن لهم السلطان عليه.

وهنالك ذكَّر المستمعين بأن ذكرى أخرى من ذكريات جوته ستحل سنة ١٩٤٩م، وهي ذكرى مرور مائتي سنة على مولد هذا الشاعر العظيم، ولكن أي شيء ينتظر أن تتمخَّض عنه تلك السنون السبع عشرة التالية؟ لقد غشي العالم كلَّه آنئذٍ شعورٌ بقَدَر محتوم، ولم يكن أحد يعلم متى وأين تنزل الكارثة.

ومضى الطبيب قائلًا: «أليس من الجائز أن يستطيع هذا الذي سيُلقي خطاب الذكرى في الاحتفال الجديد أن يقول بأن الظلام المدلهم الذي يحيط به قد بدأ ينجاب بالفعل، وأن شعبًا أُوتي الإحساس الصحيح بالحقيقة يسعى الآن إلى أن يُدرك ذلك، وبدأ يحقِّق السيطرة على المطالب المادية والاجتماعية وقد اجتمعت عزيمته على أن يظل وفيًّا للمثل الواحد الحق للإنسانية.»

وأحسَّ الدكتور شفيتزر في عودته من أوروبا إلى أفريقيا بانشغال أعمق من ذلك الذي أحسَّ به في رحلته الأولى سنة ١٩١٣م قبل نشوب الحرب العالمية الأولى.

وقد كتب في ذلك يقول: «إني أختلف تمام الاختلاف مع روح العصر؛ لأنها مفعمة باحتقار التفكير.»

وقال: إن روح العصر لا تحتقر التفكير فحسب، بل هي تشك فيه فعلًا؛ ذلك أن جميع الهيئات السياسية والاجتماعية والدينية المنظِّمة في هذا العصر، تحاول فيما يبدو له أن تصرف الناس عن أن يتخذوا ما يرَونه هم من عقائدَ يصلون إليها بتفكيرهم الخاص، وهي تريد الناس على أن يؤمنوا بمثل عقائدها هي التي صنعتها من أجلهم، فإذا توصَّل أي إنسان إلى أية فكرة بفعله هو فإنه يكون مناوئًا لهؤلاء الزعماء الجدد بل خطرًا عليهم. أجل، إن روح هذا العصر لا تسمح لإنسان أن يكتشف حقيقة ذاته. وهذا الذي كان يحدث خليقٌ بأن يؤثِّر في العالم كله بمرور الزمن.

وكان الدكتور شفيتزر في مستشفاه الأفريقي يستطيع أن يمد بصره ويرى نهر أوجو الساكن تحف به تلك الغابة المهولة المنيعة بخضرتها الرائعة، تغشى الجزيرة، وحافة النهر على الضفة المقابلة، وتنعكس على صفحة الماء القائم. وكانت النسانيس هنالك على البعد تقفز من شجرةٍ إلى شجرة، وتُغفي التماسيح على الضفاف الرملية، وتسف طيور البجع مارقةً فوق الماء كما كانت منذ بدء الخليقة. وكانت الفهود تجوس بعيدًا في الظلام، والفيلة تدب دانيةً من مزارع الموز الصغيرة الخاصة بالمستشفى. وكانت ذبابة تسي تسي لا تزال أيضًا تطير بالنهار منطلقةً تلدغ الناس فتصيبهم بمرض النوم، ويستأنف البعوض هجومه بالليل.

على أن أفريقيا وإن كانت قد ظلَّت على حالها لم تتغير، إلا أنها لم تعد بعدُ منعزلةً عن العالم؛ فقد كانت الطائرات تطير آنئذٍ عابرةً المحيط الأطلسي والمحيط الهادي، كما أن الطائرات أيضًا كانت تستطيع الطيران إلى أفريقيا، فلما حلَّ هذا الوقت أصبحت الرحلة التي كانت تستغرق في اجتيازها الأدغال أسابيع تُقطع بالطائرات في ساعةٍ واحدة، أو أقل، وأصبحت الزوارق أكثر سرعةً مما كانت عليه سنة ١٩١٣م حين قدم الطبيب إلى هنا أول مرة، وكذلك أصبحت الرحلة من أوروبا إلى أفريقيا تستغرق أربعة أسابيع فقط، وزادت المرات التي يصل فيها البريد.

وأصبح وقت الطبيب في السنوات السبع التالية مقسَّمًا بين أفريقيا وأوروبا. وراح يُعنى بالفقراء والمرضى، أو يُلقي محاضرات أو يقيم حفلات موسيقيةً في القاعات المزدحمة بالمستمعين في أكبر حواضر أوروبا. وكانت زوجته تلحق به في كثيرٍ من الأحيان حين يكون في أفريقيا وتقيم معه بقدر ما تسمح صحتها، ثم تعود لتعيش مع ابنتها في جوٍّ ألطف وأجف.

وكان وطن الطبيب في أوروبا لا يعدو في نظره دائمًا بلدة جونسباخ، حتى بعد أن تُوفي والده، وأخذ يعيش في بيته سُكان آخرون، وشيَّد الطبيب بالمال الذي تلقَّاه من جائزة جوته بيتًا في هذه القرية الألزاسية الصغيرة التي شهدت ذكريات طفولته السعيدة. وكانت شهرته قد ذاعت ذيوعًا جعل الناس يُقبلون عليه من كثيرٍ من البلاد كلما سمعوا أنه هناك.

وكان في هذا الطبيب تواضعٌ غريب في عالم جُنَّ بالقوة والسلطان، وراح زعماؤه يخطرون في عظمةٍ أمام الناس وقد حفلت صدورهم بالنياشين.

فلما بلغ الطبيبُ سن الستين كان يحتفظ بصمته ونشاطه المعهودَين اللذين أباحا له في شبابه أن يدرس ويكتب ليل نهار دون أن يُحس تعبًا أو إرهاقًا.

وقال له صديقٌ مرةً بعد أن ظلَّ الطبيب يعمل حتى الساعة الرابعة صباحًا: «إنك لا تستطيع أن تدأب على تبديد حياتك على هذا النحو كالشمعة تحترق من طرفيها.»

فأجابه الطبيب: «لا، إن المرء يستطيع ذلك إذا كانت الشمعة طويلةً بما فيه الكفاية.»

لقد كان الطبيب رجلًا عاملًا من أصحاب الضمائر؛ فقد كانت كل محاضرة يُلقيها يكتبها في عنايةٍ مضنية، ثم يُراجعها قبل إلقائها جملةً جملة مع مترجم إذا كانت البلاد التي سيُلقي فيها المحاضرة لا تفهم الفرنسية والألمانية. وقد عُرف عنه أنه كان إذا نوى العزف في حفلةٍ موسيقية، أخذ يتمرَّن على العزف قبل الحفلة ثماني ساعات لا يرتاح فيها لحظة، ويروح بمعاونة مساعد يصعد إلى عِلية الأرغن وينزل عدة مرات ليستوثق من

الأنغام التي تؤدِّيها أنابيبه المختلفة؛ لأنه ما من أرغنَين اثنين يتفقان في أصواتهما. ثم يشير بالقلم الرصاص على العلامات الموسيقية للقطعة التي سيعزفها، إلى الأنابيب التي سوف يستخدمها، وبذلك يكون أداؤه سليمًا بقدر ما يستطيع.

وقد طُلب من الدكتور شفيتزر مرةً أن يلقي موعظة عيد الميلاد في بلدةٍ من أعمال هولندة، فلم يكتفِ بإلقاء الموعظة فحسب، بل عزف على الأرغن أيضًا. وارتسمت أمارات الوحشة على وجوه الناس حين سمعوا الافتتاحية.

وكان الطبيب قد أنفق دون أن يعلموا عدة أيام في عِلية الأرغن، ينظِّف أنابيبه بنفسه وقد غشيه الغبار وتصبَّب منه العرق.

وكان في برنامج عمله الحافل وقت أيضًا لتأليف كتب أخرى كانت تتم على مهلٍ فصلًا فصلًا، مثل كتاب «صوفية القديس بولس الرسول»، وكتاب «خلاصة حياتي وأفكاري»، وكتاب «عظماء المفكرين في الهند».

وقُدر للدكتور شفيتزر حين بلغ أوروبا سنة ١٩٣٩م في زيارته المنتظمة لها عامًا بعد عام أن يجد خطر الحرب جاثمًا كالسحابة المظلمة فوق هذا الجزء من العالم، فقرَّر أن يعود من فوره إلى أفريقيا دون أن ينتظر حتى ليفك حقائبه ويستوثق من أن المرضى في مستشفاه سوف لا يعانون من العجز في العقاقير والمؤن الطبية. ولم ينقضِ على ذلك شهر حتى كان على ضفاف نهر أوجو.

وجاءت الأنباء بإعلان الحرب التي كان الناس يتوقَّعونها منذ وقتٍ طويل. وكانت زوجة الطبيب وابنته قد عادتا إلى أوروبا قُبيل أن تصل هذه الأنباء إليه، ولكنه ظل مُقيمًا في مستشفاه. واحتاط الطبيب فلم يقبل في المستشفى إلا الحالات الخطيرة، وأخذ يُعيد جميع المرضى الذين لا تُنذر حالتهم بخطرٍ شديد إلى قراهم ليُعالَجوا فيها، وبذلك أصبح من المنتظر أن يكفيه ما ادَّخر من العقاقير سنتين على الأقل.

ولم يكن الأفريقيون الذين سيقوا إلى القتال في الحرب العالمية الأولى يتحدَّثون عنها بعد عودتهم إلا قليلًا، وقد كان يبدو عليهم الجد والصرامة وكأنما قد أثقلت عليهم خبرتهم بها إثقالًا شديدًا حتى عجزوا عن أن يحملوا أنفسهم على التفكير فيها.

وكان مريضٌ من مرضى المستشفى قد قال للدكتور شفيتزر: «لقد طلب مني القوم في القرية أن أحدِّثهم عن الحرب، ولكنني لم أستطع، ولو قد حدَّثتهم عنها لَمَا فهموني. لقد كانت فظيعةً غاية الفظاعة، بشعةً أشد البشاعة.»

وها هي ذي الحرب العالمية الثانية قد أتت بهذا الرعب إلى أفريقيا، ورآه القوم بأعينهم؛ فقد تقاتلت جنود الجنرال ديجول وجنود حكومة فيشي من أجل الاستيلاء على

لامبارينيه. وأصدر قُواد الطرفين الأوامر لرجالهم بوجوب قذف المستشفى القائم على بعد ميلين ونصف الميل من البلدة بالقنابل. على أن جدران مباني المستشفى كان لا بد أن تُدعم بالحديد المموَّج لحمايتها من القذائف الطائشة الكثيرة التي كانت تتجه ناحيتها.

وبانتصار جنود ديجول انقطع هذا الإقليم عن فرنسا وعن سائر أوروبا، ولكن السفن الخارجة من أمريكا وإنجلترة كانت تتخذ طريقها من حينٍ إلى حين إلى الساحل الغربي لأفريقيا.

وقد حدث مرةً حين أوشك زاد المستشفى من العقاقير أن ينفد أن أتت من أهل أمريكا هبة لم تشمل العقاقير التي كان المستشفى في مسيس الحاجة إليها فحسب، بل شملت أيضًا أشياء كأدوات الطهو الجديدة اللازمة للمطبخ، والنظارات، والأحذية، واللبن المجفف، وزيت كبد الحوت، وغير ذلك من الفيتامينات اللازمة. وتوالى فك مغاليق الصناديق، وكانت صيحات الفرح تنطلق في كل مرة. وكان من بين الأشياء التي نالت ترحيبًا خاصًّا زوجٌ من القفازات المصنوعة من المطاط تُناسب يدَي الطبيب؛ ذلك أنه كان قد قضى عدة أشهر يضع في يديه قفازات أصغر ممَّا يناسبه كثيرًا وهو يُجري الجراحات.

وحاولت هيلين شفيتزر أن تعود عن طريق البرتغال سالكةً طريقًا ملتفًّا يجتاز تلك المستعمرات البرتغالية والبلجيكية في أفريقيا لتساعد زوجها. وظلَّت أربع ممرضات مُخلصات يعملن في المستشفى طوال الحرب.

فلمَّا بلغت الأنباء مُعلنةً انتهاء الحرب في أوروبا، كان بلوغها في ساعة الراحة بعد وجبة الغداء، وكان الطبيب جالسًا إلى منضدته يكتب رسائل هامةً يريد أن تلحق المركب النهري قُبيل الساعة الثانية. وأقبل رجلٌ أوروبي كان يستمع إلى جهاز إذاعة من الأجهزة التي تُحمل في اليد يزف الأنباء إليه. وأتم الطبيب رسائله ثم نزل إلى عنابر المستشفى حيث كان الأمر يتطلَّب وجوده. ولم يسمح لنفسه بأن يتوقف عن العمل ويفكِّر في مغزى انتهاء القتال في أوروبا إلا عندما حلَّ المساء، وقُرع جرس المستشفى لإعلان تلك الأنباء الطيبة، فساد السرورُ بين هيئة المستشفى والمرضى، ولكن الطبيب الذي خلا بنفسه في غرفته تناول من الرف كتابه الصغير الذي يشتمل على أقوال لاوتسي المفكر الصيني العظيم الذي عاش منذ نيف وخمسة وعشرين قرنًا. وداعب نسيمٌ عليل أشجارَ النخيل خارج نافذته وهو جالسٌ يقرأ في هدوء:

«إن الأسلحة أدواتٌ مدمرة لم تُخلق لإنسانٍ نبيل، ولا يستخدمها إلا ذلك الذي لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر؛ فالرضا والسلام أسمى ما يصبو إليه، صحيحٌ

أنه يغزو البلاد، ولكنه لا يجد في النصر سرورًا ولا متعة؛ فإن من يطربه النصر، يطربه القتل. ولا مناص للقائد في الاحتفال بالنصر أن يتخذ مكانه، كما جرت العادة، في حفلات الجنائز. وإن تقتيل البشر حشودًا يجب أن تُذرَف من أجله دموع الرحمة؛ ولهذا يجب على من ينال الظفَر في موقعة أن يَعُد نفسه كمن يمشي في موكب جنازة.»

وبعد عشر سنين قضاها الدكتور شفيتزر في أفريقيا دون أن ينعم براحةٍ أو تغيير للجو، لحق بأسرته في الغابة السوداء بألمانيا، ثم في سويسرة حيث كان يقيم فيها أربعة من أحفاده ينتظرونه لتحيته.

وكانت شهرته تنتشر باطرادٍ بمرور السنين، وكما أحس الموسيقيون وأهل العلم الذين انصرفوا إلى دراسة الفلسفة أو اللاهوت بحاجتهم إلى الرسالة التي كتب على نفسه أن يؤديها، كذلك أحس بها عالَم بأسره أنهكته الحرب.

«إن الفكرة الأساسية في الخير هي أنها تقوم بالمحافظة على الحياة ورعايتها والرغبة في البلوغ بها إلى أسمى قيمها، والشر يقوم بتدميرها وإلحاق الضرر بها والحيلولة بينها وبين النمو.»

وبدأ الناس من بلاد خارج أوروبا يطلبون منه أن يأتي إليهم، وجاءته الطلبات من أمريكا وأستراليا ومن الشرق. وقبل الدكتور شفيتزر دعوةً وُجِّهت إليه للتحدث في إسبن من أعمال كلورادو بمناسبة حلول الذكرى المائتين على ميلاد جوته. وأقبلت حشودٌ من جميع أرجاء هذا الإقليم إلى هذه البلدة الصغيرة من بلدان الغرب في أمريكا للاستماع إليه. وبينما كان الطبيب يتحدث بلغة قومه أخذ مترجم يكرِّر كلماته جملةً جملة.

وكان بين عدد كبير من المستمعين تآلفٌ كامل في الأرواح، حتى لقد بدا أنهم يتتبَّعون المعاني التي عبَّر عنها لا بواسطة المترجم فحسب، بل عن طريق كلامه هو نفسه أيضًا بلسانٍ لا يعرفونه.

وقد قال الطبيب حين حدَّثه بذلك من بعدُ واحدٌ ممن كانوا يستمعون إليه: أجل إن هذا هو ما يحدث في كثيرٍ من الأحيان بين أناسٍ يتحدَّثون بلغاتٍ مختلفة. وقد لمستُ ذلك الفهم عدة مرات يقوم بين المواطنين في أفريقيا وبيني دون أن نحتاج إلى كلام.

وقليلٌ من الناس من يستطيعون أن يقاوموا إغراء التملُّق والثراء اللذين يقترنان بالشهرة، ولكن الدكتور شفيتزر آثر أن يعود في هدوء إلى مستشفاه بأفريقيا ليمضي في

العمل الذي بدأه. ووقوع هذا له جعل الناس ينظرون إليه في عجبٍ ودهشة، وانهالت عليه الرسائل من آلاف الناس عن طريق مكتب البريد في لامبارينيه، وتأثَّر الطبيب في تواضعه بهذا الفضل وحاول أن يرد على هذه الرسائل جميعًا بنفسه، وإن كان ذلك خليقًا بأن يقتضيه مواصلة العمل حتى ساعةٍ متأخرة من الليل على ضوء مصباح يُضاء بالزيت.

وحدث ذات مساء من أمسيات خريف عام ١٩٥٣م أن أقبل مساعد شاب من مساعديه إلى الغرفة التي كان الدكتور شفيتزر جالسًا فيها مكبًّا على الكتابة، وقطع عليه عملَه ليُنبئه بما سمعه في التو واللحظة من الراديو الصغير الخاص به: لقد مُنح الطبيب وشيكًا جائزة نوبل للسلام عن السنة الماضية. وتلقَّى الطبيب هذه الأنباء في سكون، ووضع قلمه في مكانه وغطَّى وجهه براحتيه دون أن ينطق بكلمة.

وكان المجذومون في هذا الجزء من أفريقيا هم الذين أفادوا من هذه المنحة، وأنفق الطبيب المال الذي أتت به الجائزة مضافًا إليه مبلغ آخر مثله تبرَّعت به النرويج في إيواء ثلاثمائة مريض من مرضى الجذام. وكان في الإمكان بفضل العقاقير الحديثة أن يُشفى الجميع، وقد شُفوا وعادوا آخر الأمر إلى قُراهم، ولكنهم كانوا قد زُوِّدوا أثناء نقاهتهم وفترة الملاحظة التي أعقبت نقاهتهم بمساكنَ متينة جيدة البناء ليعيشوا فيها، وكانت بهذه المساكن غرفة حديثة للفحص والعلاج.

الفصل الرابع عشر

«ما أسعد أولئك الذين قُدِّر لهم أن يقضوا سنوات العمل في بلوغ غايات أسمى من السعي والانتظار! وما أسعد أولئك الذين يستطيعون أن يبذلوا أنفسهم صادقين لا يضنون بشيء!»

من كتابه: «خلاصة حياتي وأفكاري»

جلس بين رُكاب قطار ذاهب من القناة الإنجليزية إلى لندن في يومٍ من أيام أكتوبر رجلٌ هادئ أشيب الشارب تشوب كتفَيه انحناءةٌ خفيفة نتجت من إدمانه الجلوس إلى مكتبه، وكان يرتدي سترته النظيفة السوداء في إهمال كأنما قد نسيها بمجرد أن لبسها، وكان إذا خلع قُبعته انساب شعره الأبيض متهدِّلًا على جبينه، وإذا تحدَّث إلى رفاقه تحدَّث بالألمانية في نبراتٍ عذبة لا تشوبها تلك الأصوات الحلقية الغليظة.

وكان إذا نظر إليه عرضًا أي راكب من ركاب الدرجة الثالثة لكان خليقًا أن يظن في يسرٍ أنه رجل من مرتبته، ثم يعود إلى القراءة في جريدته أو يُطل من النافذة على المناظر الطبيعية التي كانت تتحرك في سرعةٍ وعجلة.

وزحف القطار داخلًا محطة لندن، ولمَّ الرجل الأبيض الشعر متاعه في نشاط نمَّ عن روحه الشابة. وعندما خطا هابطًا من القطار نظر الركاب الآخرون الذين كانوا قد تلبَّثوا خلفه أمامهم في عجب؛ إذ رأوا هذا الرجل البريء من الفضول يُحيط به المُخبِرون والصحفيون والمصوِّرون الذين كانوا قد اندفعوا مهرولين إلى المكان الذي وقفت عنده عربات الدرجة الأولى، وانطلقوا يُشعلون مصابيح الإضاءة أمام عدساتهم ليُصوِّروه ويوجِّهوا إليه الأسئلة مدونين الإجابة عنها في دفاترهم. تُرى من هذا الرجل الذي كان راكبًا معهم ملتزمًا الهدوء في عربة الدرجة الثالثة؟ ولربما كان بعض الركاب غيرهم ممن أنعموا النظر فيه

قد تذكَّروا ما كان يشوب عينيه من تعبيرٍ يمتزج بقوةٍ وذكاء وشفقة ودماثة ميَّزته عن الركاب الآخرين.

وكان الدكتور شفيتزر قد وصل إلى لندن ليتلقَّى وسام الجدارة، وهو أرفع وسام في البلاد التي أنعمت به عليه الملكة إليزابيث. وكان الشخص الآخر الوحيد الذي حظي بهذا الشرف من الأحياء باستثناء رعايا بريطانيا العظمى هو الرئيس دوايت د. أيزنهاور.

فلمَّا أُعلِن نبأ اعتزام الدكتور ألبرت شفيتزر أن يزور لندن، تلهَّفت أفخر الفنادق على استضافته، ولكنه آثر أن يُقيم في بيت صديقٍ قديم له من الألزاس كان قد عرفه في شبابه، وكان لهذا الصديق قاعة شاي في لندن، وما إن انتشرت الأنباء بأن الدكتور شفيتزر كان يقيم هناك حتى ازدحم الناس عليها لتكريمه.

وكان من بين المُقبلين من غير هؤلاء الفيلسوف برتراند راسل، وقد حقَّق الفنان أغسطس جون مطمحًا من أعز أطماحه؛ إذ استطاع أن يلقى الطبيب ويرسم صورةً له.

وكان تعليق الفنان على جلوس الطبيب إليه جِلسةً شابها كثير من المقاطعات حين سأله المخبرون الصحفيون: «لقد جلس حقًّا كالحجر.»

وفي التاسع عشر من أكتوبر مضى سفير فرنسا إلى قاعة الشاي الصغيرة راكبًا سيارة ليموزين سوداء متألقةً ليصحب الطبيب معه إلى قصر بكنجهام ليتلقَّى ذلك الوسام.

فلمَّا انتهت الحفلات الرسمية جلست الملكة الشابة تتحدث مع الدكتور شفيتزر مشوقةً إلى الاستماع إلى ما فعله بين المواطنين في أفريقيا.

وأقام له بعد ذلك السير أنطوني إيدن رئيس الوزراء مأدبة غداء، ومنحت جامعة كمبردج الدكتور شفيتزر درجة الدكتوراه الفخرية في القانون.

وقال متحدث الجامعة في خطاب تقديمه الذي ألقاه باللاتينية:

لقد كان بلا ريب خليقًا بأن ينال أسمى آيات الشرف بين العلماء لو لم يؤثر أن يلبي دعوة الرب ودعوتنا، ويستمع إلى صوته إذ أوصى حوارييه بأن يشفوا المرضى ويُطهِّروا المجذومين ويجودوا بما عندهم في سخاءٍ كما تلقَّوا النعم بسخاء. ولْنتوسل بكل ما وسعنا من أسبابٍ خليقة بجامعة في الثناء على الطبيب العظيم، وتبجيل كاتب نابه، والتعبير عن شكرنا لعازف موسيقى موهوب، ولْنحيِّ بكل تواضع هذا الجندي المخلص من جنود المسيح؛ إذ نرى فيه مثالًا للبِر المسيحي، تبقى ذكراه على الأيام.

وقد أُسبغ هذا الفضل على الرجل الذي بقي على مر السنين أمينًا على القرار الذي اتخذه وهو تلميذ صغير؛ بألَّا يسمح لنفسه أن «يتوقَّر بحكم السن»، ولا أن يخجل قط من

أحلام الشباب. وظل الدكتور شفيتزر وهو في سن الثمانين يحتفظ بالمثل والحماسة التي اتصف بها وهو صبي حينما نظر في رحمةٍ إلى جواد عجوز يُساق إلى المجزر، وحينما فرَّق الطيور ليحميها من حجارة مقلاع صاحبه. وكان وهو في سن الثمانين أيضًا كدأبه يأبى أن يضع نفسه فوق غيره من الناس، كما أبى وهو في سن الخامسة أن يلبس ملابس لم يكن يستطيع صبيان القرية أن يلبسوها.

وكانت بعض المسئوليات خليقةً بأن تلازم شهرةً كشهرته؛ فكان كلما أقام في بيته بجونسباخ شعر بأن تلك القرية الهادئة الصغيرة لم تعد كحالها في الأيام الخالية؛ إذ لا يكاد الناس يعرفون أنه قد وصل إلى هناك من أفريقيا حتى تأخذ حشودهم تترى على القرية حاجَّةً إلى بيته لتراه وتتحدَّث إليه.

وكان أصدقاؤه يستحثونه في كثير من الأحيان قائلين: «يجب ألَّا تحاول أن تراهم جميعًا ادخارًا لقوتك.»

ولكن الطبيب أبى أن يُصغي إليهم بما عُرف عن الألزاسيين من عناد، فكان لا يرد أحدًا خائبًا، فتنتظر السيارات الخاصة وسيارات الأجرة والدراجات البخارية والدراجات خارج بابه الذى يُطل على الشارع المؤدي من جونسباخ إلى مونستر. وكان بعض هؤلاء الناس قد أتوا من بلاد بعيدة ليحظَوا بنظرة إلى هذا الرجل العظيم. وأقبلت ملكة بلجيكا الأم لتزوره كما كانت تفعل في كل مرة يعود فيها الطبيب إلى أوروبا. وأقبلت أيضًا السيدة بانديت من الهند، وكذلك كان يُقبل عليه الأطباء والموسيقيون وأساتذة الجامعة ورؤساء الحكومات وطلبة من أمريكا حائزون على منحة فولبرايت، وسُياح ممن قرءوا كُتبه أو استمعوا إلى عزفه في قاعات الموسيقى أو عن طريق الفونوغراف.

كان يُصر على أن يرى هؤلاء جميعًا من فلاحين وقرويين وعلماء وعمال بسطاء، كانوا جميعًا يُقبلون أثناء النهار سواء كانوا من المعروفين أو من غير المعروفين. وكان بعضهم يريد مساعدة، وبعضهم يحمل إليه هدايا بسيطةً من الأزهار أو الفاكهة.

وكان في الطبيب شيء يجعل كل امرئ يتحدَّث معه يُحس بأهميته عندما ينتهي من لقائه، وكأنما انتقاه هو بالذات دون الآخرين، واهتمَّ اهتمامًا خاصًّا بكل ما قاله هذا الشخص وفعله.

وبدأ الطبيب — بعد زيارة لأوروبا استغرقت ستة أشهر — يدبِّر أمر العودة إلى مستشفاه في أفريقيا. وكان آخر مبنًى في قرية المجذومين قد أوشك على الانتهاء، وود الطبيب أن يرى كيف يمضي العمل فيه، ثم إن الأمر كان يقتضي أن يُستخلَص الدَّغَل

من بستان الفاكهة الذي كان أهل الغابة لا يكفُّون قط عن ادعاء ملكيته. وكان ينتظره أيضًا المرضى الذين كانوا لا يزالون يُقبلون على المستشفى، فتأتي الزوارق كل يوم صاعدةً إلى المرسى، وقد حمل الأصحاء فيها مرضاهم. وكان بعض المرضى يظلَعون وهم يرقون المنحدر بفعل قروحهم المؤلمة، وأقبل البعض الآخر يترنَّحون من الجروح التي أُصيبوا بها في قتال، أو أنزلها بهم وحش مفترس. وكانت الأمهات يجلبن أطفالهن وقد ألهبت الحمى أجسامهم، وربطنهم في حنانٍ وأمان على ظهورهن، وكان ينتظره فوق ذلك اليتامى والعجائز المشردون بلا مأوًى ولا نصير.

وما أكثر الرحلات التي قام بها في السنين الماضية آتيًا من ساحل أفريقيا الغربي ومصعدًا في نهر أوجو، وكان في بعض الأحيان يصل إلى بغيته بالنهار فيستطيع أن يقف فوق سطح الباخرة وعيناه تبحثان في شوقٍ على طول الضفاف تحف بها أشجار النخيل، آملًا في أن يحظى بالنظرة الأولى إلى لامبارينيه، ويرى الشمس تتألق كالعُملة الذهبية على صفحة الأمواج، وتقفز من حينٍ إلى حين سمكة كبريق الفضة ثم تختفي، أو تمضي حيةً من جانب الماء في لون الرصاص منسابةً لا تلقي بالًا لكل ما حولها. وتمر الزوارق المنحوتة من كتل الخشب رائحةً غادية، لا تزعجها أفراس النهر ولا التماسيح إلا إذا بلغت الأماكن القاصية، حيث تقوم القرى نائيةً على البعد.

وكان الزورق في غير ذلك من الأوقات يصل في ساعةٍ متأخرة من الليل، فيطلق صفيرًا ويمضي إلى المرسى في لامبارينيه. ثم تبدو أنوار البيوت والمخازن التجارية نورًا بعد نور، ويجتمع الناس على حافة الماء، وتُسمع هنا وهناك في القرى الوطنية الصغيرة القائمة بين البلدة والمستشفى أصوات طبول تُدقُّ دقات مؤديةً رسالة لا يزال كثيرٌ من العجائز يدركونها ألَا وهي:

«إن الزورق الذي يحمل الطبيب الأكبر قادمٌ إلينا.»

وقضى الطبيب عيد ميلاد سنة ١٩٥٥م في الباخرة بين بوردو وثغر جنتيل، وكان الإكليل الأخضر الكبير الذي عُلق فوق مائدة الطعام في المستشفى قد رُفع جافًّا هشًّا، وقد احترقت الشموع حتى أطرافها قُبيل أن يصل الطبيب إلى المستشفى، على أن احتفالًا آخر لم يلبث أن حلَّ أوانه؛ ففي ١٤ من يناير كان يُحتفل بعيد ميلاد الدكتور شفيتزر الواحد والثمانين في كثيرٍ من أنحاء العالم، بالمحاضرات والحفلات الموسيقية أو المواعظ. أما

المستشفى بلامبارينيه فلم يخرج الاحتفال بعيد ميلاده عن أعياد الميلاد التي كانت تُقام لبقية الأفراد من هيئة المستشفى.

وقد اجتمع زملاء الدكتور شفيتزر في العمل أمام بابه في منتصف الساعة الثامنة قبل أن يدق جرس الإفطار تمامًا، وأقبلوا من جميع الاتجاهات مرتدين ملابسهم البيضاء وخوذاتهم الكبيرة كأنهم نباتات عش الغراب الطويلة الساق تسير على قدمين. أجل خرجوا من عنابر المستشفى حيث كان الأطباء والممرضات يعملون منذ دق الجرس الأول مع شروق الشمس، ومن قرية المجذومين، ومن خارج المطبخ، ومن غرفة الغسيل، ومن ذلك الجزء من الحديقة الذي يُطل على ضفة النهر، وراحوا يُنشدون الأناشيد متمنين له عيد ميلاد سعيدًا، ثم دخلوا غرفته ليصافحوه.

وكانت هذه الغرفة صغيرةً لا تتسع لهم جميعًا في وقتٍ واحد. وكانت أيضًا كسائر غرف هيئة المستشفى والضيوف، بعيدةً عن الفخامة بسيطة الأثاث، لا يغطِّي أديمها شيء، وقد خلت كراسيها الخشبُ المستقيمة من الوسائد. وكانت الكلة مسدلةً على سريره الحديدي وقد تكوَّمت في الغرفة على منضدتين أكوام عالية من أعمال تنتظر البت فيها. وكان البيانو المخطط بالمعدن يشاهَد من بابٍ مفتوح في طرف غرفة انتظار صغيرة، وفي الطرف الآخر حظيرة للظباء الوليدة.

وخرج الطبيب وهيئة المستشفى معًا إلى بهو الطعام الكبير مجتازين الفناء. وكان يزيِّن مقعدَ الطبيب القائم في وسط المائدة الطويلة نصفُ دائرة من الأغصان الخضراء تستكن فيها شمعتان مضيئتان، والتفَّتْ بالطبق أكوامٌ من الهدايا المقدَّمة إلى الطبيب من أفراد هيئة المستشفى. كانت هدايا بسيطةً بساطة حياة الطبيب، من ذلك الطراز الذي يمكن للمرء أن يصنعه في أوقات فراغه أو يشتريه من المحلات التجارية في لامبارينيه.

وقال الطبيب «هلم» حين كانت الهدايا يُحل رباطُها، ويشكر كلًّا بدوره على ما قدَّمه؛ فقد كان اليوم يوم سبت وأمامهم عمل يتطلَّب الأداء. وتناول المحتفلون إفطارهم من الخبز المخمَّر باللوز، والمخبوز في الفرن المصنوع من الآجُر، وكان بين أصناف الطعام أيضًا مربى مصنوعة من فاكهة المنطقة الحارة التي استُنبتت في أراضي المستشفى، وزيد على ذلك بمناسبة الاحتفال زبد محفوظ كانت قد أرسلته لهم الدنمارك، ولبنٌ مجفف من أمريكا ليُمزج بالقهوة الأفريقية.

وقد دق الجرس مرةً أخرى في الساعة الثامنة لرصد الحضور والغياب وتقسيم العمل، وكان ثمة وجوهٌ جديدة لم تكن موجودةً في المستشفى قبل ذلك بستة أشهر حين غادر

الطبيب أفريقيا إلى أوروبا، ووجوهٌ أخرى غابت عن الأنظار؛ ذلك أن عُمال المستشفى كانوا يُجمَعون من بين أولئك الذين قدموا في صحبة مريض من أسرتهم أو قبيلتهم، أو من المرضى أنفسهم الذين استردوا صحتهم بما يسمح بتكليفهم بالأعمال الهينة.

وهتفوا مخاطبين الطبيب وعلى وجوههم ابتسامات عريضة: «موبولو، دكتور.»

وكان المشهد المعهود الذي يراه المرء في الفناء قد تغيَّر قليلًا على مر السنين، فراحت الكلاب والقطط والبط الأفريقي الأسود والأبيض تنبش في الأرض الرطبة بحثًا عن الديدان، وأخذت الببغاوات تُصفِّر وتنطق بكلماتٍ من لغاتٍ مختلفة كانت قد سمعتها، وانطلقت نعامةٌ صغيرة تتقلَّب رأسًا على عقب وتتأرجح على أسياج ظُلة البيت كأنها طفلٌ خبيث. وانبعثت الظباء تدس أنوفها السوداء الندية خلال أسلاك حظيرتها متطلعةً في فضول.

ومضى بعضُ الذين أقاموا في المستشفى مدةً أكثر من غيرهم إلى النهوض بالأعمال التي خُصصت لهم في هدوء، وكانوا يلبسون سراويل كاكيةً نظيفة وقمصانًا ومرايل زرقاء من القطن الخشن، وقد التفَّت الضمادات بعقب أو رسغ فحسب، دالةً على أنهم كانوا قدموا إلى المستشفى من قبلُ للعلاج.

على أنه كانت تبدو على أولئك الذين وفدوا إلى المستشفى أخيرًا أمارات الحيرة؛ فقد كان تكيُّفهم بالنظام فيه يقتضي وقتًا.

وكان المرء يشاهد في المستشفى ذلك الحشد المعهود من الأردية الملوَّنة على اختلاف الأصناف والأشكال، كما كان العهد في أول إنشائها، يشاهد أقمشة مانشستر المطبوعة الزاهية ملتفةً ثنيات ثنيات حول الأجسام، والملابس الفضفاضة وقد غدت الآن مِزَقًا، ومآزر التفَّت على أجسامٍ شبه عارية لأناسٍ أتَوا من أعماق البلاد. وكانت وجوه بعض هؤلاء قد وُشمت بشارات قبائلهم، وقد سنَّ كثير منهم أسنانهم تتوسَّطها سن واحدة مكسورة.

ونودي اسم، فكان الرد «ووه» يلفظ به كل منهم وهو يتقدم خطوةً إلى الأمام، وتناول بعضُهم المعازق ومضَوا للعمل في حقل الخضر، وتناول بعضُهم بلطًا ومناجل ليجتثُّوا بها الكلأ الذي لا يكف عن الزحف، وأخذ بعضهم يُعاوِن على البناء والطلاء والإصلاح أو التنظيف، وكان بعضهم قد خُصص لهم أعمال هينة يستطيعون أن يؤدوها وهم جالسون؛ مثل جدل مظلات الخيزران لحماية النبيتات في الحديقة من الشمس والمطر.

واستدار الطبيب وهبط إلى عنابر المستشفى، وكان هناك أيضًا وجوهٌ جديدة لم يرَها منذ ستة أشهر، ومرضى جدد يحلون محل أولئك الذين شُفوا وعادوا إلى قراهم. كانوا يرقدون في أسِرتهم يعانون الحمى والآلام بالصبر والاحتمال اللذين نشأ عليهما جميع

المخلوقات التي تعيش حياةً قريبة من الفطرة. وأخذ الطبيب يتنقَّل من سريرٍ إلى سرير يواسي كل مريض بكلمة، وكان يدرك بعينه اللمَّاحة المجرِّبة الفرص المتاحة لكل منهم في الشفاء.

ومرَّ بغرفة حضانة الأطفال بستائرها النظيفة البيضاء المصنوعة من الموصلي، وقد زُينت حوائطها برسوماتٍ تمثِّل الفيلة والنسانيس والزراف، خطَّتها يد ممرضة من الممرضات. ومن ثلاثة أسفاط حملقت فيه ثلاثة أزواج من أعينٍ سوداء واسعة، وأخذت أرجلٌ صغيرة ربلة ترفس في الهواء بأقدامها وتنبش بأصابعها راضية هانئة. وكان هؤلاء هم المواليد اليتامى الذين زُوِّدوا بأول زاد صحي يكفل لهم مواجهة الحياة آمنين.

وكان يوسف قد عاد آنئذٍ إلى المستشفى، وإن كان لم يعد إليه عاملًا من العمال، وقد كانت له غرفة خاصة به قرب النهر يستطيع منها أن يُطل عبر المجرى الفرعي إلى قرية الجالوا التي كانت وطنه في يومٍ من الأيام، صحيح أنه كان أصغر سنًّا من الطبيب، إلا أن الأيام التي كان يمكن أن يكون فيها ذا نفع قد ذهبت؛ ذلك أن زوجته التي ظل يقتصد مدةً طويلة ليشتريها قد ماتت، وكبر أولاده جميعًا وتزوَّجوا، كما كان قد أنفق منذ وقت طويل المال الذي تلقَّاه مهرًا لبناته، وأصبح لابنه أسرة يتولَّى أمرها.

كان يوسف قد أقبل ليُمضي أيامه الأخيرة في ذلك المكان الوحيد الذي يمكن أن يؤويه ويُعنى به.

وكان أويمبو قد عاد مريضًا قبل ذلك، فما إن شُفي حتى عاد إلى قريته المطلة على البحيرة، وكانت الصداقة بينه وبين الطبيب قد استمرَّت على مدى السنين.

وكان من بين هؤلاء القوم أصدقاء قدماء آخرون، حيَّوا الطبيب وهو يتسلَّق التل إلى مستعمرة المجذومين؛ ذلك أن المرضى في هذه القرية كانوا يُستبقَون مدةً أطول من غيرهم للتثبُّت من أن المرض لن يعاودهم.

وكانت عبارة «موبولو، دكتور» وعبارة «صباح الخير أيها الطبيب» تنبعثان من كل جانب.

وكان ممَّا يبعث السرور في النفس أن يراهم المرء يعيشون في عمائرَ جيدة البناء تدرأ عنهم المطر وشمس المناطق الاستوائية، ويأنس منهم نظرةً تنطوي على العزة والوثوق بالنفس، لا يجدها في القرى التي ينام أهلها على حصيرٍ من القش المجدول فحسب، بُسِط على أديم أرض قذر، تزحف إليه الحيات والحشرات، وتتسرَّب أمطار الليل.

وكانت اللمسات الأخيرة تُدرك آخر المباني، ومضى الطبيب يقوم بجولته التفتيشية يتنقَّل من مكانٍ إلى مكان في خفة رجل يبلغ نصف عمره.

وكانت طائفة من الأطفال تتمرَّن على الأناشيد التي تُنشدها يقودها مدرِّسها الباهويني والأم هيلين، وأقبلوا صفوفًا هابطين التل إلى نوافذ بهو الطعام أثناء وجبة الظهيرة ليحيوا الطبيب الأكبر في عيد ميلاده. وانطلقت أصواتهم الغضة تتغنى بالألحان الأوروبية القديمة المعهودة، تشوبها كلمات قصيرة متقطعة من لغاتهم هم.

وأعقبت الغداءَ ساعةُ راحة ثم استؤنف العمل مرةً أخرى كما هي الحال دائمًا، وأقبل موبولو الذي كان يُترجم عظات يوم الأحد للجالوا من الزورق، يحمل أكياس البريد التي كان قد أتى بها من مكتب بريد لامبارينيه، ولكن الطبيب كان غائبًا في البساتين، أو قل إنه كان يعمل في قرية المجذومين، أو بين المرضى في عنابر المستشفى، ولم يكن يستطيع أن يتصرَّف في وقته على ما يهوى حتى يدق جرس المساء.

والنهار ينتهي سريعًا كما يبدأ بالقرب من خط الاستواء. وما إن تختفي الشمس وراء الأشجار في الأفق الغربي حتى تنبعث الببغاوات النحيلة الرمادية بريش ذيلها الأحمر الزاهي تصيح وتصفِّر عائدةً إلى وُكُناتها. وتحتشد طيور النساج في الأغصان المورقة لشجرةٍ من أشجار القرفة، وتستكن طيور الماء في جزائر البردي مسقسقةً من حينٍ إلى حين سقسقةً يغلبها النعاس. وتأتي لحظة تصطبغ فيها السماء بلونٍ بهيج برتقالي وأحمر قانٍ «ناري» وذهبي، فتتألَّق على صفحة الماء تألُّق الوسام، ثم يحل الظلام فجأةً وينبعث أزيز الحصاد والضفادع والكلاب الطائرة مطلقةً سقسقتها ونقيقها ولقلقتها التي كفَّت عنها عند ظهور الفجر، ويقترن ذلك من حينٍ إلى حين بنعيب البومة المرتجف أو صراخ نسناس من النسانيس.

وكانت نيران الطهي تتوهَّج على طول الدهاليز الممتدة المنخفضة لأبنية المستشفى كأنها فوانيس القرع، وهي النيران التي يُعِد عليها أُسَر المرضى وجبة العشاء. وكانت تسري في الجو ثرثرة مُطَّردة إذ أخذ بعض القوم يضحكون وبعضهم يصيحون في كلماتٍ غاضبة، وبعضهم ينشدون أغنيةً وطنية ترتفع أنغامها أولًا ثم تنخفض كأنها طيور تشدو. ويصيح من حينٍ إلى حين طفلٌ أو يسعل شخص أو ينبعث من داخل عنبر من العنابر أنين مريض يتوجَّع.

وكانت المصابيح الزيتية قد أُضيئت في رواق الطعام، والتقى الطبيب بهيئة المستشفى لتناول العشاء، وكان من بين هؤلاء بعض المساعدين المخلصين الذين ظلوا يعملون معه

عدة سنين، يعودون إلى المستشفى مرارًا وتكرارًا بعد غيبة، في إجازةٍ يقضونها في أوطانهم، وكان من بينهم أيضًا شباب يَنشُدون المُثُل العليا، قد زهدوا في النجاح المادي، كما فعل الدكتور شفيتزر منذ نصف قرن تقريبًا، ولم يكن من المنتظر أن يظلوا معه جميعًا، إلا أنهم كانوا أحرياء بأن تزداد حياتهم خبرةً مهما كان من أمر المستقبل الذي ينتظرهم.

وعاد الطبيب إلى حجرته في هدأة ليل المناطق الاستوائية، وراح يراجع البرقيات والرسائل التي كانت قد أتت إليه من أناسٍ في جميع أنحاء العالم، وتحمل كل رسالة دليلًا جديدًا على صدق ما كتبه منذ وقت طويل:

«إن إنسانيتنا لا تبلغ من المادية بحالٍ المبلغ الذي يدأب الحمقى في حديثهم على إثباته.»

ودق جرس المساء في الساعة التاسعة، ونهض الأطباء والممرضات الذين كانوا لا يزالون في بهو الطعام مغادرين المكان إلى غرفهم، وأطفأ آخرُهم المصابيح وأغلق الباب. وكانت نيران قدور الطهي في الخارج قد أُطفئت مع دقات الجرس، وتوقَّف فجأةً اللغط الذي كان يُحدِثه الوطنيون المجتمعون في ندواتهم، وهبَّ نسيمٌ عليل داعب نور المصباح في حجرة الطبيب، وتمايلت أشجار المانجو تتهامس، وأطلق صغير العنزة صيحةً كصيحة الطفل، وأجابته الأم بصوتٍ مطمئن، ورقد تشوتشو كلب الطبيب الأبيض المصفَر متكورًا عند قدمَي سيده مستغرقًا في أحلام الطراد والصيد.

«إني لأتطلع إلى المستقبل في هدوءٍ وتواضع …»

وكانت قد مضت خمس وعشرون سنة منذ كتب الدكتور شفيتزر هذه الكلمات، وها هو ذا في الواحدة والثمانين من عمره؛ إذ يمضي في العمل يقرأ ويرد على الرسائل أو يتناول الكتاب الذي كان يكتب فيه، مرهف السمع لا يند عن أذنه شيء، فإذا انبعث صوتٌ من النهر أدرك أن زورقًا من الزوارق مقبلٌ إلى المرسى يحمل مريضًا يحتاج إلى العناية، وإذا سمع وقع أقدام في الممشى أدرك من ذلك أن ثمة رسالةً إليه تقتضي أن يهبط إلى عنبر المستشفى.

«لا شك أن الواجب لَيقتضينا، سواء أكنا نعمل أم نشقى، المحافظة على قوانا بوصفنا بشرًا، قد شققنا طريقنا إلى السلام الذي يجاوز كل فهم وإدراك.»

هنداوي